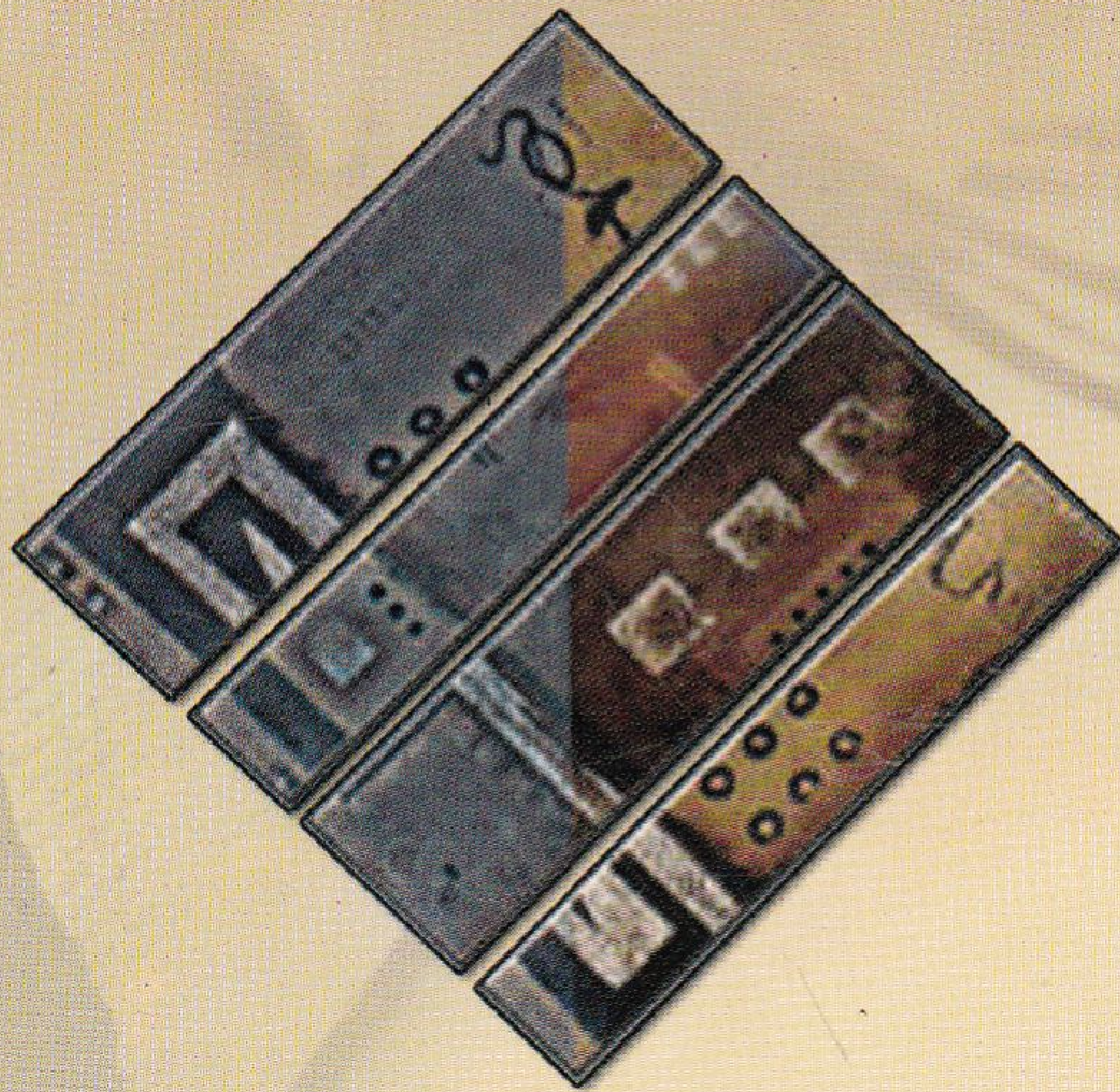
منجز شيوقي في ضيف النقدي

ناقد الشعر وسلطة التراث



أحمد العاقور

المدرس المساعد بقسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

كلية دار العلوم - جامعة الفيوم

Editions Al-Adab 1923

42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨

ناقد الشعر وسلطة التراث



الناشر

مكتبة الآداب
علي حسن

الطبعة الأولى : ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

العاقور ، أحمد.

منجز شوقي ضيف النقدي: ناقد الشعر وسلطة التراث/
أحمد العاقور.-
القاهرة: مكتبة الآداب ، ٢٠١١.
ص ؛ سم.
تدمك ٥ ٢٩٦ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الأدب العربي - تاريخ ونقد
٢ - شوقي ضيف، أحمد شوقي عبد السلام ضيف، ١٩١٠ - ٢٠٠٥
أ - العنوان

٨١٠,٩

عنوان الكتاب: منجز شوقي ضيف النقدي

تأليف: أحمد العاقور

رقم الإيداع: ١٨٤٢ لسنة ٢٠١١م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978 – 977 – 468 - 296 – 5

مكتبة الآداب
علي حسن
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
هاتف ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢) -
e-mail: adabook@hotmail. com

منجز شوقي ضيف النقدي

ناقد الشعر وسلطة التراث

أحمد العاقور

المدرس المساعد بقسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

كلية دار العلوم - جامعة الفيوم

مكتبة الآداب

42 ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: 23900868

e.mail:adabook@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُحتويات الكِتاب

المُقَدِّمَة

تَجْرِي الرِّياحُ بما تَشْتَهِي السُّفُنُ..!

بِهَذَا التَّحْرِيفِ «الاضْطِرارِيِّ» لِشَطْرِ الـمُتَنَبِّي الأَثِيرِ يُمْكِنُ أَنْ تُخْتَزَلَ قِصَّةُ هذه السِّلْسِلَةِ التي أَعْتَزِمُ القِيامَ عَلَى شَأْنِها، فَبَعْدَ خَوْضِ غِمارِ مَيادِينَ شَتَّى؛ بَحْثًا عنْ مَجالٍ صالِحٍ لِدِراسَةِ الـماجِسْتِير، اسْتَقَرَّ بِي الـمُقامُ دون سابِقِ إِعْدادٍ أو تَشَوُّفٍ عِنْدَ مَوْضُوعٍ: "شوقِي ضَيْفٍ وَنَقْدِ الشِّعْرِ"؛ فلمْ أَزْدَدْ مُدَّةَ مُصاحَبَتِي إِيَّاه إلا قَناعَةً بِأَنَّنِي لَمْ أَكُنْ في مَوْجِدَتِي على فَواتِ غَيرِه إلا غِرًّا، وأَنَّه حَقًّا بِمُكْنَتِه إِشْباعُ نَهَمِ الباحِثِ الـمُتَطَلِّعِ لاسْتِكْمالِ تَكْوِينِه الـمَعْرِفِيِّ والـمَنْهَجِيِّ، ومِن ثَمَّ لَمْ أَرَ مَعْدًى أَثْناءَ تَرْدادِي شَطْرَ بَيْتِ الـمُتَنَبِّي عن خِيانَتِه. أما البِدايَةُ فَقَدْ كانَتْ حَيْثُ قاعاتِ الدَّرْسِ والـمُحاضَراتِ أَيَّامَ دِراسَتِي الجامِعِيَّةِ؛ إذ أَلْفَيْتُنِي أَتَّصِلُ بالرَّجُلِ وآرائِه كَمِثْلِ لِذاتِي رَغْمًا عَنِّي، تِلْكَ الآراءُ التي انْسَرَبَتْ في تَدافُعٍ إلى مُعْظَمِ الـمَجالاتِ الـمَطْرُوقَةِ داخِلَ إِطارِ الدِّراساتِ العَرَبِيَّةِ وَالإِسْلامِيَّةِ، نُقابِلُها في البَلاغَةِ كما في النَّحْوِ، وفي تارِيخِ الأَدَبِ كَما في النَّقْدِ، وفي عِلْمِ اللُّغَةِ كما في عُلُومِ القُرْآنِ، وأَلْفَيْتُ هذه الصِّلَةَ تَزْدادُ دَرَجَةً أَثْناءَ إِعْدادِ الأَبْحاثِ السَّاذَجَةِ الَّتي كُنَّا نُكَلَّف بها، إذ تَراءَتْ لنا كِتاباتُه خَيرَ مُعِينٍ على إِنْجازِها، بِما انْتَهَجَتْه من سُبُلٍ تَتَغَيَّا تَسْجِيلَ الـمَعارِفِ في وُضُوحٍ دُون إِغْرابٍ وفي هُدوءٍ دُون صَخَبٍ.

مُلِئَت نَفْسِي في هذه المَرْحَلَةِ المُبَكِّرَةِ إجْلالا وإِكْبارًا لِجُهُودِه المُتَراصَّةِ في نَسَقٍ بَدِيعٍ، وأسْلَمَتْنِي باخْتِراقِها آفاقَ العُلومِ إلى حالَةٍ من الانْبِهَارِ بِمَوْسُوعِيَّتِه وإِحاطَتِه النَّادِرَةِ بِمُفْرَداتِ ثَقافَتِنا العَرَبِيَّةِ، وَمَعَ مُداوَمَةِ الارْتِشافِ مِنْ مَعِينِ نِتاجِه شَرَعَ سُؤالٌ بَرِيءٌ في التَّشَكُّلِ والتَّنامِي حَتَّى باتَ لِي- لاسِيَّما بَعْدَ الاتِّصالِ بِالكِتاباتِ والمَقالاتِ الَّتِي اتَّخَذَتْ منه مَوْضُوعًا لِلْبَحْثِ- لَحُوحًا مُؤَرِّقًا، مُؤدَّاه: ما العِلَّةُ في أَنْ تَسْتَدْعِيَ الصُّورَةُ الذِّهْنِيَّةُ، المُلْتَقَطَةُ له بِتِلْقائِيَّةٍ عِنْدَ جُمْهُورِ الباحِثِينَ، ضَيْفًا مُؤَرِّخَ الأَدَبِ، في حِينِ تَنْزَوِي وتَتَوارَى عَنْها بَقِيَّةُ وُجُوهِ نَشاطاتِه التي مِنْ شَأْنِها أَنْ تُجَلِّيَ شَخْصِيَّتَه مُكْتَمِلَةَ الأَبْعادِ؟! الحَقُّ أن بَرَاءَةَ السُّؤالِ لم تَتَرادَفْ والجَهْلَ بِالعِلَّةِ، فَقَدْ كُنْتُ ساعَتَها عَلَى قَدْرٍ من الإِدْراكِ بِأَنَّ **سِلْسِلَةَ تاريخِ الأدَبِ العَرَبِيِّ**، الَّتي خَلَّفَها في عَشْرَةِ أَجْزَاءَ ضَخْمَةٍ تُلاحِقُه في عُصورِه المُخْتَلِفَةِ وأَقْطارِه المُتَرامِيَةِ، هي المَسْئُولَةُ؛ بِذُيُوعِها وهَيْمَنَتِها على دَرْسِ الأَدَبِ في الجامِعاتِ العَرَبِيَّةِ، عَنْ إِنْتاجِ هَذِه الصُّورَةِ، خاصَّةً وقد ظَلَّ صاحِبُها يَرَبِّيها مُدَّةً تَرْبُو على الثَّلاثِينَ عامًا (1960- 1992م)، وَلِذا فَسَوْفَ نَكُونُ أَكْثَرَ نَجاحًا في استِكْناهِ **جَوْهَرِ السُّؤالِ** إذا وَعَيْنا أَنَّه يَتَأَسَّسُ من جِهَةٍ على اسْتِنْكارِ تَكْرِيسِ نَمَطِيَّتِها، مِنْ حَيْثُ كَوْنِها تَبْدُو ساعِيَةً نَحْوَ التَّسْطِيحِ وقَبُولِ المَبْذُولِ، دُون طُمُوحٍ إلى الظَّفَرِ بالخَبْءِ، ومِنْ جِهَةٍ أُخْرَى على التَّعَجُّبِ من ثَباتِها وإِعادَةِ بَثِّها، بالرَّغْمِ مِنْ وُجُودِ بَعْضِ المُحاوَلاتِ الجَادَّةِ التي كان مِن المُتَوَقَّعِ أن تُسْهِمَ في خَلْخَلَتِها، أو بِعِبارَةٍ أَدَقَّ في إِعادَةِ صِياغَتِها على نَحْوٍ تَتَكاتَفُ به مُكَوِّناتُها إلى جِوارِ ما تَمَّ الكَشْفُ عَنْهُ من وُجُوهٍ غائِبَةٍ.

هذا هُو الهَاجِسُ الرَّئِيسُ الَّذِي كان شاخِصًا، لِتَتَّجِهَ الهِمَّةُ نَحْوَ اسْتِجْلاءِ مَعالِمِ الوَجْهِ النَّقْدِيِّ والكَشْفِ عن مَلامِحِه، وتَقْطَعَ حَتَّى تُحقِّقَ مُنْجَزَها الحالِيَّ مَسافَاتٍ مُكْتَظَّةً كَمَثِيلاتِها **بالعَقَباتِ الصَّارِفَةِ**، ولذلك فَلَسْتُ أَرَى أَنْ أُحَوِّلَ الحَدِيثَ هنا إلى دَرْبٍ من التَّنْفِيسِ عن الشُّجُونِ والزَّفَراتِ، بَلْ يُمكِنُ فَحَسْبُ الإِشارَةُ إلى أَهَمِّها وأَلْصَقِها به في آنٍ، فَمِنْها: اتِّساعُ المادَّةِ زَمَنِيًّا ومَكانِيًّا، خَاصَّةً إذا كُنَّا نُحاوِلُ تَكْثِيفَ العَرْضِ وتَفادِي الاعْتِمادِ على الآراءِ إلا إذا أُقِيمَتْ عَلَيْها مَراصِدُ من نِتاجِه كُلِّه، الأَمْرُ الذي أَلْجَأَنا إلى صِناعَةِ كَشَّافاتٍ تَحْلِيلِيَّةٍ وفَهارِسَ تَفْصِيلِيَّةٍ لِلشُّعَراءِ والقَضايا، ومِنْها أَيْضًا بَقاءُ جُزْءٍ لَيْسَ قليلا مِنْ مَقَالاتِه في بُطُونِ المِجَلات القَدِيمَةِ، وبِمَا أَنَّ هذه المِجَلات تَتَمَلَّكُها مَكْتَباتٌ عامَّة لا تُحْسِنُ التَّعامُلَ مع الباحِثِينَ وجُمْهورِ القُرَّاءِ، فقد سَبَّبَ هذا ضَياعًا لِكَثِيرٍ مِن الوَقْتِ والجُهْدِ في التَّتَبُّعِ والاسْتِنْساخِ، يَتَّصِلُ بهذا وُجُودُ رَسائِلَ عِلْمِيَّةٍ ذاتِ صِلَةٍ فِي حِين يَتَسَلَّطُ على النَّظَرِ فيها نُظُمٌ مُجْدِبَةٌ مُثَبِّطَةٌ، على أن القِيمَةَ الحَقِيقِيَّةَ من تَسْجِيلِ هذه العَقَباتِ، إِنَّما تَعُودُ إلى اسْتِدْعائِها بِصُورَةٍ تِلْقائِيَّةٍ ذِكْرَ أولئك الَّذِينَ كانُوا سَبَبًا في تَذْلِيلِها، سَواءٌ أَتَمَثَّلَ ذَلِك في صُورَةٍ عَيْنِيَّةٍ أَمْ معْنَوِيَّةٍ، أَخُصُّ منهم **أساتِذَتِي الفُضَلاء**، الَّذِينَ فَتَحُوا قُلُوبَهُم لِحاجاتِي المُتَزايِدَةِ اللَّحُوحَةِ، **وزُمَلائِي الأَعِزَّاء** الَّذِين أَحاطُونِي بِجَوٍّ أُخَوِيٍّ رائِقٍ وطَوَّقُونِي بالجَمِيلِ المَمْنُوحِ عن رِضا نَفْسٍ وصَفاءِ سَرِيرَةٍ، دُونَ مَنٍّ ولا تَفَضُّلٍ، مُنْذُ أَنْ كان البَحْثُ مُجَرَّدَ فِكْرَةٍ.. إِلَيْهِم جَمِيعًا الشُّكْرُ كُلُّه جَزاءَ ما صَنَعُوا وبَذَلُوا، ومِنْهُم أَسْتَمِيحُ العُذْرَ إِنْ كان هُناكَ تَقْصِيرٌ في حَقِّهِم أو انْحِرافٌ عَنْ آمالِهِم، ولَعلَّها فُرْصَةٌ مواتِيَةٌ بين يَدَي الجُزْءِ الأَوَّلِ حَتَّى أَعْتَرِفَ إِلَيْهِم أَنَّنِي، رَغْمَ ما أَنْفَقْتُ مِنْ جُهْدٍ وصَرَفْتُ من وَقْتٍ، قد أَخَذْتُ من

صُحْبَتِي بِتاجَ النَّاقِدِ أَكْثَرَ من عَطَائِي لَه، وأنَّني لا أَزَالُ على قَناعَةٍ بأن الكَلِمَةَ النِّهائِيَّةَ في دِراساتِنا هي تِلْك الَّتي لَمْ يَقُلْها أَحَدٌ بَعْدُ، ولِذا لَنْ أتَجَاسَرَ على الزَّعْمِ بأنَّني قد وَفَّيْتُ المَوْضُوعَ حَظَّه من الدَّرْسِ، وإنْ كانَ يُرْضِينِي، بَعْضَ الرِّضا، محاوَلَةُ الإِسْهامِ في مَيدانٍ لم يَلْقَ بَعْدُ الرِّعايَةَ المُرْتَقَبَةَ، والسَّعْيُ لِتَعْبِيدِ الطَّرِيقِ أَمامَ دِراساتٍ لاحِقَةٍ؛ أَتَمَنَّى مُخْلِصًا ألا تَكُفَّ عَنْ التَّحَاوُرِ مَعَ الدِّراسَةِ الحَالِيَّةِ وإِلَيها.

أحمد العاقور

شعبان 1431هـ

الـمَاقَبْـــــلُ

"الكتب لا تحتاج إلى شيء حاجتها إلى الوضوح". شوقي ضيف: في النقد الأدبي، ص6.

- 1 -

الوَجْهُ النَّقْدِيُّ «المُنْزَوِي»، أو الذي يَبْدو هكذا، عن جُمْهُورِ الدَّارِسِين، هو الوَجْهُ الذي سَتَتَوفَّرُ السِّلْسِلَةُ الرَّاهِنَةُ على إماطَةِ اللِّثامِ عن بَعْضِ قَسَماتِه، التي أَخَذَتْ فُرْشَاةُ ضيفٍ في تَشْكِيلِ تَفارِيقِها منذ **البِدايَةِ الفِعْلِيَّةِ الأُولَى**، في جانِبِ الأَداءِ والكِتابَةِ، من مَسِيرَتِه العِلْمِيَّةِ بِصِفَةٍ عامَّةٍ، وهي بدايَةٌ يَصِحُّ نَعْتُها بأَنَّها ذاتُ صِبْغَةٍ نَقْدِيَّةٍ خالِصَةٍ، وأَقْصِدُ إلى أَرْبَعَةِ المَقالاتِ[1] التي كَتَبَها أَيَّامَ كان طالِبًا في كُلِّيَّةِ الآدابِ بِجامِعَةِ فُؤادٍ الأَوَّلِ (القاهرةِ حالِيًّا)؛ إذ يُعالِجُ في المَقالِ الأَوَّلِ منها، الذي يَجِيءُ تَحْتَ عُنْوانِ: "حول الوُضوحِ والغُمُوضِ"، قضيَّةَ الغُمُوضِ الذي يَعْتَرِي الفُنونَ والشِّعْرَ، وهل يَحْسُنُ بالشاعِرِ أن يُفْسِحَ له في شِعْرِه أَوْ لا؟ مُرْتَكِزًا في بَثِّ مضامِينِها على مُناقَشَةِ تَعْقِيبِ الكاتِبِ العِرَاقِيِّ عباس فضلي على اسْتِحْسانِ طه حسين (ت: 1973م) الغُموضَ في بَعْضِ شِعْرِ الفَرَنْسِيِّ بول فاليري **Paul Valéry**؛ فيُقَرِّرُ ضيف رأيَه المُبَكِّرَ الذَّاهِبَ إلى أن الغُمُوضَ الذي يُمْكِنُ أَنْ يَنالَ مِنَّا اسْتِحْسانًا إِنَّما هُو ذلك الذي يَتَجَسَّدُ ظِلالا شَفِيفَةً لا تَحْجِبُ النُّورَ، ويَتَحَدَّثُ في الثاني، تحت عنوان: "الشعر"، عن التَّعْرِيفَيْنِ؛ العَرَبِيِّ والغَرْبِيِّ له، وعن جَوانِبِ النَّقْصِ فيهما، لِيَمْهَدَ أَمامَ وَقْفَتِه عِنْدَ عَناصِرِه الرَّئِيسَةِ بِحَسْبِ رأيِه:

---

(1) للاطلاع على المقالات الأربعة بحسب تاريخ نشرها، انظر: شوقي ضيف: حول الوضوح والغموض (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 8يناير 1934م، ص19، 20، والشعر (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 15يناير 1934م، ص9- 11، والشعر والفن (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 29يناير 1934م، ص21- 23، ورسالة الشعر (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 12مارس 1934م، ص414، 415.

العَواطِفِ والأَفْكارِ والأَخْيِلَةِ، ويَتَحَسَّسُ في الثالث، تحت عنوان: "الشعر والفن"، العَلاقاتِ الكائِنَةَ بين الشِّعْرِ وفُرُوعِ شَجَرَةِ الفُنُونِ الجَميلَةِ، ويُؤَكِّدُ أن الشِّعْرَ تَعْلُو قِيمَتُه بِقَدْرِ مَتانَةِ هذه الرَّوابِطِ، ويُحاوِلُ في الرَّابِعَةِ فيما يَظْهَرُ، تحت عنوان: "رسالة الشعر"، تَجْلِيَةَ الفَرْقِ بين الغاياتِ التي تَشْغَلُ الفُنُونَ والغاياتِ التي تَشْغَلُ العُلُومَ.

وبِرِعايَةِ الناقِدِ التي أَوْلاها هذه المَقالاتِ؛ سواءٌ أكانَتْ مُتَمَثِّلَةً في جانِبِ إِعادَةِ نَشْرِها تارَةً أُخْرَى بَعْدَ إِجْراءِ بَعْضِ التَّعْدِيلاتِ الشَّكْلِيَّةِ عليها[1]، أَمْ في جانِبِ السَّعْيِ إلى تَوْظيفِ الإِمْكاناتِ الضَّخْمَةِ المُكْتَنَزَةِ في تَضاعِيفِها- تَمَكَّنَ من استِثْمارِ الكُوَّةِ التي أَحْدَثَتْها في جُدُرِ هذا الحَقْلِ المَعْرِفِيِّ، فظَلَّ إلى أَواخِرِ القَرْنِ المُنْصَرِمِ يُتْبِعُ بِدَأْبِ الكِتابَ بآخَر، انْتِهاءً بِكِتابِه: "في الأدب والنقد" (1999م) ومُرُورًا بكُتُبِ: "النقد" (1954م) و"في النقد الأدبي" (1962م) و"البحث الأدبي" (1972م)، ولَئِنْ كانَتِ الكِتاباتُ الأَخِيرَةُ، لِلْحَقِيقَةِ، قد بَدَتْ سالِكَةً سَبِيلَ إِعادَةِ نشْرِ بَعْضِ المَقالاتِ التي قد تَمَّ نَشْرُها من قبلُ، كمِثْلِ ما يَظْهَرُ في كتابِ "في الأدب والنقد"، أو كتابَيْ: "في التراث والشعر واللغة" (1987م) و"من المشرق والمغرب؛ بحوث في الأدب"

(1) أعاد ضيف نشر هذه المقالات تارة أخرى في كتابه: في التراث والشعر واللغة، دار المعارف، القاهرة، 1987م، ص83- 101؛ وتَتَمَثَّل التعديلات بصورة عامة في إضافة ما يقتضيه السياق، والتقديم والتأخير بينها، وتسميةِ الثانية بماهية الشعر وعناصره والثالثة بالشعر والفنون، كما حُذِفَ اسمُ عباس فضلي من المقال الأول لتَأْخُذَ، فيما نظن، آفاقًا أكثر رحابة وعمومية، أو لما نلحظه على خطابه من تحاشٍ عن لهجة المعارك الأدبية المُتَشَنِّجَةِ آنذاك، وأيضا عن كلِّ ما يبعثها من مَرْقَدِها، حول الملابسات المحيطة بهذه المقالات؛ انظر: شوقي ضيف: معي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م، 1/ 109، 110.

(1998م)، وهو اتِّجاهٌ مَثَّل أُولَى تجاربه كتابُه "فصول في الشعر ونقده" (1971م)- فإن هذا لا يَحْجِبُ عن القارِئِ اليَقِظِ كونَها نَهَضَتْ آياتٍ دالاتٍ على أن النَّشاطَ النَّقْدِيَّ في مَسيرَتِه العِلْمِيَّةِ لَمْ يَكُنْ نَبَضاتٍ هَزِيلَةً مُتَقَطِّعَةً، أو تَوَجُّهًا مَرْحَلِيًا يَتَجَسَّدُ عَرَضًا لا يَلْبَثُ أن يَنْجَلِي، وإنَّما كان «**نَشاطًا مُوازِيًا**» لِلنَّشاطِ الأبْرَزِ: التأريخِ للأدَبِ.

عَلَى أن الشَّيءَ الذي يَجْدُرُ بَقاؤُه مُسْتَحْضَرًا في أذْهانِنا، على نَحْوٍ يُقارِبُ في مَوْقِعِيَّتِه الـمُسَلَّماتِ، هو أن «**النَّقْدَ الأدَبِيَّ**» ليس كُتْلَةً مُنْعَزِلَةً مُنْغَلِقَةً على ذاتِها، إذ هو نِتاجٌ مُعَقَّدٌ لِمُناخٍ فِكْرِيٍّ بِعَيْنِه، ورَهْنُ سِياقاتٍ حَضارِيَّةٍ واجْتِماعِيَّةٍ وثَقافِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ، يَنْفَعِلُ بها النَّاقِدُ كما تَنْفَعِل بها خِطاباتُه التي تُولَدُ حامِلَةً شِحْناتِها، وهي مُسَلَّمَةٌ يمكن أن نَتَّسِعَ بها في جِهَةِ «**الـمَنْهَجِ النَّقْدِيِّ**» الذي يَتَبَنَّاه الناقِدُ، فإنه، وإنْ يَكُنْ ذا حُضُورٍ مُنْبَتٍّ عن الواقِعِ الاجْتِماعِيِّ الـمُحِيطِ به، بِحَيْثُ نَخْبُرُه إدْراكًا عِلْمِيًّا مُنْفَكًّا عن سِياقِهِ الزَّمَنِيِّ- يبدو عادَةً مُتَساوِقًا مع الصَّيْحَةِ العِلْمِيَّةِ الأكْثَرِ عُلُوًّا في مَرْحَلَةٍ بِعَيْنِها، ومُؤَسَّسًا على النَّزَعَاتِ الفَلْسَفِيَّةِ السائِدَةِ فيها، وإذا كان يَتَداخَلُ مع غَيْرِه أو يُعادُ بَعْثُه من جَدِيدٍ، فإنَّ ذلك آيَةُ الانْسِرابِ الكائِنِ في الحُقُولِ الـمَعْرِفِيَّة وتَكاثُرِ الفَلْسَفات وتَوالُدِها، كما يُمكنُ أن نَتَّسِعَ بها في جِهَةِ «**الـمُمارَسَةِ النَّقْدِيَّةِ**»، التي تَبْدُو مُنْدَفِعَةً نَحْوَ الانْفِتاحِ على مَعارِفَ شَتَّى في سبيل تَأْهِيلِ الناقِدِ لِلقيامِ بِمَهَمَّتِه؛ التَّفْسِيرِيَّة أو الحُكْمِيَّةِ، أَثْناءَ الاتِّصالِ بِقَصِيدَةٍ أو ظاهِرَةٍ أو شاعِرٍ، وبهذا الفَهْمِ تَسْتَعْصِي عَمَلِيَّاتُ الفَصْمِ التَّعَسُّفِيِّ، التي نَتوهَّمُ أحْيانًا أنَّها تُساعِدُنا في تَحْقِيقِ أَهْدافٍ بَحْثِيَّةٍ، بِما تَقُومُ به مِن تَقْلِيصِ النِّطاقِ الخاضِعِ لِلْفَحْصِ والتَّأَمُّلِ، في حين نَكْتَشِفُ عَجْزَها عن تَخْلِيفِ صُوَرٍ مَأْمُولَةٍ تَعْكِسُ التفاصِيلَ بِدِقَّةٍ، فَضْلًا

عن تَوْفِيرِها مُسْتَوًى مُقْنِعًا من الإبانَةِ عن جَنَباتِ المادَّةِ المَعْروضَةِ يَتناغَمُ وقَرِيناتِها، الأَمْرُ الذي يَسُوقُنا أَخِيرًا إلى تَقْرِيرِ أنَّ المَوْضوعاتِ النَّقْدِيَّةَ الخالِصَةَ يَنْبَغِي ألا تكونَ لنا شيئًا أَكْثَرَ من مُرْتَكَزاتٍ، حَقًّا تَسْتَحِقُّ العِنايَةَ في اسْتِقْلالِها، لكنَّها لا تَعُوقُ التَّوَسُّلَ بما يَبْدو لها فرعِيًّا، ما لَمْ يُشَتِّتْ تَرْكِيزَنا ويُبَعْثِرْه؛ خاصَّةً إذا كنَّا سَنَتَّفِقُ جَدَلا أن الفَرْعِيَّ هو "سِلْسِلَةُ تارِيخِ الأَدَبِ"؛ التي تَتَراءَى بالنَّظْرَةِ العَجْلَى في مكان قَصِيٍّ عن مُسْتَهْدفاتِنا، بينما يُظْهِرُنا التَّأَمُّلُ المُتَأَنِّي على حِسٍّ نَقْدِيٍّ عَمِيقٍ يَسْكُنُ قِطاعاتِها، يُفْصِحُ عن وُجودِه أثناءَ تَوْزِيعِ الشعراءِ وتَصْنِيفِهم أو انْتِقاءِ النُّصوصِ وتَوْجِيهِها أو إِصْدارِ الأَحْكامِ على مُسْتَوَياتِها الفَنِّيَّةِ أو تَفْسِيرِ الظَّواهِرِ والتَّعْلِيلِ لَها.

أما الشِّعْرُ الذي تَذَرَّعْنا به للاقْتِرابِ من ضَيْفٍ بِصِفَتِه ناقِدًا، فيجِبُ تَسْجِيلُ أنَّه الجِنْسُ الأدَبِيُّ المُسْتَوْطِنُ المساحَةِ الأَوْسَعِ في نِتاجِه، بما مَنَحَه من جُهْدٍ ووَقْتٍ وأَتاحَ له من كُتُبٍ ودراساتٍ، تُؤَرِّخُ عُصُورَه وتُعرِّفُ بِبيئاتِه وتَرْسُمُ صُوَرَ مُبْدِعِيه وتُفَسِّرُ ظَواهِرَه وتُحَلِّلُ نُصوصَه، وباسْتِثْناءِ كتابٍ وحِيدٍ، هو: "الفنُّ ومذاهبُه في النَّثْرِ العَرَبِيِّ" (1946م)، لا يَسْتَقِلُّ النَّثْرُ بِدِراساتٍ مُسْتَوْعِبةٍ، وإنما يَلْقانا مُجاوِرًا للدراساتِ المُخَصَّصَةِ لِلشِّعْرِ أو في تَضاعِيفِها، وَحَتَّى في هذا الكِتابِ نَفْسِه لا يَتَحَقَّقُ اسْتِقْلالٌ تامٌّ، إذ يَتَأَسَّسُ بِصُورةٍ مُجْمَلَةٍ على القالَبِ الذي كان قد تَمَّ إنجازُه في كتاب: "الفَنُّ ومذاهبه في الشِّعْرِ العربيِّ" (1942م)[1]، ويروِّجُ فرَضِيَّتَه الأَكْثَرَ انْتِشارًا، التي مُؤَدَّاها

(1) حول هذا القالَبِ الذي صاغ فيه الناقد تصوُّرَه عن مذاهب الشعر الفنية؛ انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1960م، ص5- 10.

أن النَّثْرَ، كما الشِّعْرُ، قد مَرَّ في مَسيرَةِ تَطَوُّرِه من العَصْرِ الجاهِلِيِّ إلى العصرِ الحديثِ بِثلاثِ مذاهِبَ فَنِّيَّةٍ هي: «الصَّنْعَةُ»: حيثُ التَّقالِيدُ الفَنِّيَّةُ والجُهْدُ في الصِّياغَةِ، لكنْ دون تأنُّقٍ أو تَعْقِيدٍ، في الجاهِلِيَّةِ والإسْلامِ بَلْ حَتَّى عُقُودٍ مِن العَصْرِ العَبَّاسِيِّ، و«التَّصْنيعُ»: بِزَخْرَفَتِه وتَنْمِيقِه وسَجْعِه وبَديعِه، الأُمُورُ التي بَلَغَتْ ذُرْوَتَها عند ابنِ العَمِيدِ (ت: 360هـ) ورَسائِلِه، و«التَّصَنُّعُ»: الذي اتَّخَذَ من تَصْعِيبِ طُرُقِ الأَداءِ نَهْجًا؛ حتى لَكَأَنَّه غايَةٌ لِذاتِه منذ أبي العَلاءِ المَعَرِّيِّ (ت: 449هـ) والحَرِيرِيِّ (ت: 516هـ)[1]، هذا إلى جانِبِ مُثُولِ النَّثرِ في كثيرٍ من لَوْحَاتِه للشِّعْرِ ظِلا، وأحيانًا بَدِيلا، مُنْذُ الجُمْلَةِ الأُولَى في كتابِه القائِلَةِ: "النثر هو الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقواف"[2].

يِوُسْعِنا التَّأكُّدُ مِن صِحَّةِ هذا الزَّعْمِ، على نَحْوٍ أَكْثَرَ جَلاءً، بالتوقُّفِ عِند **مَقالاتِه** النَّقْدِيَّةِ المَنْشُورَةِ في المجَلاتِ الأَدَبِيَّةِ، وأَخُصُّ تِلك التي جَنَحَتْ نَحْو «**النَّقْدِ التَّطْبِيقِيِّ**»، من حيثُ إنها تُجَسِّدُ؛ بِانْبِثاقِها عن ظَرْفٍ مؤطِّرِ الأَطْرافِ، الهُمُومَ البَحْثِيَّةَ الآنِيَّةَ المُلِحَّةَ، فإنها تَكادُ تَخْلُو من الحَديثِ عن فُنُونِ النَّثرِ التي تَعْتَمِدُ على السَّرْدِ أو الحِوارِ: الرِّوايةِ والمسْرَحِيَّةِ والقِصَّةِ القَصِيرةِ والسِّيرَةِ الذَّاتِيَّةِ، وإذا تَحَرَّيْنا الدِّقَّةَ والإنْصافَ فَيُمْكِنُ الإشارَةُ إلى

---

(1) حول هذه الفرضية ينظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1960م، ص5- 11.

(2) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص15، ونكتفي بالإشارة إلى حالةٍ واحدةٍ للإبانة عن مكانة الشِّعْرِ في الكتاب، هي حالة ابن العميد؛ إذ يتخذ الناقد من إكْبارِ الشعراء فصاحتَه وبلاغته أمارةً دالّةً على تقدُّمِ مرتبته وعلى ثقافته الواسِعَةِ، الأمرُ الذي ربَّما يشي للقارئ بأنه كان أحيانًا يُنَصِّب قيِّمًا على مسيرة النثر، انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص207.

بَعْضِ المَقالاتِ، من مِثْلِ مَقالٍ له عن هيكل (ت: 1956م)، أَكَّدَ فيه أن بُذُورَ القَصِّ مُسْتَجِنَّةٌ في نفسه، حين كتب "زينب" وأيضًا حين كَتَبَ عن مُحَمَّدٍ ﷺ وأبي بَكْرٍ وعُمَرَ، على الرَّغم مِن أنه يَبْدو في الأَخِيرَةِ أَدِيبًا مُؤرِّخًا[1]، ومَقالٍ عَنْ أحمد بدوي (ت: 1980م) يُشيدُ فيه بكتابه: "في موكب الشمس" لاقْتِدارِه على المَزْجِ البَديعِ بين الحَقائِقِ التاريخيَّة والأُسْلُوبِ الأَدَبِيِّ القَصَصِيِّ المُفْعَمِ بالحِوارِ[2]، ومقالٍ يَسْتَقْبِلُ فيه كِتابَ: "ثم غربت الشمس" لسهير القلماوي (ت: 1997م)، فَيَلْتَفِتُ إلى أنها لَمْ تُفسِحْ للحِوارِ فيه، وإن كانت وُفِّقَتْ في الوَصْفِ والعَرْضِ والتَّصْويرِ[3]، ومقالٍ عن كتاب: "حياتي" لأحمد أمين (ت: 1954م)، يُعظِّم فيه قِيمتَه التَّاريخيَّةَ ومَقْدِرَتَه البارِعَةَ على الكَشْفِ عن دَخائِلِ النُّفُوسِ، ويَذْهَبُ إلى أنَّه يَتَراءَى مُؤرِّخًا دارِسًا في الكِتابِ أَكْثَرَ منه أَدِيبًا يَكْتُبُ قِصَّةً أو سيرَةً ذاتِيَّةً؛ الشَّيءُ الذي يَتَبَدَّى في اتِّخاذِه من نَفْسِه نافِذَةً إلى رَسْمِ صُورَةٍ صادِقَةٍ لحَيَواتِ عَصْرِه[4]؛ وبينما

---

(1) انظر: شوقي ضيف: الفاروق عمر (2) للدكتور محمد حسين هيكل باشا (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، 5 يونيه 1945م، ص22.

(2) انظر: شوقي ضيف: في موكب الشمس للدكتور أحمد بدوي (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، 23 أبريل 1946م، ص21- 24، وينبغي حتى تكتمل الصورة تسجيل أن ضيفًا سيبدو في مقالٍ آخرَ منتقِدًا انصرافه إلى الذاتية عن الحقائق التاريخية الموضوعية، انظر: شوقي ضيف: في موكب الشمس؛ الجزء الثاني في تاريخ مصر الفرعونية من آخر الضحى إلى أول الأصيل؛ بقلم الدكتور أحمد بدوي (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 15 مارس 1951م، ص23، 24.

(3) انظر: شوقي ضيف: ثم غربت الشمس للدكتورة سهير القلماوي (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، 11 أبريل 1949م، ص41.

(4) انظر: شوقي ضيف: أحمد أمين في كتاب "حياتي" (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 24 أبريل 1950م، ص27، 28، وعلى الرغم من قيمة هذا المقال الأخير بوصفه الوحيدَ الذي يتناول فنَّ

=

تَتَراجَعُ هذه المَقالاتُ عن أن تُشَكِّلَ «هَمًّا بَحْثِيًّا» مُتَمَيِّزًا مُتَواتِرًا، فإنَّ المَقالاتِ التي كانَتْ تُلاحِقُ إصْداراتِ دَوَاوِينِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ؛ قَدِيمِه وحَدِيثِه، وتَسْتَقْبِلُ الكُتُبَ النَّقْدِيَّةَ والأَدَبِيَّةَ المَعْنِيَّةَ بِدِراسَتِها- هي التي نَهَضَتْ حَقًّا بِتَقْدِيمِه إلى جُمْهُورِ القُرَّاءِ والمُثَقَّفِين في أَرْبَعِينِيَّاتِ وخَمْسِينِيَّاتِ القَرْنِ المُنْصَرِمِ، واسْتَحَالَتْ قُوَّةً دافِعَةً به نَحْوَ تَرْسِيخِ مَكانَتِه بين أبناءِ جِيلِه من الباحِثِين في الأَدَبِ والنَّقْدِ.

وإذا كانت النِيَّةُ مُنْعَقِدَةً على اسْتِعْراضِ طَرَفٍ من جُهودِه في اسْتِقْبالِ الكُتُبِ النَّقْدِيَّةِ التي أَنْتَجَها المُعاصِرون له، اسْتِقْبالا يَقِظًا يَتَّصِلُ بالدَّفِينِ ويَنْتَبِهُ إلى الثَّغَراتِ، وهو فوْق ذلك يَكادُ يَتَزامَنُ مع لَحْظَةِ نَشْرِها، فيُمْكِنُ الاكْتِفاءُ الآن بالإشارَةِ إلى نَمُوذَجَيْن مِن نَماذِجِ اسْتِقْبالِه دَواوِينَ الشُّعَراءِ، الأَوَّلُ من القُدَماءِ هو: الوَأْواءُ الدِّمَشْقِيُّ (ت: 385هـ)، الذي اسْتَقْبَلَ دِيوانَه في نُسْخَتِه المُحَقَّقَةِ تَحْقِيقًا عِلْمِيًّا حَدِيثًا على يَدِ سامي الدهان (ت: 1971م)، والآخَرُ من المُحْدَثِين هو: محمد الأسمر (ت: 1956م)، الذي اسْتَقْبَلَ دِيوانَه بعد عامٍ تَقْرِيبًا من نَشْرِه؛ فالخِطاب في كِلَيهما لَمْ يَرْتَضِ أن يَتَوَقَّفَ عند حُدودِ التَّقْرِيظِ أو حتى التَّعْرِيفِ، بل يَتَراءَى لنا هذا الظَّرْفُ مُجَرَّدَ تُكَأَةٍ يَتَّخِذُها ضيفٌ لِتَتَنَفَّسَ بُذُورُ النَّزْعَةِ النَّقْدِيَّةِ المُسْتَكِنَّةِ داخِلَه، ففي النموذجِ الأَوَّلِ يَلْقانا حَدِيثٌ عن خَصائِصِ الشاعِرِ الفَنِّيَّةِ، يُلْمِحُ إلى أَنَّه غَنَّى

="السيرة الذاتية" قبل أن يكتب كتابه: "الترجمة الشخصية"، فقد ينال منها أنه يأتي في سياق مجموعة مقالات ترتهن بأحمد أمين، حرض عليها في ظني أستاذيته له في الجامعة وتأثُّرُ ناقدنا بشخصه وطرائق بحثه أكثر من الجنس الأدبي نفسه، وجديرٌ بالذكر أن كتابه هذا سيستعيد طَرَفًا من المقال، انظر: شوقي ضيف: الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة، *1956*م، ص*120*- *125*.

لِنَفْسِه بِشِعْرِه أكْثَرَ مِن غِنائِه لِغَيْرِه، وأنَّه مُشْبَّهٌ كَبِيرٌ مَدَّ أَصْحَابَ البَيانِ والبَدِيعِ بِسَيْلٍ من التشبيهات وأيضًا الاسْتِعاراتِ، وإن كان يُسَجِّلُ عليها أنها يَنْقُصُها كَثِيرًا جانِبُ الحَرَكَةِ والحَياةِ، وطَلَبًا للإنْصافِ يَقِفُ لِيُقرِّرَ أنَّ هذا المَلْمَحَ يَكادُ يَكونُ حاضِرًا في نِتاجِ العَصْرِ كُلِّه(1)، وفي النموذَجِ الآخَرِ حَدِيثٌ عن مَذاهِبِ الشُّعَراءِ حَوْلَ قَضِيَّةِ القَدِيمِ والجديدِ، وهل يَحْسُنُ بالشاعِرِ أن يُوَظِّفَ حَياتَه اليَوْمِيَّةَ البَسِيطَةَ أَوْ لا؟ ويَخْلُصُ إلى أنَّ الاتِّصالَ بالحَياةِ الجارِيَةِ يَنْبَغِي ألا يَطْغَى على سَعْيِ الشاعِرِ إلى تَخْلِيفِ نَظَرِيَّةٍ تَشِفُّ عن رُؤْيَةٍ تأمُّلِيَّةٍ خاصَّةٍ، بِحَيْثُ نَشْعُرُ بِنَوْعٍ من الانْتِقالِ من الحادِثَةِ العادِيَّةِ التي لا خَطَرَ لها إلى الشِّعْرِ الذي يَهُزُّ النَّفْسَ ويُثِيرُ الذِّهْنَ(2)، وكأنَّ ضيفًا يَأْبى، مع ما يُحِيطُ بِه مِن أجْواءَ مُتَبايِنَةٍ وما يُحَرِّضُه من بَواعِثَ مُتَنازِعَةٍ، تَرْتَبِطُ بِها على نَحْوٍ مِن الأَنْحاءِ الهَيْئَةُ التي تَتَشَكَّلُ فيها نُصُوصُه، كأنَّه يَأْبى أن يَكون إلا ناقِدًا.

الشَّأْنُ إذن في تَصَوُّرِنا ومَنْطِقِنا لَيْسَ «رِدَّةً» عن رَغائِبِ عَصْرٍ وُصِفَ بأنَّه عَصْرُ الرِّوايَةِ، سواءٌ أَصَحَّ هذا الوَصْفُ أَمْ كان مُخادِعًا! ولَيْسَ «زَهْوًا» بفنٍّ تَبَوَّأَ دهْرًا مَنْزِلَةَ دِيوانِ العَرَبِ، ولا حَتَّى مُحَاوَلَةَ «اسْتِعادَةِ» هذه المَنْزِلَةِ التي

---

(1) انظر: شوقي ضيف: ديوان الوأواء الدمشقي؛ نشر وتحقيق الدكتور سامي الدهان (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، 27 نوفمبر 1950م، ص25، 26. ومن الحق الإشارة، كما سبق في حالة أحمد أمين، إلى أن هذا المقال يجيء في سياق مقالات بَدَتْ مُهتَمَّة بنتاجه، حرَّض عليها في ظني، إلى جوار الافْتِتانِ بقيمة تحقيقاته العلمية، العلاقةُ الطيبة التي كانت تجمعُه به، حتى ليَكاد يَنْفَرِد في سيرة ناقدنا الذاتية أُنموذجًا للصديق، انظر: شوقي ضيف: معي؛ 2- ذكريات ومشاهد (سلسلة اقرأ)، دار المعارف، 1988م، ص102- 104.

(2) انظر: شوقي ضيف: ديوان الأسمر؛ للأستاذ محمد الأسمر (مقال)، مجلة الكتاب، القاهرة، عدد أبريل 1951م، ص433- 436.

قد نَرَى أَنَّها سُلِبَتْ، بقدْرِ ما هُو **استجابَةٌ ضَرُورِيَّةٌ** لِنداءاتِ المادَّةِ المَعْروضَةِ وَطَبِيعَتِها الخاصَّةِ، وربَّما كان بِمَقْدورِنا أَخِيرًا؛ حتى لا نُضَيِّقَ مِساحَةَ البَحْثِ التي يَرْقُبُها من دونِ أنْ تَتَجَسَّدَ فَوْقَ صَفَحاتِه- أنْ نَقِفَ لدى الصَّرامَةِ المُصْطَنَعَةِ في تَصْنِيفِ **الأَجْناسِ الأَدَبِيَّةِ** وَقْفَةً تَسْتَهْدِفُ التَّخْفِيفَ مِنْ غُلَوائِها، بالاسْتِنادِ إلى أن الشِّعرَ بِناءٌ لُغَوِيٌّ يَنْمَازُ عَنْ غَيْرِه بِدَرَجَةِ إحْسَاسِه القُصْوى بِالأَشْيَاءِ، ويَتَفَرَّدُ بطاقاتِه المُدْرِكَةِ التي تَتَعامَلُ مع مُفْرَداتِ الواقِعِ: الحَياةِ والكَوْنِ والإنْسانِ، تَعامُلا تَحِيدُ رُؤاهُ المُنْتَجَةُ عن نَسَقِها المَأْلُوفِ، بِوَساطَةِ التَّصَرُّفِ المُبْدِعِ في العَواطِفِ والأَخْيِلَةِ والأَفْكارِ، وهو الفَهْمُ الذي يَتَراءَى به الفارِقُ الرَّئِيسُ في تَوْظِيفِ عَناصِرِه فارِقًا «كَمِّيًّا» في مُعْظَمِ الحالاتِ، ويَدْفَعُ إلى قَناعَةٍ بِانْسِرابِه إلى فُنُونٍ شَتَّى، بِالمَعْنى الذي يَجْعَلُ من الكَشْفِ عن خُصُوصِيَّاتِه أو الرَّصْدِ لِمُتَعَلَّقاتِه كَشْفًا عَنْها ورصْدًا لِمُتَعَلَّقاتِها في آنٍ، وهي نَتِيجَةٌ لَمْ تُمْلِها فَرْضِيَّةٌ ولَمْ تَنْبَثِقْ عَن استِنْباطٍ مُجَرَّدٍ يَسْتَبِقُ الأَحْداثَ، بل تُؤَكِّدُها وَقائِعُ مُتَواتِرةٌ، تَتَمَثَّل عادَةً لديه في اجْتِرارِ طَرائِقِ الدَّرْسِ المُوَظَّفَةِ وإعادَةِ إنْتاجِ آراءَ تَنُمُّ عن تَوَحُّدِ المَنْظُورِ.

- 2 -

لَمْ يكن غَرِيبًا أنْ يَنْشَغِلَ **الباحِثُون** بِقِيمَةٍ عِلْمِيةٍ مِثْلِ شوقي ضيف، لكنَّ الغَرِيبَ أن يَظَلَّ هذا الانْشِغالُ، كما أَسْلَفْنا، مُبْتَعِدًا غيرَ قليلٍ عن نَشاطِه النَّقْدِيِّ، والأَغْرَبُ من هذا، حَقًّا، ألا يَشْخَصَ بِصِفَةٍ عامَّةٍ في دِراساتٍ أَكادِيمِيَّةٍ، تَحْتَضِنُها الجامِعاتُ المِصْرِيَّةُ وأَقْسامُ الآدابِ فيها، بالرَّغْم من أَنَّها لا تَزالُ تَحْمِلُ بَصَماتِه البارِزَةَ في مَسِيرَتِها، وأَقْصِدُ إلى تلك التي خَلَّفَها تَدْرِيسُه فيها وإشْرافُه على طُلابِها ومُناقَشاتُه باحِثِيها وتَشْكِيلُه الفاعِلُ في

مَناهِجِها، وهي ظاهِرَةٌ لم تَنَلْ منه وَحْدَه، بل تَنْسَحِبُ على أَعْلامٍ كثيرين، في صورةٍ مُتَكَرِّرَةٍ، تَعْكِسُ مُفارَقَةً صارِخةً و«**قطيعةً**» غيرَ مَحْمُودَةٍ بين الأَجْيالِ، الأَمْرُ الذي قد يَسُوقُنا من جِهَةٍ إلى حديثٍ عن النَّقْدِ الأكادِيمِيِّ، وكَيْفَ أن خُطاهُ لا تَزالُ تَتَعَثَّرُ أَثْناءَ مُلاحَقَةِ الجُهودِ الجارِيَةِ مَجْرَاه، ومِن جِهَةٍ أخرى إلى حَديثٍ عَمَّا أَسْماهُ ناقِدُنا «**أنانِيَّةً**»، ويَعْنِي بها سَوْءَةَ انْصِرافِ الباحِثِين والدَّارِسِينَ عن المُعاصِرِين، تِلْكَ الظَّاهِرَةُ الَّتي تَسْتَفْحِلُ، فيما يَرَى، بِتَوَهُّمِنا أن صَيْرُورَتَهم جُزْءًا من التاريخِ سَيُحَقِّقُ لِدراسَتِنا إِيَّاهم مُقَوِّماتِ المَوْضوعِيَّةِ ويُجَنِّبُها مَخاطِرَ التَّحَيُّزِ(1).

إِذا أَرَدْنا تَلْطِيفَ هذا الحَديثِ الفائتِ الَّذِي يفُوحُ تَشاؤُمًا وامْتِعاضًا فَيُمْكِنُ **اسْتِثْناءُ السَّنَواتِ القَلِيلَةِ الأَخِيرَةِ التِي شَهِدَتِ اهْتِمامًا نِسْبِيًّا بِجُهُودِهِ العِلْمِيَّةِ**، فَفِي عام 1999م تُسَجِّلُ القَوائِمُ البِبْلِيُوجْرافِيَّةُ في هذا المَيدانِ دِراسَةَ ماجِسْتِيرٍ في كُلِّيَّةِ الآدابِ جامِعَةِ القاهِرَةِ؛ فرعِ بني سويفٍ، للباحِثَةِ: أحلام عبد الجواد عبد الجواد، بِعُنْوان: "منهج شوقي ضيف في دراسة تاريخ الأدب

---

(1) انظر: شوقي ضيف: دراسة أدبنا الحديث (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 1 ديسمبر 1952م، ص13. وهو يوجه أثناءه انتقاداتٍ لاذعةً إلى الحركة النقدية التي تَنْشَغِل عن المنْجَزات المعاصرة، مذكِّرًا إياها بجهود الأسلاف في الاهتمام بمعاصريهم والترجمة لهم، وهو موقفٌ مهمٌّ حقا؛ لأنه سيكشف عن مساحة غائبةٍ كانت سببًا في اتهامه بأن نشاطاته ظلّت متَّجهةً صَوْبَ القديم، حول هذا الانتقاد؛ انظر: عزمي عبد الوهاب: وجه آخر لشوقي ضيف (مقال)، جريدة الأهرام، القاهرة، 26مارس 2005م، ورغم أن أدلّةً كثيرةً تقابلنا في كتاباته تصدِّق هذا، فإن التأمل الذي يشمل نتاجَه كلّه، خاصة مقالاته التي لم تُنْشَرْ ثانيةً، وهي التي لم يَنْتَبِه إليها كاتب هذا المقال- كفيلٌ بتصويبِ مِثْلِ هذه النَّظْرَة، أو لنقل التخفيف من حِدَّتِها.

العربي"[1]، تَحْتَ إِشْرافِ: طه وادي وسيد حسنين، ونَمْضي إلى عام 2005م لِنَظْفَرَ بِثانِيَةٍ في كُلِّيَّةِ الآدابِ جامِعَةِ المَنْصورَةِ، للباحثةِ عزة أحمد عبد العزيز وهبة، بعنوان: "شوقي ضيف ناقدا"، تَحْتَ إشراف: عبد الرازق أبو زيد زايد؛ وإلى عام 2006م لِنُقابِلَ ثالِثَةً في كُلِّيَّةِ دارِ العُلُومِ جامِعَةِ القاهرةِ لا تزال في طَوْرِ الإِعْدادِ لِلباحِثِ أحمد عادل أحمد حسين، بعنوان "جهود شوقي ضيف في الدرس الأدبي"، وإلى عام 2007م لِنَلتقي رابِعَةً في كُلِّيَّةِ الآداب جامِعَةِ القاهِرَةِ، لا تَزالُ أيضا في طَوْرِ الإِعْدادِ، لِلْباحِثَةِ شيرين صلاح الدين محمد إبراهيم، بعنوان: "المصادر الأدبية في كتابة التاريخ الأدبي عند شوقي ضيف (العصر العباسي الأول)"[2].

إِنَّ هذا الاسْتِثْناءَ قَدْ يُشِيرُ إلى تَحَقُّقِ ما يُشْبِهُ أَنْ يكون «إِفاقَةً» مَحْمُودَةً لِلْبَحْثِ الأَكادِيمِيِّ- حَتَّى وإِنْ جاءَتْ مُتَأَخِّرَةً- مِنْ غَفْوَتِه عَنْ شوقي ضيف، أو ما يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ «تَكْفِيرًا» عن خَطِيئَةِ تَجاهُلِه التي واقَعَها رَدَحًا مِن الزَّمَنِ، غَيْرَ أَنَّه لِلْحَقِّ لَيْسَ يُؤَثِّرُ على وِجْهَتِنا وَلَيْسَ يُثْنِينا عن المُضِيِّ قُدُمًا، لا بِالتَّعْوِيلِ على مَسْأَلَةِ قِلَّةِ هذه الدِّراساتِ، والاحْتِجاجِ بِأَنَّها لا تُغَطِّي المساحاتِ الشاسِعَةَ في نِتاجِه المُتَطَلِّعَةَ لِلْفَحْصِ والتَّحْلِيلِ والتَّقْوِيمِ، تِلْكَ

(1) انظر: محمد أبو المجد: ببليوجرافيا الرسائل العلمية في الجامعات المصرية منذ إنشائها حتى نهاية القرن العشرين؛ الأدب العربي والبلاغة والنقد، مكتبة الآداب، القاهرة، 2001م، ص146.

(2) تعرفت على بيانات هذه الرسائل أثناء سَفَراتي المُتَتَبِّعَةِ الجهود التي تَشْرَكُني في معالجة الموضوع، انظر: عزة أحمد عبد العزيز وهبة: شوقي ضيف ناقدا [رسالة ماجستير مخطوطة]، جامعة المنصورة، كلية الآداب، رقم استدعاء المكتبة: 81، و دليل الرسائل الجامعية المسجلة في كليتي دار العلوم والآداب جامعة القاهرة، ومن الطَّرِيف أنني لم أتمكن من الاطلاع على الرسالة الأولى داخل الكلية للتعنُّت الذي تتمتع به نُظُمُ مكتبتها، الأمر الذي اضطرني إلى السفر لمكتبة الإسكندرية!

الـمَسْأَلَةُ التي تَتراءَى لي أَحْيانًا حُجَّةً «عَرْجاءَ»، وإِنَّما أيضًا بالاسْتِنادِ إلى الاتِّصالِ الـمُتَأَنِّي بِمَنْهَجِها وَمادَّتِها وَمُنْجَزاتِها. لَقَدْ يَظْهَرُ من ذلك أَنَّنا نُرِيدُ أَنْ نَتحاشَى؛ أَثْناءَ تَبْرِيرِ الشُّروعِ في الرِّحْلَةِ، الرُّكُونَ إلى جَدَلٍ بَرَّاقٍ مَبْذُولٍ، مَفادُه أَنَّ «الـمُدْخَلاتِ» إن تَكُنْ واحِدَةً فإن «الـمُخْرَجاتِ» حَتْمًا تَتَغايَرُ، كالثَّمَرِ الـمُتَبايِنِ يُسْقَى بِماءٍ واحِدٍ؛ لأنه، مَهْما يَكُنْ مُقْنِعًا، سَيَظَلُّ في حاجَةٍ إلى إِرْدافِه بالاقْتِرابِ مِن **الواقِعِ الفِعْلِيِّ** للدِّراساتِ والانْفِكاكِ من واقِعِ اخْتَطَّه مَحْضُ تَنَبُّؤٍ؛ مع الاحتياط من تحويل الصفَحاتِ كلِّها إلى ساحَةِ استِعْراضِ جُهُودٍ سابِقَةٍ، وإذ يَتَسَبَّبُ عُنْوانُ الرِّسالَةِ الثَّانِيَةِ الـمُتَداخِلُ مع مَوضوعِنا في إِحْداثِ حَرَجٍ، يَتَحتَّم القِيامُ على رَفْعِه أو التَّبْيِينُ عن حَجْمِه؛ فقد يَحْسُنُ أن تَسْتَحْوِذَ على اهْتِمامِنا الآن، وأَنْ نُرْجِئَ الحَدِيثَ عن الرِّسالَةِ الأُولَى، وَأَيْضًا الثَّالِثَةِ والرابعةِ اللَّتَيْنِ لم تُنْجَزا بَعْدُ، إلى الأَجْزاءِ اللاحِقَةِ، خاصَّةً إِذا لاحَظْنا أَنَّ عُنْواناتها بادِيَ الظَّنِّ تَشِفُّ عن اتِّخاذِها زاوِيَةً في الاسْتِشْرافِ تَتَساوَقُ والصُّورَةَ التي تَهْدِفُ السِّلْسِلَةُ الرَّاهِنَةُ إلى التَّكاتُفِ بِجِوارِها لاسْتِكْمالِ عَمَلِيَّات الإِبانَةِ عَنْهُ بِكُلِّيَّتِه، وخاصَّةً إذا عَلِمْنا أَنَّ هذه الأَجْزاءَ تَنْتَوِي الاهْتِمامَ بِنَشاطِ مُؤَرِّخِ الأَدَبِ؛ من حيث تَدْشِينِه مَجالا خِصْبًا لِتَفْعِيلِ الـمَناهِجِ النَّقْدِيَّةِ الـمَوْرُوثَةِ والوافِدَةِ في دِراسَةِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ.

لِنُصَوِّبْ إِذَنِ النَّظَرَ نحو **الرِّسالَةِ الثَّانِيَةِ**؛ الَّتي تَنْقَسِمُ إلى بابَيْنِ، يَهْتَمُّ الأَوَّلُ منهما، الذي يَجِيءُ تحتَ عُنْوان: "نقد التشكيل الجمالي للشعر"، بِمُوسيقَى الشِّعْرِ ولُغَتِه والصُّورَةِ الشِّعْرِيَّةِ والوُحْدَةِ العُضْوِيَّةِ في القَصِيدَةِ، وهو بابٌ يبدو مُوَفَّقًا بِصُورةٍ مُجْمَلَةٍ، إذ يُحاوِلُ أن يَرْصُدَ آراءَ ضَيفِ النَّقْدِيَّةَ حَوْلَ هذه الـمَسائِلِ، بِجانِبِ اهْتِمامٍ نِسْبِيٍّ بِمَواطِنِ الاخْتِلافِ والاتِّفاقِ مع غيرِه من

النقّادِ، ويَزْدادُ شعُورُنا بهذا إذا مَضَينا إلى الباب الثاني، الذي يَجيءُ تحتَ عُنوان: "نقد المضمون الفكري"، ويَنْقَسِمُ إلى فَصْلَين، يَحْمِلُ الأوَّلُ منهما عُنْوان: "الأغراض التقليدية"، وتَقْصِد بها إلى: المَدْحِ والهجاءِ والرِّثاءِ والغزَلِ والفَخْرِ والحَماسَةِ والوَصْفِ، ويَحْمِلُ الآخَرُ منهما عُنْوانَ: "الأغراض الشعرية المستحدثة"، وتَقْصِدُ به إلى: الخَمْرِيَّاتِ والزُّهْدِ والشِّعْرِ التَّعْلِيمِيِّ وقضايا الوَطَنِ؛ إذ بَعِيدًا عن كونِ مُصْطَلحِ الغَرَضِ ليس بِوُسْعِه احْتواءُ هذا الذي أُدْرِجَ تَحْتَه، وبَعِيدًا عن كونِ هذا المُدْرَجِ نفسِه لا يَتطابَقُ والأَبْوابَ التي وَلَجَ منها ناقِدُنا في دِراسَةِ الشِّعْرِ، وبعيدًا عن التَّشْكِيكِ حولَ صِحَّةِ وَصْفِ التَّقْلِيدِيِّ أو المُسْتَحْدَثِ- فإنَّ البابَ يُمْكِنُ عدُّه بِشَيءٍ مِن التَّجَوُّزِ مُجَرَّدَ تَرْتِيبٍ لنُصُوصِ الناقِدِ المَبْثُوثَةِ في سِلْسِلَةِ تاريخِ الأَدَبِ، بحيث يَسْتَقِلُّ كلُّ مَوضُوعٍ بِمَبْحَثٍ تَتلاحَقُ داخِلَه، فَحَديثُه عن الهجاءِ، على سبيلِ التَّمْثِيلِ، بَعْدَ أنْ كان يَلْقانا في السِّلْسِلَةِ مُوَزَّعًا على العُصورِ أو على الأَقْطارِ، سَيَلْقانا في الرِّسالة مُتلاحِمًا مُتَضامًّا: شَواهِدَ شِعْرِيَّةً مُتَابِعَةً وَفْقَ تَرْتِيبِ أَجْزاءِ السِّلْسِلَةِ مُذَيَّلَةً بِتَعْلِيقاتِ الناقِدِ عليها.

إذا اقْتَرَبْنا أَكْثَرَ من التَّفاصِيلِ فَسَوْفَ نَتأَكَّدُ أنَّ الدَّوْرَ الذي أدَّتْه هذه الرِّسالَةُ في التَّعَرُّفِ إلى الناقِدِ كان شَيئًا يَسِيرًا لِلْغايَةِ، بِسَبَبٍ من **افْتِقارِها** في رَأْيي إلى المِقْدارِ الكافي لِمُقَوِّمَيْن مُهِمَّين من مُقَوِّماتِ نَجاحِ البَحْثِ العِلْمِيِّ، وأَقْصِدُ **الدِّقَّةَ** في النَّقْلِ والفَهْمِ **والاسْتِيعابَ** للجُزْئِيَّاتِ الخاضِعَةِ للدَّرْسِ؛ حتى نَتَفادَى الخَلْطَ من جهة والتَّعْمِيمَ من جهة أخرى، ويُمْكِنُ أَنْ نَكْتَفِيَ في هذا المَقَامِ بِذِكْرِ نموذَجَينِ يَشْرَحان ذلك؛ **الأوَّلُ** يَتَمَثَّلُ في قَوْلِها: "والتصنيع مذهب ساد في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري.. أما

مذهب التصنع فإنه ظهر نتيجة تعقد الحياة في القرن الخامس.."[1]، في غَفْلَةٍ عَرِيضَةٍ عن نُصُوصِ ناقدِنا الواضِحَةِ، مِنْ مِثْلِ قولِه: "لا يمضي من يدرس الشعر العربي بعد القرن الثالث حتى يحس بظاهرة واضحة تمتد في هذا الشعر وتسيطر عليه وهي ظاهرة التصنع والتكلف الشديد"[2]، والـمشْكِلَةُ تَكْمُنُ لا فَحَسْبُ في مُجَرَّدِ تَجاوُزِ نَصٍّ أو نُصُوصٍ، وإنَّما كذلك في تجاوُزِ الاهْتِمامِ بِنَظَرِيَّةٍ ذاتِ حُضُورٍ مَرْكَزِيٍّ في مَشْروعاتِه النَّقْدِيَّةِ الـمُخْتَلِفَةِ، ربَّما ستَنْكَشِفُ لنا في الصَّفَحَاتِ الآتِيَة بعضُ جوانِبِها.

أمَّا الآخَرُ فيتمثَّلُ في قَوْلِها عن الـمُزْدَوَجِ من الشِّعْرِ: "كان الوليد بن يزيد أول من استحدثه، ولكن د. شوقي ضيف لا يورد تطبيقا يوضح ذلك من خلال شعره، ويعلل لذلك بأنه لم يجد منه أمثلة فيما طبع من ديوانه"[3]، وهو قولٌ يَعْكِسُ مُسْتَوًى قَرِيبًا ارْتَضَتْ بالتَّحْليقِ فيه، لأَنَّ صاحبتها لو كانتْ وَسَّعَتْ مِن نِطاقِ قِراءاتِها في نِتاجِه، لَوَجَدَتِ النَّاقِدَ، في غَيْرِ الـموْطِنِ الذي أَحَالَتْ عليه، يَسُوقُ نَمُوذَجًا له مَنْسُوبًا لِلْوَلِيدِ بن يزيد (ت: 126هـ)[4]، ولو كانت مَنَحَتْ فَهْمَها فُرْصَةً لِيَتشَكَّلَ في هُدُوءٍ لأَيقَنَتْ أن التَّعْلِيلَ لِعَدَمِ إيرادِ الشَّاهِدِ بِعَدِمِ وُجُودِه في الدِّيوانِ لا يُمْكِنُ أَبَدًا أن يَسْتَوِي على سُوقٍ؛ لأنَّ الناقِدَ لَمْ يكن مُطْلَقًا يَعْتَمِدُ على دِيوانِه بِمُفْرَدِه في دِراستِه! ولأنَّه أصلا لَيْسَ له

(1) عزة أحمد عبد العزيز وهبة: شوقي ضيف ناقدا، ص472، 473؛ باختصار.

(2) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط4، ص277، والتشديد من عندي.

(3) عزة أحمد عبد العزيز وهبة: شوقي ضيف ناقدا، ص64.

(4) انظر: شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، القاهرة، 1971م، ص36، 39، على أنه ينبغي التنبه إلى أن الناقد يبدو أحيانا مُتَشَكِّكًا في صحة الرواية.

دِيوانٌ مَوْروثٌ، وإنما مَقْطُوعاتٌ مَبْثُوثَةٌ في كُتُبِ الأدَبِ تَمَّ جَمْعُها![1] ولأدْرَكَتْ أخِيرًا أن الأمْرَ، ربَّما لِقَفْزَةٍ من بَصَرِها فَوْقَ السُّطُورِ، قد اخْتَلَطَ عليها؛ إذ كان يَتَحَدَّثُ ناقِدُنا عن بَشَّارِ بن بُرْدٍ (ت: 168هـ) الذي وَصَفَه الجاحِظُ (ت: 255هـ) بأنَّه صاحِبُ مُزْدَوَجٍ[2]، في حين يَقُولُ عنه ضيفٌ: "وإن كنا لا نجد منه أمثلة فيما طبع من ديوانه"[3]، لا عن الوَلِيدِ بن يَزِيدِ الذي يَقُولُ عن قَصِيدَتِه الـمُزْدَوَجَةِ، التي تَرْوِي بَعْضُ الكُتُبِ أنه خَطَبَ بها خُطْبَةَ الجُمُعَةِ: "وإذا صح ذلك كان هو أول من استحدثه"[4].

إن التَّوَقُّفَ عند هَذَين النَّمُوذَجَين لَمْ تَدْفَعْ إليه رَغْبَةٌ مِنَّا في «الاتِّجارِ» بالعَثَراتِ التي لا يَنْفَكُّ عنها إنْجازٌ بَشَرِيٌّ، كما لم يَكُنْ مآلُه إهْدارَ قِيمَةِ الرِّسالَةِ واطِّراحَ الجُهْدِ الـمَبْذُولِ فيها، وإنَّما كان الهَدَفُ مُجَرَّدَ التَّدْلِيلِ على أنَّ بَحْثًا، مَهْمَا كان مِقْدارُ إتْقانِه في أداءِ مَهَمَّاتِه، ليسَ بِوُسْعِه أن يَحُولَ دون الجُهودِ اللاحِقَةِ له، خاصَّةً إذا كان الـمَوضُوعُ الذي يَتَوَفَّرُ عليه مُتَرامِي

(*1*) للمزيد؛ انظر على سبيل التمثيل: شوقي ضيف: الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، دار المعارف، القاهرة، ط*5*، *1992*م، ص*111*، *112*.

(*2*) حول هذا النص؛ انظر: الجاحظ: البيان والتبين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط*7*، *1998*م، *1/ 49*، أما عن التصرُّف في عُنْوان الكتاب، والاستبدال بلفظة "التبيين" لفظةَ "التبيُّن"؛ فيعود إلى حديث محقِّق الكتاب في غير هذا الموطن؛ إذ أكَّدَ على خطإ التسمية الشائعة، ووَعَد بتغييرها في الطبعات اللاحقة، انظر: عبد السلام محمد هارون: قطوف أدبية؛ دراسات نقدية في التراث العربي؛ حول تحقيق التراث، مكتبة السنة، القاهرة، *1988*م، ص*97*، *98*.

(*3*) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، *3*- العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، *1966*م، ص*197*.

(*4*) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، *3/ 197*.

الأطْرافِ، كَمِثْلِ هذا الذي بين أيدِينا الآن، وربَّما كان يُمْكِن أن نُدَلِّلَ على براءَةِ الهَدَفِ بالإشارَةِ إلى أنَّ حَدِيثَنا قد احْترَزَ عن الاحْتِكام إلى ما كان يُفْتَرَضَ أن تَقُومَ به، وإلا لَوَجَدَ مَجَالا رَحْبًا لِلإسْهابِ، بل اكْتَفَى بالتَّوَجُّهِ نَحْوَ ما صَنَعَتْه بالفِعْل، مُعْتَقِدًا في أن الأهْدافَ التي تَنْتَوِي تَحْقِيقَها الدِّراسَةُ، أيُّ دِراسَةٍ، مِلْكٌ لها وَحْدَها؛ شَرِيطَةَ أنْ تُبَرْهِنَ على أَهَمِّيَّتِها وأنْ تَسْلُكَ لِذَلِكَ السُّبُلَ التي تُحافِظُ على الأُطُرِ البَحْثِيَّةِ العامَّةِ؛ وفي هذا السِّياقِ يَتَبَقَّى الإشارَةُ إلى مُعالَجَتِها الشِّعرَ وإغْفالِها الأَجْناسَ الأدَبِيَّةَ الأخرى، بالرَّغْمِ من أن العُنْوانَ يَشْمَلُها كلَّها، والاكْتِفاءِ أَثْناءَ الدِّراسَةِ بِعِشْرِين كتابٍ للناقدِ فحسب واطِّراحِ بَقِيَّةِ نِتاجِه، وعَدَمِ الانْتِباه مُطْلَقًا إلى مَقالاتِه التي لم يُعِدْ نَشْرَها، دُون تَقْدِيمِ أيِّ مُبَرِّرٍ يُسَوِّغُ هذه الإجْراءاتِ جَمِيعَها.

لَقَد ارْتَسَمَتْ هذه الصُّورَةُ في ذِهْنِي إزاءَ الدِّراساتِ الأكادِيمِيَّةِ التي تَشْرَكُنِي في مُعالَجَةِ المَوْضُوعِ، لِتَتَخالَفَ فيما بَعْدُ معَ صُورَةٍ أُخْرى تَمَّ تَكَوُّنُها بَعْدَ الاتِّصالِ بِبَعْضِ **الكِتاباتِ الناضِجَةِ** عن النَّاقِدِ، وهو حَدِيثٌ يَبْعَثُ أمامَنا أَمْثالَ: **عبد العزيز الدسوقي**، الذي يَعُودُ إليه فَضْلٌ كَبِيرٌ في شَقِّ طَرِيقٍ أمامَ البُحُوثِ المُتَنَوِّعَةِ المَعْنِيَّةِ بِضيفٍ، حين خَصَّصَ عَدَدًا من مِجَلَّةِ الثَّقافَةِ التي كان يَرْأَسُ تَحْرِيرَها لِلْحَدِيثِ عَنْه، بَعْدَ حُصُولِه على جائِزَة الدَّوْلَةِ التَّقْدِيرِيَّةِ في الآداب (عام: 1979م)، كما كَتَبَ في هذا الشَّأْنِ بَعْضَ مَقالاتٍ نَشَرَها بَعْدَ ذلك في كتابٍ بعنوان: "شوقي ضيف رائد النقد والدراسة الأدبية"، ويَكادُ يكون الشَّيءُ البارِزُ فيه هو الحَدِيثَ عن المَنْهَجِ الفَنِّيِّ الذي أَسَّسَه ضيفٌ برِسالَةِ الدُّكْتُوراه وعُدُولِه عنه أَثْناءَ تَأْرِيخِه لِلأَدَبِ العَرَبِيِّ، وإذا كان يُمْكِنُ التَّغاضِي عن نَقْصِ بَياناتِه؛ بالاسْتِناد إلى كَوْنِه الكِتابَ الأوَّلَ الذي يَسْتَقِلُّ

بالحَديث عن ناقِدِنا ، فإنَّ الذي يَصْعُبُ التَّغاضِي عنه هو طابَعُ الارْتِجال الذي انْطَبَعَ به بسَببٍ من نَشْرِ الـمَقالاتِ بِهَيْئَتِها الأولى، دون أن يُجْرِي عَلَيها التَّعْدِيلاتِ الـمُرْتَقَبَةَ، ومن أَدِلَّةِ ذلك أنّه في الصَّفَحاتِ الأولى يَصِفُ الـمَذاهِبَ الفَنِّيَّة التي تَعاقَبَتْ على الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، من وِجْهَة نَظَرِ ضَيْفٍ، بأنها ذاتُ حُدودٍ واضِحَةٍ، في حين يُؤاخِذُها في صَفَحاتٍ لاحِقَةٍ بانْعِدامِ حُدودِها الفاصِلَةِ التي تَحُولُ دون تَشابُكِها واخْتِلاطِها ![1]

يَبْعَثُ هذا الحديثُ أيضًا أمامَنا أَمْثالَ: **سامي سليمان أحمد**، الذي يَبْدو بِحَقٍّ شَغُوفًا بمُناهَضَةِ الصُّورَةِ النَّمَطِيَّةِ الـمُلْتَقَطَةِ عن ضيفٍ، بِوَساطَةِ كِتاباتٍ تَهْدِفُ إلى تَقْدِيمِه ناقِدًا، فيكتُبُ بَحْثًا بِعُنْوان: "خطاب النقد الـمسرحي التفسيري عند شوقي ضيف ؛ الصيغ والعمليات النقدية"[2]، يُعْنَى فِيه بِتَجْلِيَةِ انْخِراطِ خِطابِه فيما أَسْماهُ الاتِّجاهَ التَّفْسِيرِيَّ، على مُسْتَوى الصِّيَغِ أو الـمَبادِئِ الشَّامِلَةِ التي تَتَحَكَّمُ في مَنْظُورِه النَّقْدِيِّ، مثل مَقُولَةِ: "الـمَسْرَحُ تَعْبِيرٌ عن العَصْرِ"، وعلى مُسْتَوى العَمَلِيَّاتِ النَّقْدِيَّةِ، التي تَتَمَثَّلُ في التَّلْخِيصِ واسْتِخْلاصِ الخَصائِصِ العامَّةِ وتَحْدِيدِ مَواطِنِ التَّفَرُّدِ في العَمَلِ والكَشْفِ عن الأَثَرِ في الـمُتَلَقِّي والتَّقْيِيمِ، ثم يُتْبِعُه بثان بعنوان: "التوفيقية ومشروع دراسة

(1) انظر: عبد العزيز الدسوقي: شوقي ضيف رائد النقد والدراسة الأدبية (سلسلة: اقرأ)، دار المعارف، القاهرة، 1988م، ص22، 97.

(2) انظر: سامي سليمان أحمد: خطاب النقد الـمسرحي التفسيري عند شوقي ضيف ؛ الصيغ والعمليات النقدية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد يوليو 2000م، ص335- 364، وقد أعاد نشره مرة أخرى، انظر: سامي سليمان أحمد: حفريات نقدية ؛ دراسات في نقد النقد العربي المعاصر، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2006م، ص273- 318.

تاريخ الأدب العربي عند شوقي ضيف"، يَهْتَمُّ أَثْناءَه بالإبانَةِ عن سَعْيِ النَّاقِدِ إلى الجَمْعِ بين تَوَجُّهاتٍ مَنْهَجِيَّةٍ مُتَعدِّدَةٍ في دِراسَةِ الظَّواهِرِ الأَدَبِيَّةِ، والإشارَةِ إلى العَمَلِيَّاتِ التي اتَّخَذَها في أَداءِ وَظائِفِ مُؤَرِّخِ الأَدَبِ، مِثْلِ: الوَصْفِ والتَّصْنِيفِ والتَّفْسِيرِ والتَّقْوِيمِ، والتَّوَقُّفِ عِندَ المَسارَيْنِ الرَّئِيسَيْنِ في تَأْرِيخِه، وَيَقْصِد دِراسةَ الأَغْراضِ أو الموْضُوعاتِ وتَقْديمَ تَراجِمَ للأُدَباءِ، ويَكْتُبُ ثالِثًا بِعُنوان: "درس الأدب في الجامعة وبلورة المنظور التاريخي في قراءة الشعر"، يَهْتَمُّ أَثْناءه بِنَشاطِ ناقِدِنا ونَشاطِ يوسف خليف، مُعْتَمِدًا المُوازَنَةَ بَيْنَهُما وبَيانَ مَنْهَجِ التَّناوُلِ عِنْدَ كُلٍّ مِنْهُما، وإنْ كان سَيَضْطَرُّ كثيرًا إلى اجْتِرارِ النَّتائِجِ التي تَوَصَّلَ إليها عن ضَيْفٍ في دِراسَتِه الفائِتَةِ[1]. وبالرَّغْمِ مِن أنَّ دِراساتِه تكادُ تكون في المُقَدِّمَةِ من الدِّراساتِ المَعْنِيَّةِ بالناقِدِ، بِمُحاوَلَتِها تَحْقِيقَ الاتِّصالِ الحَمِيمِ بِمَوْرُوثِه، وتَفادِي آفَةِ تَقْدِيمِ المُلَخَّصات السَّطْحِيَّةِ عنه، فإن تَرْوِيجَ النَّتائِجِ بِلَهْجَةٍ لا تَرْعَوِي من اتِّساعِ المَكانِ أو امْتِدادِ الزَّمانِ يَتَراءَى مَلْمَحًا رَئِيسًا فيها، وَنَتَوَقَّفُ لِلتَّدْلِيلِ على ذلك عند زَعْمِها أن ضَيْفًا في تَأْرِيخِه للعَصْرِ الأُمَوِيِّ اكْتَفَى بِتَقْدِيمِ تَفْسِيرٍ بِيئِيٍّ ثَقافِيٍّ لِلغَزَلِ العُذْرِيِّ، في حين قَدَّمَ تَفْسِيرًا بِيئِيًّا حَضارِيًّا للصَّرِيحِ[2]؛ لأنَّه زَعْمٌ سَيَصْطَدِمُ مع آراءِ ناقِدِنا، في

(1) انظر: سامي سليمان أحمد: درس الأدب في الجامعة وبلورة المنظور التاريخي في قراءة الشعر (دراسة ضمن كتاب المؤتمر الأدبي الثامن: الثقافة والجامعة المصرية؛ مائة عام من التنوير)، جامعة القاهرة، فبراير 2008م، ص151، 154، على سبيل التمثيل.

(2) انظر: سامي سليمان أحمد: التوفيقية ومشروع دراسة تاريخ الأدب العربي عند شوقي ضيف (دراسة)، مجلة فصول، القاهرة، عدد 67، 2005م، ص371، 372، وهو يُحيل بعد إثبات رأيه هذا على: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 2- العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، 1963م، ص359.

غَيْرِ الـمَوْطِنِ الذي أَحالَتْ عليه، فضيفٌ يُقَرِّر في وُضوحٍ أن التَّمايُزَ أيضا بين البِيئَتَيْن البَدَوِيَّةِ والـمَدَنِيَّةِ، وَيَعْنِي شَظَفَ الأولى ونُعُومَةَ الأخْرى، كان سَبَبًا رَئِيسًا في التَّمايُزِ بَيْنَ الغَزَلَيْن: العُذْرِيِّ والصَّرِيحِ[1]، وَنَحْنُ هنا لا نُرِيدُ أن نُجابِهَ رأيًا بِرَأْيٍ، وإنما نُرِيدُ الإشارَةَ، بِالكَشْفِ عن هذه البياناتِ الغائِبَةِ، إلى ما يَفْرِضُه نِتاجُ ضيفٍ الـمتَّسِعُ الجَنَباتِ على دارِسِيه من ضَرُورَةِ التَّأنِّي في مَرْحَلَةِ الاسْتِقْصاءِ والحَيْطَةِ في مَرْحَلَةِ إِفْشاءِ النَّتائِجِ.

إذا عُدْنا إلى رِسالَةِ الـماجستيرِ الأولى التي أَرْجَأْنا الحَدِيثَ عَنْها، وتَحْدِيدًا إلى اسْمِ الـمُشْرِفِ: **طه وادي**، فَسَوْفَ يَسْتَدْعِي هذا الإِشادَةَ بالكِتابِ الذي أَشْرَفَ على إِعْدادِه: "شوقي ضيف سيرة وتحية"[2]، مُجَسِّدًا به الوَعْيَ الفاعِلَ الـمُسْتَقِرَّ في ضَمِيرِه تُجاه الدَّوْرِ الثقافي الذي أَدَّاهُ ناقِدُنا، إذ اسْتَنْهَضَ الباحِثِينَ لِيُدْلِي كُلٌّ بِدَلْوِه في مُقارَبَةِ نِتاجِه، غَيْرَ أَنَّه لِلأمانَةِ يَجِيءُ أَقْرَبَ إلى الكِتابِ التَّكْرِيمِيِّ؛ رَمْزًا للاعْتِرافِ بِالجَمِيلِ وَبَثًّا لِلمَشَاعِرِ، لَوْلا دِراسَاتٌ قَلِيلَةٌ- بَعْدَ اسْتِثْناءِ تِلْك التي تُعالِجُ قضايا لا تَتَّصِلُ بِمَوْضوعِنا- نَذْكُرُ مِنْها، على سبيلِ التَّمْثِيلِ، دِراسةُ **لحلمي بدير**[3]، حاوَلَتِ النَّفاذَ إلى الـمَلامِحِ العامَّةِ لِمَشْروعِ تأريخِ الأَدَبِ، بِوَضْعِه في مُقارَنَةٍ مع مَشْروعَاتٍ

(*1*) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، *2 / 207*، *208*.

(*2*) صَدَرَ هذا الكتابُ أَوَّلَ مَرَّةٍ في عام *1992*، وطبعته دار المعارف، ثم أعيد نشره عام *2003*م، في المجلسِ الأعلى للثقافة، بعد إجراء طه وادي تعديلاتٍ شَتَّى، أبرزها قيامُه باستيفاء بعض جوانب دراسته: "شوقي ضيف؛ سيرة عالم ومسيرة إنسان"، وحَذْفُ الدراسات المهداة إلى ناقدنا، وإضافةُ دراساتٍ أخرى عنه، ونشرُ بعض الكلمات التي تَحَدَّث بها الناقد في حَفَلاتِ تكريمه.

(*3*) انظر: حلمي بدير: الرؤية الشمولية في تأريخ الأدب عند شوقي ضيف (ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية، إشراف وتقديم: طه وادي) دار المعارف، القاهرة، *1992*م، ص*92*- *115*.

مُناظِرَةٍ؛ غَرْبِيَّةٍ وعَرَبِيَّةٍ، وهو مَسْلَكٌ جَيِّدٌ، وإن كان تَسَبَّبَ كَثِيرًا في إِشْعارِ القارئِ أَنَّ ناقِدَنا ليس حاضِرًا في العُمْقِ، ودِراسَةً **لأحمد موسى الخطيب**[1]، حاوَلَتْ تَأْكِيدَ اعْتِمادِ ناقِدِنا على جُمْلَةٍ من المَناهِجِ في دِراسَةِ النَّصِّ أو الظَّاهِرةِ أو الشَّخْصِيَّةِ، فيما أَسْماه ضيفٌ بالمَنْهَجِ التَّكامُلِيِّ، بَيْدَ أَنَّها لا تُرَبِّي هذه المُلاحَظَةَ، لا عن طَرِيقِ تَحْلِيلِ النَّماذِجِ ولا عن طرِيقِ تَحَسُّسِ مَواطِنِ الالْتِقاءِ والمُخالَفَةِ، وإنما تَعْمَدُ إلى آرائه فَتُعِيدُ عَرْضَها، ودِراسَةً **لأحمد محمد عبيدان**[2]، يَسْتَوْقِفُنا فيها السَّعْيُ الحَسَنُ نَحْوَ تَكْوِينِ صُورَةٍ مُكْتَمِلةٍ لا عن المادَّةِ وَحْدَها، كما يراها ضَيفٌ، وإنما كذلك عن الأطْوارِ التي تَقَلَّبَ فيها والظُّروفِ التي أَحاطَتْ بِلَحْظَةِ العَرْضِ وآثارِ ذلك على آرائه ورُؤْيَتِه، وإن كان يُلْحَظُ أنها، إلى جانبِ مَحْدُودِيَّتِها، قد وَقَعَتْ في تَغْرِيرِ خِطاباتِ الناقِدِ بقُرَّائِه، وأَقْصِدُ إِيهامَهم أَحْيانًا أَنَّه يَتَخالَفُ مع نُقَّادٍ مُعاصِرين، كَمِثْلِ العَقَّادِ (ت: 1964م)، حَوْلَ بَعْضِ القَضَايَا الأَدَبِيَّةِ، في حِينِ أنَّ التأَمُّلَ كان يَكْشِفُ عن التَّلاقِي، بَلْ أَيْضًا الاسْتِلْهامِ والمُحاذاةِ.

- 3 -

بهذا التَّصَوُّرِ المَبْدَئِيِّ الذي بَثَّه البَحْثُ عن طَبِيعَةِ المادَّةِ التي سَتُعالَجُ في هذه السِّلْسِلَةِ وأَهَمِّيَّةِ المَوضُوعِ وحُدُودِه، يمكن أن نَنْطَلِقَ الآن إلى تَحْدِيدِ **الأَسْبابِ الرَّئِيسَةِ لاخْتِيارِه**، ولْنَتَّفِقْ في البَدْءِ أَنَّها سَتُساقُ هنا بِهَيْئَتِها التي

(1) انظر: أحمد موسى الخطيب: منهج شوقي ضيف في دراسة شاعر العصر الحديث (ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية) ص189 - 203.

(2) انظر: أحمد محمد عبيدان: ابن الرومي بين يدي الأستاذ الدكتور شوقي ضيف (ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية) ص215 - 228.

استَقَرَّتْ في النَّفْسِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، لأنها تَطوَّرتْ بَعْدَ ذلك دُرُوبًا من التَّطَوُّرِ، وتَمازَجَتْ أَثْناءَ الكِتابَةِ والأداءِ بالأَهْدافِ التي نَنْتَوِي تَحْقِيقَها. يَجِيءُ على رَأْسِ الأَسْبابِ المَيْلُ نَحْوَ هذا الحَقْلِ المَعْرِفِيِّ، والشَّغَفُ بِتَقْدِيمِ إِنْجازاتٍ جادَّةٍ تُسْهِمُ في نُمُوِّه وتَفْعِيلِ أدْوارِه التي يُمارِسُها في مُجْتَمَعاتِنا وثَقافَتِنا، والرَّغْبَةُ في التعَرُّفِ الحَقِيقِيِّ العَمِيقِ إلى نَاقِدٍ يَنْتَمِي إلى جِيلٍ يَقَعُ مَوْقِعًا وَسَطًا؛ بين أولئك الرُّوَّادِ الذين حَمَلُوا شُعْلَةَ الإِحْياءِ في النَّقْدِ والأَدَبِ، وهؤلاءِ الذين يَشْغَلُونَ اليومَ مَراكِزَ التَّوْجِيهِ والتَّنْوِيرِ داخِلَ الجامِعَةِ وخارِجَها، وقِلَّةُ الدِّراساتِ التي تَقْتَرِبُ منه بِوَصْفِه نَاقِدًا أدبيًّا، وعَجْزُها من ثَمَّ عن الإبانَةِ الشَّامِلَةِ المَأْمُولَةِ لِجوانبِ كِتاباتِه المُتَنَوِّعَةِ، فَضْلا عن تَقْيِيمِها أو تَحْدِيدِ مَواطِنِ التَّوفِيقِ والإِخْفاقِ فيها.

وبهذا التَّصَوُّرِ ذاتِه، وبإِدْراكِنا مَضامِينَ الدِّراساتِ السابِقَةِ وآفاقَ مُنْجَزاتِها، يُمْكِنُ أن نَتَبَلَّغَ مَعْرِفةً **بالأَهْدافِ الخاصَّةِ** التي يَعْتَزِمُ البَحْثُ الحالِيُّ تَحْقِيقَها، ويَجِيءُ على رَأْسِها الكَشْفُ عن بَعْضِ قَسَماتِ الوَجْهِ النَّقْدِيِّ في نَشاطاتِ ضيفٍ، وتَجْلِيَةُ الرَّوافِدِ الأُولى التي أَسْهَمَتْ في صِياغَتِه مَعْرِفِيًّا وَمَنْهَجِيًّا، وتَحْدِيدُ مَوْقِفِه من المَوْرُوثِ العَرَبِيِّ؛ النَّقْدِيِّ والشِّعْرِيِّ منه بِصِفَةٍ خاصَّةٍ، وبيانُ أَثَرِ طرائقِ الدِّراسَةِ العَرَبِيَّةِ القَدِيمَةِ للنُّصُوصِ الشِّعْرِيَّةِ في مُمارَساتِه، وإِبْرازُ تَمازُجِ أُطْرُوحاتِه مع أُطْرُوحاتِ أساتِذَتِه وتلامِذَتِه، واكْتِشافُ مَوْقِعِ السُّؤالِ عن أُطُرِ وإجراءاتِ المَنْهَجِ النَّقْدِيِّ في فِكْرِه، ورَصْدُ آرائِه عن بَعْضِ القَضايا المُلِحَّةِ التي شَغَلَت السَّاحَةَ النَّقْدِيَّةَ في عَصْرِه، والتَّمْيِيزُ بين أَطْوارِه التي مَرَّ بها وتَحسُّسُ دَورِ كلٍ مِنها في ثَباتِ قَناعاتِه أو تَبَدُّلِها، والإِسْهامُ في وَضْعِه مَوْضِعًا يَلِيقُ به في مَسِيرَةِ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ العَرَبِيِّ؛

وَلِذا يَجِيءُ هذا الجُزْءُ في أَرْبَعَةِ فُصُولٍ مُتَآزِرَةٍ، يَهْتَمُّ الأَوَّلُ منها: **"أَوَّلِيَّاتُ التَّشَكُّلِ وَالأَداءِ"** بِنَشْأَةِ النَّاقِدِ وَكَيْفَ أَتاحَتْ له مُناخًا تُراثِيًّا خالِصًا، أَسْلَمَهُ إلى الإيمانِ به في طَوْرَيْ التَّلَقِّي وَالأَداءِ، وَيَقِفُ عِنْدَ رِسالَتِه للمَاجِسْتِيرِ بِوَصْفِها جِسْرًا مُهِمًّا في تَمْتِينِ الأَواصِرِ التُّراثِيَّةِ، ويَسْتَشْرِفُ الثَّاني: **"وُحْدَةُ التُّراثِ؛ التَّصَوُّرُ وَالأَصْدَاءُ"** تَصَوُّرَه الكُلِّيَّ عَنْ التُّراثِ، راصِدًا مَظاهِرَ هَيْمَنَتِه عَلَى قَناعاتِ النَّاقِدِ وَآرائِه إِزاءَ قَضايا أَدَبِيَّةٍ وَنَقْدِيَّةٍ، ويَتَّجِهُ الثَّالِثُ: **"أُولئكَ أَسْلافِي"** صَوْبَ مَشْروعِه الرَّئِيسِ في مُقارَبَةِ النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ، وَأَقْصِدُ مَشْرُوعَ التَّعْرِيفِ بِرُوَّادِه واتِّجاهاتِهم، في حِينِ يَخْتَتِم الرَّابِعُ مِنْها: **"المَنْهَجُ وتَجِلِّياتُه"** الدَّوْرَ المُلْقَى على عاتِقِ هذا الجُزْءِ بِالحَدِيثِ عن مَوْقِفِ ناقِدِنا مِن المَنْهَجِ الَّذِي خَلَّفَه أَسْلافُنا في دِراسَةِ النُّصُوصِ الشِّعْرِيَّةِ، وَتَجَلِّياتِه في مُمارَساتِه، تَسْبِقُها صَفَحاتُ **الماقبل** التي تُعْطِي لَمْحَةً عَنْ مُنْطَلَقاتِنا وَقَناعاتِنا الخَاصَّةِ وَتَوْصِيفًا سَرِيعًا عن وَضْعِ الدِّراساتِ المَعْنِيَّةِ بِمَجالِ بَحْثِنا، وَتَلْحَقُ بِها صَفَحاتُ **الخاتِمَةِ ومَسْرَدِ المَصادِرِ والمَراجِعِ**.

لَقَدْ كان المَنْهَجُ **«الوَصْفِيُّ التَّحْلِيلِيُّ»** هو المُتَّكَأَ في هذه الفُصُولِ كُلِّها؛ إذ يُتِيحُ، بِمَزاوَجَتِه بين التَّقَصِّي المُتَأَنِّي وَرَدِّ الأَشْياءِ إلى مُكَوِّناتِها الأَبْسَطِ، مُناخًا يَتَلاءَمُ والتَّمَرُّدَ على الرِّضا بِحَشْدِ النُّصُوصِ وتَرْدادِ الأَقْوالِ وحِكايةِ الآراءِ، ويُحرِّضُ البَحْثَ على تَفْتِيقِ الأَسْئِلَةِ التي بِفَضْلِها يَحْيا بِرُوحٍ مُتَأَلِّقَةٍ حتى آخِرِ صَفْحَةٍ، مُتَلهِّفًا لاسْتِكْشافِ العِلَلِ ومتَتَبِّعًا العَلائِقَ ومُتَفَحِّصًا الآثارَ ومنقِّبًا عن الجُذُورِ. على أنه يَجِبُ الانْتِباهُ إلى أَمْرَين؛ الأَوَّلُ: أن المَناهِجَ البَحْثِيَّةَ لا تَعْرِفُ الحُدودَ الحاسِمَةَ في عَزْلِها، بل دائِمًا يَتَوَسَّل المَنْهَجُ بِإجْراءاتٍ مُسْتَعارَةٍ من مناهِجَ أُخْرَى، بِما أَنَّها ستُمَكِّنُه مِنْ إِنْجازِ مَهَمَّاتِه، فإذا

كُنَّا قَدْ ارْتَضَيْنا الـمَنْهَجَ الوَصْفِيَّ مُتَّكَأً رئيسًا ؛ فإنَّ هذا لَمْ يَحُلْ دون اللُّجوءِ أَحْيانًا إلى مَنْهَجِ **الـمُوازَنات** أو مَنْهَجِ **الـمُقارَنَةِ**، بغَرَضِ تَجْلِيَةِ أَثَرِ السِّباقِ واللِّحاقِ والسِّياقِ ؛ لأَنَّ النَّاقِدَ في نِهايَةِ الـمَطافِ لَمْ يَنْشَأْ في فَراغٍ، ومِنْ ثَمَّ يَكونُ الفَشَلُ حَليفَنا إن تَوَهَّمْنا أَنَّه بِمَقْدُورِنا الاتِّصالُ به في ذاتِه عن طَرِيقِ استِقْلالِه، أما الآخر: فهو أنه يَعْسُرُ وُجُودُ تَحْلِيلٍ بَرِيءٍ من التَّحيُّزِ بالـمَعْنَى التامِّ لِهذا الوَصْفِ، فَمَعَ أَنَّه يَتَظاهَرُ بِتَأْدِيَةِ وَظِيفَةِ الكَشْفِ عن الـمُفْرَداتِ الأَوَّلِيَّةِ دون رَغْبَةٍ في تَقْيِيمٍ أو تَقْوِيمٍ، فإن مُمارَساتِه في هذا الجانِبِ كثيرًا ما تَفْضَحُه وتُكَذِّبُه ؛ بِإِبْدائِها النِّيَّاتِ الـمُضْمَرَةَ والبَواعِثَ الكامِنَةَ، رُبَّما يَتَجَلَّى ذلك أَوضَحَ ما يكون إذا تَساءلْنا عن مَسْلَكِه في انْتِقاءِ النَّماذِجِ ؛ إنَّه يَبْدو حَرِيصًا على طائِفَةٍ بِعَيْنِها منها، ومسلِّطًا الضَّوْءَ فَحَسْبُ على بَعْضِ الجَوانِبِ فيها، وإذا استَحْضَرْنا سَعْيَه الحَثِيثَ لِتَخْلِيفِ صُورَةٍ كُلِّيَّةٍ مُسْتَوْفِيَةٍ، فقد يَظْهَرُ أَنَّها تلك التي تُبْرِزُ، كما الشَّأْنُ داخِلَ إطارِ «**نَقْدِ النَّقْدِ**» الـمُنْتَسِبِ لِلمِعْيارِيَّةِ، التَّوْفِيقَ والإِخْفاقَ كِلَيْهِما ؛ لكنْ تَبْقى الأَشْياءُ الجَوْهَرِيَّةُ: أَنَّ التَّحْلِيلَ لَيْسَ يَنْشَرِحُ بِأَحَدِهِما دون الآخَرِ، ولا يَتَّخِذُ مِن هذا الـمَسْلَكِ دَيْدَنًا، ولا تَأْتِي هذه الأَماراتُ غالِبًا في سِياقِه إلا مُدَثَّرَةً.

- 1 -

أوّلِيّاتُ التّشكّلِ والأدَاءِ

"هل صحيح أننا نستطيع أن نفصم علاقاتنا بالماضي وأن نعيش معيشة منقطعة عنه؟ إننا أردنا أم لم نرد مرتبطون به ارتباطا وثيقا، وهل نحن إلا ثمار الأسلاف وأبناؤهم؟ وهل حياتنا إلا امتداد لحياتهم؟.." ؛ شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص10.

- 1/1 -

التراث في منعطفات النشأة

لِنَشْأةِ شَوقِي ضَيفٍ في جَانِبَيهَا الاجْتِماعِيِّ والثَّقافِيِّ دَورٌ كَبيرٌ جِدًّا في صياغَتِه تُراثِيًّا، وثَمَّ سَبَبانِ رَئيسَانِ يَضْطَرَّانِ البَحْثَ، أثْناءَ مُعالَجَةِ هذهِ القَضِيَّةِ، إلى الاتِّصالِ العاكِفِ على مَادَّةِ سيرَتِه الذَّاتِيَّةِ التي خَلَّفها تَحْتَ عُنْوانِ: "مَعِي"؛ السَّبَبُ الأَوَّلُ: حَاجَتُنا إلى وَسِيطٍ يَتَوَفَّرُ فيه «الصِّدْقُ المَرْجِعيُّ»، خَاصَّةً بعد اسْتِحالَةِ الالْتِقاءِ المُباشِرِ بِشَخْصِه، لا يُثْنِينا أَخْذُنا بالحَيطَةِ المُتَولِّدَةِ عن التَّفَهُّمِ لِفرْضِيَّةِ تَصَرُّفِ الذَّاتِ في إعادَةِ بِنَاءِ الأَحْداثِ عَبْرَ «الوَعْيِ الآنِيِّ»، الَّذِي يُفْضِي أَحْيانًا إلى أن تَبِيتَ عَمَلِيَّاتُ تَشْكِيلِ النَّصِّ، بانْتِقائِيَّتِه تارَةً وبِتَكْيِيفِه الخَاصِّ لِلْوَقائِعِ تَارَةً أُخْرَى، أَشْبَهَ ما يَكُون بِعَمَلِيَّاتِ «التَّجْمِيلِ»- لأنَّ العُهْدَةَ في نِهايَةِ المَطافِ سَتَظَلُّ مُلْقَاةً على عاتِقِه هُو[1]، لاسِيَّما وهو يَتَصَوَّرُ أن اسْتِخْدامَه ضَمِيرَ الغائِبِ في بِنائِها كان مُرْتَبِطًا بِرَغْبَتِه في ذِكْرِ حقائقِ الأَشْياءِ دونَ تَمْوِيهٍ[2]، أَوْ لِنَقْنَعِ الآن إِجْرائِيًّا بأن نَتَلَقَّاها بَدِيلا عن اللُّجُوءِ إلى وَسِيطٍ فَرْعِيٍّ، لا يَنْفَكُّ عادَةً عن

---

(1) لقد تَمَّتْ مُطابقة البيانات التي منحتْنا إياها على أية حال بتلك التي صرَّح بها في بعض حواراته؛ من مثل الحوار الذي أجرتْه معه مجلة الثقافة، في مناسبة حصوله على جائزة الدولة التقديرية، انظر: شوقي ضيف: [حوار] منشور تحت عنوان: شوقي ضيف؛ الجانب الآخر، أجراه معه وأعده: مصطفى عبد الفتاح، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد أكتوبر 1979م، ص72- 74.

(2) حول هذا المعنى انظر: شوقي ضيف: [حوار] منشور تحت عنوان: الدكتور شوقي ضيف؛ معي قريتي وحاضري وتراثي القديم، أجراه معه وأعده: حسين حمودة، مجلة الكرمل، القاهرة، عدد 60، صيف 1999م، ص67، 68.

أَخْطاءَ فِي النَّقْلِ أو الفَهْمِ[1]، أمَّا السَّبَبُ الآخَرُ فهو: رغْبَتُنا في مُحاوَرَةِ «النَّصِّ الدَّاخِلِيِّ» لِكاتِبِها ومُخَطَّطاتِه العَقْلِيَّةِ المُضْمَرَةِ، والوُقُوفِ على التَّرَسُّباتِ التي أَسْهَمَتْ في الصِّياغةِ ساعَةَ الحَدِيثِ عن مُتَعَلِّقاتِ التُّراثِ ومُفْرَداتِه، بِهَدَفِ الإفْصاحِ عن هُوِيَّتِه وشَخْصِيَّتِه في تَضاعِيفِها، وهو أَمْرٌ سَيَتِمُّ بِوساطَةِ مُحاكاةِ ما تَصْطَنِعُه السِّيرَةُ نَفسُها من تَجْمِيعِ المُنَبِّهاتِ التي تَمَّ اخْتِيارُها في «مَرْحَلَةِ التَّمْيِيزِ»، بِما أنَّ مُسْتَوى تِلْقائِيَّتِها مَهْما كان مُرْتَفِعًا أو حادًّا لا يَطْبَعُ اسْتِعادَتَها الأَحْداثَ المُخْتَزَنَةَ في السِّنِينِ الغابِرَةِ بِطابَعِ «الاستِعادَةِ الآلِيَّةِ»، وإنَّما تَظَلُّ تَعْبِيرًا عن ذاتِ صاحِبِها بِالقَدْرِ الذي يَبْلُغُه الوَعْيُ بها، الشَّيءُ الذي سَيَجْعَلُنا نَعُودُ إلى مَسْأَلَةِ الحَيطَةِ؛ لِنُسَجِّلَ ما لِذلكَ من أَثَرٍ في تَقْلِيصِها، لأنَّ الغايَةَ التي سَتَظَلُّ مُهَيْمِنَةً حِينَئِذٍ على العَرْضِ لن تَغْدُوَ تَفْتِيشًا عن «وَثِيقَةٍ تارِيخِيَّةٍ» بِقَدْرِ ما سَتَغْدُو تَتَبُّعًا لإفْضاءِ نَفْسٍ أيًّا كان وَصْفُه[2].

---

(1) نقتصر هنا على حالتين تحقق فيهما الاتصال المباشر مع السِّيرة من جهة والدِّقة والأمانة في النقل من جهة أخرى؛ ليتأكد لنا جدوى تَخَطِّيها، ومن ثم غيرها، إلى النص الأصلي نفسه، الأُولى: هي التوهُّم أن كتاب "قطر الندى" هو الذي ألهم ضيفًا فكرةَ تيسير النحو، انظر: طه وادي: شوقي ضيف سيرة عالم ومسيرة إنسان (ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية)، ص10، والصواب أن النَّصَّ الذي أحال إليه كان يقصد كتاب "مغني اللبيب"؛ لأنه- كما يقول ضيف- "عرض للنحو بطريقة جديدة غير مألوفة في كتبه"، انظر: شوقي ضيف: معي (سلسلة اقرأ)، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م، 1/ 59. والأُخرى: هي التوهُّم أن عنوان رسالة ضيف للماجستير كان: "حركة النقد في كتاب الأغاني"، انظر: ماهر حسن فهمي: معي والسيرة الذاتية (ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية)، ص37، والصواب أن عنوانها كان: "النقد الأدبي في كتاب الأغاني"، كما جاء في مصادر كثيرة، انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 124.

(2) هذا التصوُّر الذي نَتَبَنَّاه عن السيرة الذاتية يمكن الاتصال بمفرداته في بعض المراجع؛ انظر: عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية- لونجمان، القاهرة، 1992م،

=

اجتِمَاعيًّا:

الأَبُ، على حَدِّ وَصْفِ شوقي ضيفٍ، شَيْخٌ عالِمٌ[1]، تَخرَّجَ في الـمَعْهَدِ الأَزْهَرِيِّ، وكان أحْيانًا يَعقِدُ لأهْلِ قَرْيتِه دُرُوسًا دِينِيَّةً بين الـمَغْرِبِ والعِشاءِ، وفي كلِّ صَباحٍ كانت الآذانُ تَتَفَتَّحُ على آياتٍ يَتْلُوها من القُرْآنِ الكَرِيمِ[2]، "حتى لقد يتلو في اليوم الواحد ثلثه أو يزيد"[3]، أمَّا مَكتبتُه التي كان أحيانًا يَنظُرُ فيها الوَلَدُ فقد كانتْ تَحْوِي "كتب فقه وحديث مختلفة.. [و] بعض كتب تاريخية وأدبية مثل فتوح الشام وديوان ابن الفارض وقصة ماجدولين للمنفلوطي"[4]، وكان "يعرض عليه من حين إلى حين بعض أبيات من الشعر ويطلب إليه إعرابها"[5]، وكَثيرًا ما سَمِعَ مِنْه ومِنْ أُمِّه أنَّهما قد وَهَباه لِلْعِلْم، وكَلِمَةُ العِلْمِ عندهما، كما الشَّأْنُ عِنْدَ كَثيرٍ من أَبْناءِ جِيلِهما، تَعْنِي العِلْمَ الشَّرْعِيَّ، تَمَشِّيًا مَعَ ما كانَا يَتمَنَّيانِه من أنْ يُصبِحَ الوَلَدُ شَيْخًا[6]، وفَوْقَ هذا أنَّ **الأُمَّ** كانت تَحْفَظُ ما لا يَكادُ يُحْصَى من الأَمْثالِ التي وَرِثَتْها عن أَبِيها،

=ص1- 26، وفيليب لوجون: السيرة الذاتية؛ الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1994م، ص21- 58، ونسجل أن الأول منهما قد عَرَضَ لسيرة "معي"، ص152- 153، لكنه لم يهتم بها فأتى الحديث عنها مُبْتَسَرًا للغاية.

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 13.

(2) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 14.

(3) شوقي ضيف: معي، 2/ 106.

(4) شوقي ضيف: معي، 1/ 23؛ باختصار، وتصرف يسير.

(5) شوقي ضيف: معي، 1/ 51.

(6) شوقي ضيف: معي، 1/ 13.

فلم تَزَلْ تُغَذّي الصَّبِيَّ بها ؛ حامِلَةً إليه الحِكْمَةَ الـمُرَكَّزَةَ الـمُتَوارَثَةَ عَبْرَ الأجْيالِ على ضِفافِ نَهْرِ النِّيلِ[1].

أمَّا الجَدُّ فقد كان، فيما يَذْكُرُ ضيفٌ، "شيخا مثل أبيه"[2]، ولَعلَّه إذن هُو السَّبَبُ في صِبغَةِ التَّمَسُّكِ بالـمَوْرُوثِ التي صَبَغَت البَيتَ كُلَّه، وتَحْتَ تأثِيرِ هذه الصِّبْغَةِ وبالاعتماد عليها كانت الجَدَّةُ تَقُصُّ على الحَفِيدِ بَعْضَ الأخْبارِ الـمُتَعَلِّقَةِ بالخُلَفاءِ والفُتُوحاتِ الإسْلامِيَّةِ[3]، وبِجانبِ هذه الأقاصِيصِ التَّارِيخِيَّةِ كانت هُناك أَقاصِيصُ أُخْرى عن الجِنِّ والعَفارِيتِ، والتِي تَكُونُ القِطَطُ في بَعْضِها جَسَدًا يَتَشَكَّلُ فيه الجِنِّيُّ ؛ تَحْكِيها له مُؤمِنَةً بها أَشَدَّ ما يكونُ الإيمَانِ، فَنَشَأَ يَخَافُ الجِنَّ والعَفارِيتَ ولا يَأنَسُ لِلْقِطَطِ أَبَدًا، مع أنَّه لَمْ يُؤْمِنْ على الإطْلاقِ بِهذه الأقاصِيصِ في يوم من الأيام[4]! وشَقَّ هذا كُلُّه، فيما يَظْهَرُ لنا، قَنَواتٍ مُلائِمَةً لِتَيَّارِ التُّراثِ الـمُتَأَهِّبِ، بِشكلٍ مُباشرٍ أو غَيرِ مُباشرٍ ؛ لأنَّه على أَيَّةِ حَالٍ جَعَلَ لِلْماضِي نَصِيبًا من الحُضُورِ الـمُعْلَنِ الفاعل، ووثَّقَ الصِّلَةَ ومتَّنَها بِما هو قَدِيمٌ.

إذا انْتَقلْنَا مِنْ هذا الـمُحِيطِ الضَّيِّقِ، الذي يُشَكِّلُه البَيتُ والأُسْرَةُ، إلى الـمُحِيطِ الأَوْسَعِ الذي تُشَكِّلُه القَرْيَةُ بِتَرْكِيبَتِها الـمُمَيَّزَةِ من الـمَدِينَةِ- قابَلَتْنا كَثِيرٌ من الأُمُورِ العامِلَةِ على تَعْمِيقِ عَلاقَةِ ضيفٍ بالتُّراثِ، فهناك، كما تُشِيرُ النُّصُوصُ، نَجِدُ الحِكْمَةَ التي تَجْرِي على أَلْسِنَةِ الـمُتَقَدِّمينَ في السِّنِّ مِمَّنْ كان

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 25.

(2) شوقي ضيف: معي، 1/ 23.

(3) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 24.

(4) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 26، 39، 40.

يَأنَسُ لَهُم[1]، والأَقاصِيصَ الشَّائِعَةَ التي كانت تُوحِي إليه بِخَيَالاتٍ كَثِيرَةٍ[2]، وهُناكَ أيضا الحِفاظُ على العَاداتِ والتَّقالِيدِ في أفْراحِهم وأَحْزانِهم، ولعلَّ أَظْهرَ ما يُساقُ في هذا الصَّدَدِ أنَّ قَرْيَتَه كانت تُقِيمُ في بَعْضِ الـمُناسَباتِ الكُبْرَى احْتِفالا لِشَخْصٍ يُسَمَّى "الشَّاعِرَ"، وهو مُنْشِدُ القِصَّةِ الهلالِيَّةِ، التي أخذت في التَّشَكُّلِ والذُّيُوعِ في العَصْرِ العُبَيْدِيِّ (المعروف بالفَاطِمِيِّ)، ومُنْذُ هذه الحِقْبَةِ التَّارِيخِيَّةِ وبَعضُ القُرَى يُشايِعُ أَبَا زَيدٍ الهلالِيَّ أحَدَ بَطَلَي القِصَّةِ، وبَعضُها يُشَايِعُ دِيابَ بنَ غانِمٍ الزُّغْبِيَّ بَطَلَها الآخَرَ، ولم تَكُنْ قَرِيَةُ ضيفٍ زُغبِيَّةً بل كانت هِلالِيَّةً، ولذا شَغَلَ نَفسَه بالحَدِيثِ عن بُطُولاتِ أبِي زَيدٍ لِرِفاقِه بَعْدَ قِراءةِ القِصَّةِ، وكان لا يَزالُ في سِنٍّ صَغِيرَةٍ[3].

قِصَّةٌ تَعُودُ إلى هذا الزَّمَنِ الغابِرِ، وقَرْيَةٌ تُحافِظُ على رِوايتِها من جِهَةٍ وعلى انْتِمائِها لأحَدِ بَطَلَيْها من جِهَةٍ أُخْرَى، وأَهَمُّ مِنْ هذا كُلِّه: صَبِيٌّ صَغِيرٌ يَنْشَغِلُ بِهِما على هذا النَّحْوِ الذي يَصِفُ لنا في سِيرَتِه- مُؤكِّدٌ أنَّها كانَتْ بِتضافُرِها دَفْعَةً قَوِيَّةً لِتَيَّارِ التُّراثِ الـمُتَدَفِّقِ، خَاصَّةً وَقَدْ يُراوِدُنا الظَّنُّ في أنَّ **قِصَصَ الـمَوْروثِ الشَّعْبِيِّ** لِقَرْيَتِه قد تَلاقَتْ في نَفْسِه **بِقِصَصِ الخُرافاتِ** التي كانَتْ تَقُصُّها جَدَّتُه؛ لِتُشَكِّلَ بِتَفاعُلِها مُحَرِّضاتٍ تَفَتُّقِ بُذُورِ الاهْتِمامِ بالحِكاياتِ الأُسْطُورِيَّةِ، سواءٌ هذه التي لا أَصْلَ لها أو تِلْكَ التي تَمْزِجُ بين الحَقِيقَةِ والخُرافَةِ؛ لِتُثْمِرَ هي بِدَوْرِها كِتابَه: "عجائب وأساطير"[4]؛ الذي عُنِيَ

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/35.

(2) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/27.

(3) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/32- 34.

(4) انظر: شوقي ضيف: عجائب وأساطير، دار الهلال، القاهرة، 2004م، ص7- 9، 24- 41.

أثناءه بتتبُّعِها في مَظانِّها العَرَبِيَّةِ التُّراثِيَّةِ، من مِثْلِ كتب: التَّوارِيخِ لأَبِي زَيدٍ السيرافِيِّ (كان حيا أول القرن الرابع الهجري)، وعَجائِبِ الـمَخْلُوقاتِ وغَرائِبِ الـمَوْجُوداتِ لِلقَزْوِينيِّ (ت: 682هـ)، ونُخْبَةِ الدَّهْرِ في عَجائِبِ البَرِّ والبَحْرِ لِشَمْسِ الدِّينِ الدِّمَشْقِيِّ (ت: 727هـ)، وخَرِيدَةِ العَجائِبِ وفَرِيدَةِ الرَّغائِبِ لابْنِ الوَرْدِيِّ (ت: 852هـ)[1]، وغَيرِها، وإن يَكُنْ غَلَبَ على تِلْكَ التَّجْرِبَةِ طابَعُ التوْلِيفِ من ناحِيَةٍ واتخاذُها لِغايَتَي: التَّسْلِيَةِ والحَثِّ على استِلْهامِها قَصَصِيًّا من ناحِيَةٍ أُخْرَى، فإنها تَتَراءى لنا فَضْفَضَةً عن الـمَخْزُونِ الـمَعْرِفِيِّ وإفْصاحًا عن الارْتِباطِ الشُّعورِيِّ بِتُراثِ الأَسْلافِ، حتَّى في مِثْلِ هذا الـمَيْدانِ، وامتِدادًا لِخَيالاتِ الطُّفُولَةِ الـمُحَلِّقَةِ وما كان يُغَذِّيها من قِصَصٍ شَعْبِيَّةٍ؛ وثَّقَتْ بِدَرَجَةٍ ما العَلاقَةَ بِالجُذُورِ.

لَيس هذا ما يَسْتَوقِفُنا فحَسْبُ، بل يَسْتَوقِفُنا كذلك ما يُحِيلُ عليه ذِكْرُه قِصَّةَ أبي زَيدٍ الـهلالِيِّ في سِيرَتِه الذَّاتِيَّةِ، أَثْناءَ حدِيثِه عن أَجْواءِ مَرْحَلَةِ الصِّبا، إِذْ يَسُوقُنا إلى صَنِيعِ أُسْتاذِه طه حسين من قَبْلُ، في سِيرَتِه الذَّاتِيَّةِ الـمَشْهُورَةِ: "الأَيَّامِ"، حينَ ذَكَرَ أَنَّ الوَقْتَ الذي حُبِّبَ إليه في صِباهُ لِلْخُرُوجِ كان بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ وعَشاءِ النَّاسِ، حتَّى يَسْتَمِعَ إلى ذلك "الشَّاعِرِ" الذي يُنْشِدُ في نَغَمَةٍ عَذْبَةٍ أَخْبارَ أبي زَيْدٍ الـهلالِيِّ وخَلِيفَةٍ ودِيابٍ، على الرَّغْمِ من أَنَّ ذلك

(1) نسب هذا الكتاب خطأ إلى القاضي الفقيه زين الدين عمر بن مظفر بن الوردي (ت: 749هـ)، في نشرته الأولى على يد هايلندر عام 1824م، ورَكِبَتْ الطبعات العربية التالية لها الخطأ نفسه، في حين أن نسبته الصحيحة، كما بين محمود السيد الدغيم، إنما تعود إلى سراج الدين عمر بن المظفر بن الوردي الحفيد، الذي ألفه كما تدل مقدمته في عام 822هـ، أي بعد ما يزيد على سبعين سنة من وفاة جده! للمزيد انظر: أنور محمود زناتي: مقدمة تحقيق [كتاب خريدة العجائب وفريدة الرغائب؛ لسراج الدين بن الوردي]، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2007م، ص6- 12.

كان يُعَدُّ تَمَرُّدًا على أعْرافِ بَيتِه[1]، ولَئِن كانت الأَحْداثُ التي مَرَّ بها ناقِدُنا لمْ تُسْعِفْه في مَنْحِ واقِعَتِه مِثْلَ هذه الخُيوطِ التي تُجَسِّدُ الصِّراعاتِ الصِّبْيانِيَّةَ السَّاذَجَةَ؛ فإنَّه سَيَبدُو شَغُوفًا بِتَعْوِيضِ ذلك؛ وأَقْصِدُ حين يَقُصُّ عَلَينا مَا كان من تَذَرُّعِه لأمِّه بِانْتِظارِ السَّحُورِ في شَهْرِ رَمَضانَ؛ لِيُتاحَ له السَّهَرُ وتَكُفَّ هي عن أَمْرِه بالنَّومِ؛ ويَهْنَأَ من ثَمَّ بالاسْتِمَاعِ إلى "الـمُسَحِّراتِيِّ" الذي شُغِفَ به[2]!

ولعلَّ في هذا ما يُغْرِي باستِكمَالِ تَقَصِّي نِقاطِ التَّماسِّ بين السِّيرَتَينِ؛ لِلْخُلُوصِ إلى زَعْمٍ مَفادُه أنَّ مَظاهِرَ الالْتِقاءِ التي تَتَراءى لِلْقارِئ، سَواءٌ أكانت صَادِرَةً عن وَعْيٍ أم عن لاوَعْيٍ، ليستْ سِوَى امْتِدادٍ لِمُحاوَلَةِ الذَّاتِ تَشْكِيلَ مُفرَداتِ بِيئَةٍ تَنْتَسِبُ «مُخْرَجاتُها» إلى ما هو تُراثِيٌّ، تَمامًا كما كانت تَعْتَقِدُ في البِيئَةِ التي أَنْبَتَتْ أُسْتاذَه؛ فهناك اللُّجُوءُ في كِلَيهِما إلى ضَمِيرِ الغَائبِ على طَرِيقَةِ الرِّوايةِ، في حين أنَّ البَطَلَ فيهما ليسَ أَحَدًا غيْرَ الذَّاتِ، والوُلُوجُ إلى هذا الصَّنيعِ بِوَساطَةِ كَلِمَاتٍ مَشحُونَةٍ بِدَلالاتٍ زَمَنِيَّةٍ تَتَلاءمُ والبِناءَ الرِّوَائِيَّ بشَخْصِيَّاتِه النَّامِيَةِ وأَحْداثِه، هي الصَّبِيُّ والفَتَى وصَاحِبِي عِندَ ضَيفٍ، وصَبِيُّنَا والفَتَي وصَاحِبُنا لدى طه حسين، وواضِحٌ إلى جِوارِ ذَلك ما بَينَها من تَناظُرٍ لَفْظِيٍّ قد يَشِفُّ عن الاسْتِلْهامَ، وهُناك الأُسْلُوبُ الشِّعْرِيُّ الـمُفْعَمُ بالتَّصْوِيرِ والعاطِفَةِ، خاصَّةً في الجُزْءِ الأَوَّلِ من "معي"، وهُناك ما نَحْنُ بِصَدَدِ الحَدِيثِ عنه من

(1) انظر: طه حسين: الأيام (منشور ضمن الأعمال الكاملة لطه حسين)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، 1 / 135، ومن هذه الأمور التي تشير إلى حضور طه حسين فيما كتب ناقدنا، ما يُلْحَظ من تقاربٍ بين سيرته الذاتية في عنوانها: "معي" والكتاب الذي وضعتْه زوجُ أستاذه تحت عنوان: "معك"؛ حول هذا الجانب يمكن مراجعة: سوزان (طه حسين): معك، ترجمة: بدر الدين عرودكي، دار المعارف، القاهرة، 1979م.

(2) انظر: شوقي ضيف: معي، 1 / 32.

عَوامِلَ بِيئِيَّةٍ خَضَعَ لها كُلٌّ منهما؛ وعلى سبيل التمثيل، حَرَصَ ضيفٌ على تَصْوِيرِ خَوْفِه من العَفارِيتِ والجِنِّ، وسَبَقَه إلى ذلك طَهَ حُسَين، حَتَّى لَيَذْكُرَ أنَّه كان لا يَنامُ مُغَطِّيًا وَجْهَه لِخَوْفِه الشَّدِيدِ منها.

ما الَّذي نُريدُه من سَرْدِنا هذا؟ الحَقُّ أَنَّنا لا نُريدُ إلى إثْباتِ التَّأَثُّرِ فَضْلا عن تَقَصُّدِ الاحْتِذاءِ[1]، وإنَّما نُريدُ فَحَسْبُ الخُلُوصَ إلى الزَّعْمِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ، وهو شَيْءٌ سَنَتَبَلَّغُه إذا قَرَأْنا هذه النِّقاطَ في ضَوْءٍ من النُّصُوصِ التي يُصَرِّحُ فيها نَاقِدُنا بأَسْبَابِ الاقْتِرابِ بيْنَه وبيْنَ أُسْتاذِه. على رَأْسِ تِلْكَ النُّصُوصِ يُقابِلُنا قَوْلُه: "وكان الصبي يعجب بهيكل لأسلوبه الشفيف وكذلك بالعقاد لقوة

(1) للوقوف على بعض أوجه التقارب؛ ينظر: ماهر حسن فهمي: معي والسيرة الذاتية، ص29، 33، وفاروق شوشة: في وداع شوقي ضيف (مقال)، مجلة الكتب وجهات نظر، القاهرة، عدد أبريل 2005م، غير أنه يجب التخفيفُ من غُلَواءِ مقالِ شوشة، إذ تجيء فيه سيرةُ ضيف بحسبه مُتَقَصَّدةً محاكاةَ سيرة طه حسين، وهو أمر ينفيه التأملُ الشموليُّ في رأينا، فضيف يبدو إزاء بعض القضايا مجابهًا طه حسين، من مثل موقفه من الكتَّاب والأزهر وعلماء القرية وأخلاق أهلها، ويغلب على الجزء الثاني من سيرته الأسلوب التقريريُّ، الذي آذنَ به العنوانُ الفرعيُّ: "ذكريات ومشاهد"، فضلا عن ملاحظة عفت الشرقاوي في أن "معي" يكاد الحسُّ الوطني لا يُبارِح صفحاتها ودائمًا تَعْرِض الأحداثَ الخاصة في جَوِّها العام، في حين أن "الأيام" تغلب فيها رؤيةُ الذات على رؤية الوطن الأكبر، انظر: عفت الشرقاوي: شوقي ضيف ورحلة التكامل المنهجي (دراسة)، مجلة تراثيات، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، عدد يوليو 2005م، ص139، على أنه قد فاته الامتداد بذلك ليربطه بملاحظة وجه التقارب بين سيرتَي ناقدنا وأحمد أمين، ولا يعنينا هنا الحديث عن صنيع أحمد أمين إلا من جهة الانطباعات التي خلَّفها في نفس ضيف، وفي سبيل الكشف عنها يقابلنا قوله: ".. فهو يعرض نفسه، وكأن نفسه ليست غايته، وإنما هي مدخل أو منفذ لحوادث عصره النفسية والاجتماعية"، انظر: شوقي ضيف: أحمد أمين في كتاب حياتي (مقال)، ص28، وراجع أيضًا له: الترجمة الشخصية، ص120، 121، فإذا كان بوسع هذه الأدلة أن تجعلنا نتحاشى الاهتمام بتوافر القصد في المحاكاة أو عدمه، فإنها حالة اهتمامنا ستَمْهَد لزَعْمٍ مؤدَّاه أن سيرته تتراءى محصِّلة للأيام وحياتي كليهما.

منطقه ووضوحه وكان طه حسين أكثر منهما قربا إلى نفسه، ربما لأنه بدأ حياته أزهريا مثله، ولما يمتاز به أسلوبه من سهولة ويسر ونصاعة"[1]، إنَّ مُتَأَمِّلَ هذا النَّصِّ ليس بِوُسْعِهِ أنْ يتجاوزَ **إِقْحَامَ أَزْهَرِيَّةِ طه حسين** في «الحَيْثِيَّاتِ» التي ارْتَكَزَ عليها لِتَبْرِيرِ الانْجِذابِ إليه، فالـمَنْظُورُ الذي يَتَبَنَّاهُ منذُ بِدَايةِ شُرُوعِه في الحَكْيِ يَرْقُبُ الخَصائِصَ الأُسْلُوبِيَّةَ والتَّعْبِيرِيَّةَ لأولَئكَ الرُّوَّادِ، فالسُّؤالُ الذي يَقْفِزُ إذَنْ: لِماذا يَتِمُّ التَّحَوُّلُ عنها؟ يَتْبَعُه سُؤالٌ آخَرُ لَعَلَّه أَخْطَرُ لِمَا يُثِيرُ من تَعَجُّبٍ: إلى أيِّ شيءٍ تَمَّ التَّحَوُّلُ؟! إنَّ العَلاقَةَ التي كانت تَجْمَعُ بيْن طه حسين والأَزْهَرِ قِوامُها الرَّفْضُ والتَّمَرُّدُ، وهو الشَّيءُ الذي حَرَصَتِ السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةُ لناقِدِنا، كما سَيَظْهَرُ في المَبْحَثِ القادِمِ، على إِنْتاجِ صُورَةٍ مُناقِضَةٍ له، وبِبَساطَةٍ يُمكِنُ القَولُ: إنَّ مُجَرَّدَ ذِكْرِ الأزْهَرِ هنا في هذا الـمَوطِنِ مَدْعَاةٌ للانْفِراجِ لا الوِفاقِ، الأَمْرُ الذي سَيَتَسَبَّبُ في إِصابَتِنا بِحَيْرَةٍ، لكِنَّها سُرْعانَ ما تَزُولُ، إذا جَرَّبْنا الاقْتِناعَ بالزَّعْمِ الذي مِنْ أَجْلِه سُقْنَا هذه النُّصُوصَ: إنَّ طه حسين هو **«الأُنْمُوذَجُ»** الذي تَبْتَغِي الذَّاتُ مُضاهاتَه؛ وأَقْصِدُ على وَجْهِ التَّحْدِيدِ مَعْرِفَةً بالتُّراثِ ومَنْهَجًا في التَّعاطِي، فكان من الطَّبِيعِيِّ أنْ تَحْرِصَ على التَّفْتِيشِ في «خِزانَةِ أَحْداثِها» الغابِرَةِ عن كُلِّ ما يُمْكِنُ أن يَبِيتَ إذا أُعِيدَ تَرْتِيبُه وصَهْرُه في بِنْيَةِ سِيرَتِها الذَّاتِيَّةِ مُتَواطِئًا معه، وكان من الطَّبِيعِيِّ أَيْضًا وهي تَقُومُ بهذه العَمَلِيَّاتِ الـمُتَراكِبَةِ أن تَسْعَى لِـما يُمكنُ أنْ نُشَبِّهَه، من مَنْظُورٍ فِيزِيقِيٍّ، بتَفْرِيغِ شِحْناتِ الأَقْطابِ الـمُتَنافِرَةِ؛ لِيبيتَ الـمَشْهَدُ حاوِيًا الأَلْفاظَ دُونَ مُحْتَواها، أو لِنَقُلْ على وَجْهِ الدِّقَّةِ: دُونَ أن يكون هناك مُحتَوًى غَيْرُ مَرْغُوبٍ فيه مِنْ جِهَةِ صاحِبِها.

---

(1) شوقي ضيف: معي، 1/ 57.

- 2 /1 /1 -

ثقافيًا:

لِنذْهَبِ الآن إذن إلى الجَانِبِ الآخَرِ ؛ حَتى نَتَمَكَّنَ من تَحَسُّسِ أَثرِه في تَوْثِيقِ عَلاقَةِ ضيفٍ بالتُّراثِ، وقد رَأَيْنا أنْ يَتِمَّ تَتَبُّعُه بِوَساطَةِ الحَدِيثِ عن الـمَراحِلِ التَّعْلِيمِيَّةِ الـمُخْتَلِفَةِ التي تَقلَّبَ فيها، ونَبْدَأُ مِنْ **الكُتَّابِ** الذي يَبْدو أنه شَهِدَ اللَّحَظاتِ الأُولَى لِشُرُوعِ التُّراثِ في الشُّخُوصِ ؛ حيثُ حَفِظَ القُرآنَ مِثْلُ كَثِيرٍ من أَقْرانِه قبْلَ أنْ يَتَجاوَزَ العاشِرَةَ[1]، لِتَأْتِي بعد ذلك مَرْحَلةُ **الـمَعْهَدِ الدِّينِيِّ بِدِمْياطَ** بِسَنَواتِه الأَرْبَعَةِ، وفيه دَرَسَ النَّحْوَ على الطَّرِيقةِ القَدِيمَةِ ؛ مَتْنُ الآجُرُّومِيَّةِ فالأزْهَرِيَّةُ فالقَطْرُ فأَلْفِيَّةُ ابنِ مالِكٍ[2]، ولا نُبارِحُ الحَقَّ، بالاسْتِنادِ إلى سِياقِ حَدِيثِه، إذا قُلْنا: إنَّ هذه الطَّرِيقَةَ التُّراثِيَّةَ القَدِيمَةَ قد أَسَرَتْ عَقْلَه ؛ بَلْهَ قَلْبَه ؛ إِذْ يُدافِعُ عنها دِفاعًا حارًّا، ولا يَكْتَفِي بذلكَ بل يُوَجِّهُ ما يُشْبِه الاتِّهاماتِ إلى الطَّرِيقَةِ الحَدِيثَةِ، مُحْتَجًّا بالـمُحَصِّلَةِ في كُلٍّ مِنْ الطَّرِيقَتَينِ ؛ فَبَيْنَما تَنْجَحُ الطَّرِيقَةُ القَدِيمَةُ في تَمَثُّلِ التَّلامِيذِ النَّحوَ تَمَثُّلا واعِيًا تُخْفِقُ الطُّرُقُ الحَدِيثَةُ في هذا[3]، وكان يَعْكُفُ بِجانِبِ كُتُبِ النَّحْوِ على كُتُبِ الفِقْهِ الشَّافِعِيِّ

---

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/40، 42، 43.

(2) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/49، 52، 58، 72.

(3) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/50، 51، 53. ولهذا النص أهميته لأنه يساعد في الكشف عن معالم دعوة ضيف في تيسير النحو، وكيف أنها لم تكن تقصد إلى القطيعة بيننا وبين كتب النحو القديم، بل كانت تحاول دائمًا تعميق صلتها بالأسلاف وجهودهم، وهذا يبدو منذ الخُطْوَة الأولى لهذه الدعوة ؛ خطوة نشر كتاب: "الرد على النحاة" لابن مضاء الأندلسي (ت: 592هـ) في عام 1947م، الذي يتبنى فكرة إلغاء العامل ومنع التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات، وهي خطوة منحت آنذاك الـمتوثِّبين نحو تجديد النحو مستَنَدًا تراثيًّا، ويكفي أن نقرأ فيه النص القائل عن نظرية العامل التي حاول هدمَها ابنُ =

فِي صُوَرِه الـمُخْتَلِفَةِ(1)، ويمثِّلِ ما دافَعَ عن الطَّرِيقَةِ القَدِيمَةِ في دِراسَةِ النَّحْوِ دافَعَ عن الصُّوْرَةِ التي كانت عليها الكُتُبُ الأَزْهَرِيَّةُ آنَذاك، ويَقْصِدُ صُورَةَ: الـمُتُونِ والشُّرُوحِ والحَواشِي والتَّقارِيرِ، واصِفًا إيَّاهَا بأنَّها كانت تُحِيلُ الـمَتْنَ البَسِيطَ إلى ما يُشْبِه دائِرَةَ مَعارِفَ صُغْرَى في بابِها، ويَتَمَنَّى في إخْلاصٍ أنْ تَظَلَّ هذه الطَّرِيقَةُ قائِمَةً في الأَزْهَرِ ومَعاهِدِه العِلْمِيَّةِ(2).

=مضاء: "..حقا هي من أهم نظرياته، أو قل هي الأصل الأول من أصوله، ولكن إلغاءها لا يترتب عليه، أو قل لا يرتب ابن مضاء عليه إلغاء النحو، وإنما يرتب تسهيله وتيسيره"، انظر: شوقي ضيف: مدخل إلى كتاب الرد على النحاة [بكتاب: الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي؛ تحقيق: شوقي ضيف]، دار المعارف، ط2، 1982م، ص45، وانظر له: المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، 1968م، ص304- 306، كما يبدو كذلك في الكتب التي أَلَّفها مضمَّنَةً جانِبَي التنظير والتطبيق؛ إذ نجد دائما الربطَ بين القديم والجديد، على سبيل التمثيل، في كتاب "تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده" يحاول عن طريق التتبع التاريخي للنحاة توضيح أن فكرة تيسير النحو ليست بِدْعَةً مستحدثةً، وإنما كانت مَطْلَبًا لأئمة النحاة في كل زمانٍ ومكانٍ، انظر: شوقي ضيف: تيسير النحو قديما وحديثا مع نهج تجديده، دار المعارف، القاهرة، 1986م، ص5- 8، وفي كتاب "تيسيرات لغوية" يحاول في ثُلُثِه الأول تبيين صحة بعض القواعد التي يُظَنُّ في خطئها، ولا يعدو صنيعُه أن يكون ترجيحًا لبعض أقوال أئمة النحو القدامى، كما فعل مثلا في باب التضمين من ترجيح قول الكوفيين بإنابة حروف الجر بعضها عن بعض، وترجيح قول ابن قتيبة بزيادة حرف الجر، حتى يَتَسَنَّى له إلغاء فكرة التضمين التي دَنْدَنَ حولها البصريون كثيرًا، انظر: شوقي ضيف: تيسيرات لغوية، دار المعارف، القاهرة، 1990م، ص81- 92، وبعيدًا عن الحُكم الأمين، الذي قد تنهض به دراسة أخرى، على هذه الآراء التي نقلنا بالصحة والخطإ؛ فإن أفكاره وممارساته كما تتجلى على النحو الفائت تؤكدان أن القالب التراثي وما يحمل من مضامين كان مهيمنا على مشروع تيسير النحو لديه.

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 59.

(2) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 66- 68.

إنَّ حَدِيثَ النَّاقِدِ الفائِتَ، الذي يَتَوَلّى الإعْرابَ عن قَناعاتِه في لَحْظَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ من لَحَظاتِ مَسِيرَتِه، يَجْعَلُنا نَزْعُم أنَّ هذه الـمَرْحَلَةَ الـمُبَكِّرَةَ لَمْ تُفرِزْ قارِئًا للتُّراثِ فَحسْبُ، بل مُؤمِنًا به وبِكلِّ ما يَمَسُّه من قَرِيبٍ أو بَعِيدٍ أشدَّ ما يَكونُ الإيمَانُ؛ مِن حَيثُ إن آراءَه حِيالَ قَضِيَّةِ انْحِصارِ أَغْلَبِ كُتُبِ التراثِ في رُكْنِ الشُّرُوحِ والحَواشِي والتَّقارِيرِ لَمْ تَظَلَّ ثابِتَةً على حالَةٍ واحِدَةٍ؛ فَبَينَما نُقابِلُها هنا، وفي غَيْرِ هذا الـمَوْطِنِ[1]، تَصْطَنِعُ الـمَدْحَ لها والـمُنافَحَةَ عنها، فإنَّنا نُقابِلُها في أُخْرَى تَصْطَنِعُ الذَّمَّ لها والـهُجُومَ عليها، واصِفَةً هذه الظَّاهِرَةَ بأنها دَلِيلٌ على الجُمودِ الفِكْرِيِّ الذي سَيْطَرَ على القُرُونِ الوَسِيطَةِ[2]؛ إذ على الرَّغْمِ من أنه يُمْكِنُ تَفْسِيرُ هذا التَّضارُبِ بِالذَّهابِ إلى أن الذَّمَّ كان مُجَرَّدَ تَرْدادٍ لأقْوالٍ تَسَرَّبَتْ إليه من الأَجْواءِ الثَّقافِيَّةِ الـمُحِيطَةِ به، خاصَّةً وهو مُتَحَقِّقٌ في كُتُبِه الـمُتَقَدِّمَةِ زَمَنِيًّا دون الـمُتَأَخِّرَةِ، كما يمكن تَفْسِيرُه بالإفادَةِ من تَأَمُّلِ ظُروفِ دِفاعِه عنها؛ إذ مِنْ جِهَةٍ بَدَأَتِ الصِّلَةُ بهذه الكُتُبِ تَتَعَمَّقُ أكثر، وكان بَعْضُها لَمْ يُنْشَرْ بَعْدُ، ومن جِهَةٍ أُخْرَى رَأَى أن ذَمَّها يُفْضِي عند بَعْضِ الـمُحْدَثِين إلى ذَمِّ التُّراثِ كُلِّه والدَّعْوَةِ إلى هَجْرِه، وهو أَمْرٌ لَمْ يَكُن يَرْمِي إليه ولا كان يَتَوَقَّعُ أن يكون ناتِجًا من نَتائِجِ الذَّمِّ لها، فَتَبَدَّلَ مَوقِفُه تَطَلُّعًا إلى مُجابَهَةِ مُبَرِّراتِ التَّنَكُّرِ لِلْماضِي؛ أقولُ: على الرَّغْمِ مِنْ هذا كُلِّه، فإن التَّفْسِيرَ

(1) على سبيل التمثيل؛ ينظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، دار المعارف، القاهرة، 1987م، ص47- 51، 69- 71.

(2) على سبيل التمثيل؛ ينظر: شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر؛ في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط10، 1992م، ص19- 21، والبلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، 1965م، ص6، 358، وفي النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، 1962م، ص31.

الأَكثرَ نَفَاذًا إلى العُمْقِ هو أن تَصَوُّراتِه تَمَثَّلَتْ **إِحْياءً للانْطِباعاتِ الأَوَّلِيَّةِ البَسيطَةِ** التي تَرَسَّبَتْ في نَفْسِه أَيَّامَ كان صَبِيًّا، بِما أنَّ الذَّاتَ تَتَّخِذُ في هذه اللحظة المتأخرة من الارْتِدادِ الزَّمَنِيِّ لِوَقائِعِها وتجارِبِها السَّالِفَةِ مُسْتَنَداتٍ تُسَوِّغُ مواقِفَها وتُصادِقُ على أَحْكامِها.

يَنْتَقِلُ ناقِدُنا فيما بَعْدُ إلى **المَعْهَدِ الدِّينِيِّ الثَّانَوِيِّ بِالزَّقازِيقِ**؛ فَيَشْعُرُ أنَّ الجَوَّ العِلْمِيَّ فيه أَقَلُّ تَأَلُّقًا بكَثِيرٍ عن مَثِيلِه بِدِمْيَاطَ، ويَظَلُّ يُعَدِّدُ لنا أَسْبَابَ ذلك في صُورَةِ مُوازَنَةٍ، وربَّما سَيَتَمَلَّكُنا العَجَبُ حِين نَعْلَمُ أَنَّ من بَيْنِ هذه الأَسْبَابِ أَنَّ دُرُوسَ المَعْهَدِ بِدِمْيَاطَ كانَتْ أَشْبَهَ بِما يُسَمَّى اليَومَ «دُرُوسًا حُرَّةً»، لا تُلْقَى في حُجَرٍ مُغْلَقَةٍ مِثْلَ دُرُوسِ مَعْهَدِ الزَّقازِيقِ، بَلْ كانَتْ تُلْقَى بِساحاتِ المَساجِدِ لكلِّ مَنْ شاءَ من الطُّلابِ الرَّائِحِينَ والغادِينَ، الَّذِين يَجْلِسُونَ على حُصْرٍ مُكَوِّنِينَ نِصفَ دائِرَةٍ حَوْلَ الشَّيْخِ بِكُرْسِيِّه[1]. إنَّ حَيْثِيَّاتِ المُوازَنَةِ هنا لَيْسَتْ مُتَعَلِّقَةً بالطَّرِيقَةِ، ولا مُرْتَبِطَةً بالقِدَمِ والحَداثَةِ، كما رَأَينا قَبْل ذلك؛ لأَنَّها تَتِمُّ بين مُؤسَّسَتَينِ تَنْتَمِيانِ إلى نِظامٍ واحِدٍ، وإِذنْ فهي تَتَعَلَّقُ بالإِطارِ الخارِجِيِّ، أو ما يُمْكِنُ أنْ نُسَمِّيَه، تَجَوُّزًا، **«الرُّتُوشَ التَّكْمِيلِيَّةَ»** لِلْمُناخِ التُّراثِي، الأمرُ الذي يُوحِي بأنَّ ما تَلَقَّيناهُ عن الأَسْلافِ في الجَانِبِ الشَّكْلِيِّ لم يكُنْ بِمَنْأًى عن مَنْظُومَةِ ضيفٍ التُّراثِيَّةِ.

لَقَدْ كان هذا إِيذانًا بِما سَنَشْهَدُه من مَواقِفَ نَقْدِيَّةٍ قِوامُها **التَّحَفُّظُ إِزاءَ المُحاوَلاتِ التَّجْدِيدِيَّةِ** التي اشْتَمَّ منها رائِحَةَ انْتِهاكِ «قَداسَةِ القالَبِ التُّراثِيِّ». على سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، يُنَادِي بَعْضُ الدَّارِسِينَ بِتَناوُلِ المَوْرُوثِ الشِّعْرِيِّ على

---

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 79.

أَغْراضٍ وتَقْسِيماتٍ جَدِيدَةٍ غَيْرِ التَّقْسِيماتِ التي قَسَّمَ عليها أسْلافُنا شِعْرَهم، مما سَمَّوْه مَدِيحًا وهِجاءً ورِثاءً إلى غَيْرِ ذلك، فَيَصْرُخُ في وَجْهِهم ناقِدُنا قائِلا: "وأسلافنا كانوا أعرف بشعرهم وأغراضه وما يمكن أن ينقسم إليه قسمة لا تجور على فنونه.. ولن يعوق الاسم العام الذي وضعه أسلافنا أي باحث عن النفوذ إلى كل ما يريد من دقائق البحث بل لعله يكمل دلالتها إذ نعرف منه الموضوع الذي استودعت فيه وكل ما اقترن به من ظروف"(1)، ويُنادِي إبراهيمُ أنيس (ت: 1978م) بالتَّجْدِيدِ في نِظامِ التَّفاعِيلِ القَدِيمِ التي نَدْرُسُ على أَساسِه العَرُوضَ الشِّعْرِيَّ، فيَكْتَفِي بثَلاثٍ منها يَتَفَرَّعُ عنها ثَلاثٌ أُخْرَى؛ فَيَقِفُ ناقِدُنا قائِلا: ".. إذا تأمَّلَ فيه وجدَه لا يزيل الصعوبة الحقيقية من أبحاث العروض. ألا يزال الشعر يقاس بتفاعيل؟ بل إن هذه التفاعيل الست تقطع الصلة بيننا وبين دوائر الخليل التي استنبط منها أوزانا أخرى مهملة وضعها تحت أعين الشعراء ليجددوا بواسطتها في أوزان شعرهم متى شاءت إرادتهم الفنية أو حاجتهم الشعرية"(2)، وَلَوْ كُنَّا نَلْمَحُ في النَّصِّ الأخيرِ نَفْسِه أَنَّه لا يَذْهَبُ في تَحَفُّظِه إلى حَدِّ الرَّفْضِ.

لا زِلْنا نَتَحَدَّثُ عن المَراحِلِ التَّعْلِيمِيَّةِ التي مَرَّ بها ناقِدُنا، ونَتَتَبَّعُ مَسارَها الذي سَيَنْحَرِفُ به عن التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ الأَزْهَرِيِّ إلى **المَدْرَسَةِ التَّجْهِيزِيَّةِ** (يعود تأسيسها إلى عام 1919م)؛ اسْتِعْدادًا للالْتِحاقِ بِدارِ العُلُومِ، وتَلْبِيَةً لِرَغْبَةٍ كامِنَةٍ داخِلَه كانتْ تُلِحُّ عليه بإتْمَامِ تَكْوِينِه الأَدَبِيِّ، وقد خَلَّفَتْ

---

(1) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص23، 24، باختصار.

(2) شوقي ضيف: موسيقى الشعر؛ تأليف الدكتور إبراهيم أنيس (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 18 يوليو 1949م، ص28.

هذه المُزاوَجَةُ بين التَّعْلِيمِ الدِّينيِّ والتَّعَلُّمِ في هذه المَدْرَسَةِ أَثَرًا كَبِيرًا في تَشْكِيلِه المَعْرِفِيِّ، رُبَّما سَتَتَّضِحُ بعْضُ جَوانِبِه في مَوْسُوعِيَّتِه وانْفِتاحِه على الثَّقافاتِ المُتَبايِنَةِ لِعصْرِه ودَعْوتِه إلى الإِفادَةِ مِنْها، ولْنَفرَغْ إذن الآن إلى عَلاقَتِها بتَيَّارِ التُّراثِ؛ التي يُمْكِنُ الاطْمِئْنانُ إلى نَعْتِها بِأَنَّها كانت امْتِدادًا له، رَغْمَ ما لَعَلَّه يَبْدُو بِالنَّظْرَةِ السَّطْحِيَّةِ العَجْلَى من انْقِطاعٍ مَعْرِفِيٍّ بينهما، قد يَكُونُ مَنْشَؤُهُ غِيابَ الطَّرِيقَةِ التي يَتِمُّ بها الإِلْقاءُ والتَّلَقِّي، إذْ "كانوا يلقون دروسهم في شكل محاضرات لا قراءة في الكتب على الطريقة الأزهرية"[1]، أما تَعْلِيلُ ما ذَهَبْنا إليه مِن رَأْيٍ فَيَعُودُ إلى أنَّ المَوادَّ التي كانَتْ تُدَرَّسُ فيها لَمْ تَقْطَعْ صِلَتَه بالمَوادِّ التي عَهِدَها؛ فَهُناك، إلى جِوارِ ما كان يُدرَّسُ من رِياضِيَّاتٍ وطَبِيعَةٍ وكِيمياءَ، عُلُومُ الفِقْهِ والتَّفْسِيرِ والحَدِيثِ والكَلامِ أو التَّوحِيدِ، وأيضًا عُلُومُ النَّحْوِ والصَّرْفِ والأَدَبِ، وهذا يَعْنِي أنَّ التَّجْهِيزِيَّةَ لم تَكُنْ تَعْلِيمًا مَدَنِيًّا بالمعنَى التَّامِّ، وإنَّمَا «بَيْنَ بَيْنَ»، إنْ صَحَّ هذا التَّعْبِيرُ[2]،

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 81.

(2) المدارس التَّجْهِيزِيَّة تُناظِرُ حاليا المدارسَ الثانوية؛ إذ كانت تقوم بتأهيل الخريجين فيها للالتحاق بالمعاهد والمدارس العليا المختلفة، وتعود فكرة إنشائها في مصر إلى عهد محمد علي؛ تحديدًا في عام 1825م، حين رأى ضرورة تأسيسها لتحقيق طموحات دولته، وكانت في معظمها عسكريةً حربيةً، ثم عادت الفكرة إلى نشاطها في عهد إسماعيل فأنشأ واحدة بعباسية القاهرة عام 1863م نقلت بعد إلى درب الجماميز عام 1868م، وأخرى في رأس التين بالإسكندرية عام 1863م، وهي مدارس تتوسط في مناهجها بين المناهج التي تدرس في الأزهر الشريف وتلك التي تولّدت عن الاحتكاك بالغرب في العصر الحديث، ولذا تتباين ردود فعل المفكرين من صنيع ولاة مصر بالتعليم بوجهٍ عامٍّ، فبينما يراه بعضهم متساوقًا مع الفكر التَّقَدُّمي الملِحِّ آنذاك، انظر على سبيل التمثيل: عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1987م، 1/ 201- 211، يراه آخرون مرتَهِنًا بنية محمد علي في القضاء على الأزهر، أو على الأقل تقليص دَوْره، وتنفيذه هو ومن خَلَفَه، عن عَمْدٍ أو عن

=

وإذا استحْضَرْنا ما سَجَّلَه ناقِدُنا عَمَّا كان يَتِمُّ في هذه المدرسة من مُناقَشاتٍ يُجَرِّئُ عَليها الأَساتِذَةُ التَّلاميذَ، حَوْلَ بعْضِ المُشْكِلاتِ الفِكْرِيَّةِ العامَّةِ، بل أيضا، كما يقول، حَوْلَ كُلِّ ما يُلْقُونَه على أذْهانِهم[1]، تَأَكَّدَ لَدَينا أنَّها لَمْ تَكُنْ لِتُضْعِفَ صِلَتَه بِتُراثِ أُمَّتِه.

مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرَى، غَيْرِ ناحِيَةِ طَبيعَةِ المَوادِّ والحِوارِ التَّفاعُلِيِّ المُتَوفِّرِ فيها، يُمْكِنُ الإشارَةُ إلى كَوْنِها سَبَبًا أَلْجَأَه إلى السَّكَنِ في القاهِرَةِ؛ فاخْتَلَطَ اخْتِلاطًا أَوْسَعَ بِطُلابِ الأَزْهَرِ ومُدَرِّسِيه وعُلَمائِه، وتَعَرَّفَ عن قُرْبٍ على طَرِيقَةِ التَّدْرِيسِ المُتَّبَعَةِ في **الجامِعِ الأَزْهَرِ** وكيفَ أنها تَتَّسِمُ بالحُرِّيَّةِ؛ التي تُتِيحُ لِلطَّالِبِ أَنْ يَتَخَيَّرَ المادَّةَ التي يَدْرُسُها بل كذلك الشَّيخَ الذي يُدَرِّسُها له، وتُؤَهِّلُ هذه الدِّراسَةُ الدَّارِسَ بعْدَ ذلك إذا آنَسَ من نَفسِه قُدْرَةً أنْ يُؤدِّيَ امْتِحانَ العالَمِيَّةِ لِيَحْصُلَ على شَهادَتِها، ووَقَعَ ضيفٌ بدَورِه في أَسْرِ هذه الطَّرِيقَةِ، وبَلَغَ هُيَامُه بها أنْ يَمْتَدَّ حديثُه عنها في سِيرَتِه لِصَفَحاتٍ عَدِيدَةٍ[2]؛

=غَفْلَةٍ، مُخَطَّطاتٍ غربيةً عَدائيَّةً، انظر على سبيل التمثيل: محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، د.ت، ص17، 18، ومحمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992م، ص141- 151، ورغم أن ضيفًا لم يؤسس قراءته هذه الظاهرة على ما سمي فيما بعد "فكرة التآمر"؛ فإنه قد شكا مُرَّ الشكوى من ازدواجية مناهج التعليم في بلادنا، واصفًا نتاجَها بأنه متناقِض؛ لأننا صرنا نُفَكِّر بعقليتين، عقلية مجدِّدة وعقلية محافظة، متمنيا أن لو كان قد استُغِلَّ الأزهر في هذا التحديث لتنفي عنا تناقضنا، انظر: شوقي ضيف: البارودي رائد الشعر الحديث، دار المعارف، القاهرة، 1964م، ص38.

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 80، 81.

(2) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 82- 87. وننبه أن ناقدنا لم يَلتحِق بهذه الحلقات، لكن الدافع وراء إدراج الحديث عنها مع الحديث عن المراحل التعليمية هو اقترانُها بمُنْحَنَيات النشأة، وتركُها هذا الأثر البارز في فكره، وتصريحُه باستحسانه إياها، واستحضارُه لها طوال هذه المدة الزمنية.

تَعْرِيفًا بها وثناءً عَطِرًا عليها وعلى خِرِّيجِيهَا، ومُقارَنَةً بيْنَها وبيْن الطُّرُقِ الحَدِيثةِ المُتَّبَعَةِ في أمريكا والدُّوَلِ الأوروبِّيَّةِ؛ لِيُثْبِتَ أنَّ هذه الطَّرِيقَةَ القَدِيمَةَ أثَّرَتْ في الطُّرُقِ الحَدِيثَةِ تارَةً، وأنَّها أكْثَرُ حُرِّيَّةً منها جَمِيعًا تارَةً أُخْرَى، وأخِيرًا دَعْوَةً إلى الإفادَةِ منها في جامِعاتِنا بعد إدْخالِ بعضِ التَّعدِيلاتِ التي من شَأنِها أنْ تَجعلَها صالحةً للتَّطْبِيقِ في عَصْرِنا. وهكذا يَبدُو أنَّ ضيفًا لا يَزِيدُه ما تَقلَّبَ فيه من مَراحِلَ إلا إيمانًا بالتُّراثِ وبِكُلِّ ما يَتعلَّقُ به، وإلا قَناعَةً لا تَلبَثُ أنْ تَسُوقَه إلى الحِجَاجِ والخُصُومة عنه.

يَتَّضِحُ في كُلِّ ما مَضَى أنَّ عَقْلَ ضيفٍ، تَحْدِيدًا في هذه السِّنِّ المُبَكِّرَةِ من حَياتِه، قد صِيغَ **صِياغَةً تُراثِيَّةً مَشُوبَةً بِشَيءٍ مِن انْفِتاحٍ مَحْدُودٍ**، وهو شَيءٌ تُؤكِّدُه لا فحسب تلك المَراحِلُ التَّعْلِيمِيَّةُ التي تَقَلَّبَ فيها بِوَصْفِه مُتَلَقِّيًا، بَلْ تُؤكِّدُه إلى جانِبِها آثارُها وثِمارُها، وأَقْصِدُ مُحاولاتِه «**التَّجْرِيبِيَّةَ**»- إنْ صحَّ هذا التَّعْبِيرُ[1]- لِلتَّصْنِيفِ أثْناءَها؛ فقدْ أَقْبَلَ على هذه العَمَلِيَّةِ مَرَّتَيْنِ، كَتَبَ في الأُولَى مُلَخَّصًا لِمَتْنِ "قَطْرِ النَّدَى وبَلِّ الصَّدَى" لابن هشام (ت: 761هـ)

(1) أكبر الظن أن ما قام به ضيف في هاتين المحاولتين يشبه ما يقوم به الطلاب من صنع مُلَخَّصاتٍ للاستذكار، يَدُلُّ على هذا وصفُه لطريقته في كتابتهما، وكذلك كونُ كل واحدة منهما مرتبطةً بمرحلتها التعليمية وأهدافِها؛ فالأولى كُتِبَتْ في السنة التي كان يَدْرُس فيها كتابَ "القَطْرِ" بالمعهد الديني، والثانية عالجتْ الأجزاءَ المقرَّرة عليه في التفسير في العام الدراسي الأخير بالتجهيزية، ولعل في هذا ما يخفف من الأثر الناجم عن عدم احتفاظه بهما، لكنَّ الملاحظة الأهَمَّ هي أن هذا النهج في الكتابة سيظل مصاحبًا له بعد ذلك؛ وأعني الحرصَ على تلخيص الأفكار الرئيسة فيما يعرض له من مؤلَّفات أو نصوصٍ شعرية، وهو أمر سنلمح إليه أثناء حديثنا في الفصل الرابع عن شرحه الشعر شرحًا لغويًّا، واحتفائه أحيانا بما قال لا كيف قال.

جامِعًا بيْنه وبيْنَ شَرْحِه[1]، وَوَضَعَ في الأُخْرَى تَفْسِيرًا مُقْتَضَبًا لِبَعْضِ أجْزاءِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، مُعْتَمِدًا على تَفْسِيرَي: الزَّمَخْشَرِيِّ (ت: 538هـ) والبَيْضاوِيِّ (ت: 685هـ)[2]، وإذا كانَ ناقِدُنا لم يَحْتَفِظْ بأيٍّ من هاتين الـمُحاولَتَين؛ فإنَّ وَصْفَه لهما يَكْفِي لِلدَّلالَةِ على أنَّ التُّراثَ قد غدا له الفَلَكَ الذي يَدُورُ فيه وأيضا القَلَمَ الذي يَكْتُبُ به، ويُوحِي من جانِبٍ آخَرَ أنَّ «إناءً» كادَ يَمْتَلِئُ وحَرِيٌّ أنْ يَنْضَحَ بِما فيه.

أَخِيرًا؛ تَحِيدُ به طَرِيقُه التَّعْلِيمِيَّةُ التي خَطَّ مَنازِلَها لِنَفْسِه تارَةً أُخْرَى، فلَمْ يَدْخُلْ كُلِّيَّةَ دارِ العُلُومِ التي مِنْ أَجْلِها الْتَحَقَ بالـمَدْرَسَةِ التَّجْهِيزِيَّةِ؛ إذْ زُفَّتْ إليه بُشْرَى، قُبَيْلَ تَخَرُّجِه فيها، عن فَتْحِ **كُلِّيَّةِ الآدابِ** أبْوابَ قِسْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ أمامَ طائِفَةٍ منهم عِنْدَ انْتِهائِهم من الدِّراسَةِ، فَقَرَّرَ أن يَكونَ واحِدًا من الـمَقْبُولِين بِصُفُوفِها في عامِه القادِمِ، والذي يَعْنِينا هنا، بِطَبِيعةِ الـمَقامِ، إنَّما هو تَقْرِيرُ أنَّ هذه الخُطْوَةَ لَمْ تَأْتِ على رَصِيدِ عَلاقَتِه القَدِيمَةِ بالتُّراثِ، تلك التي ظَلَّ سِنِينَ يُرْسِي دَعائِمَها، وهو شَيْءٌ بِوُسْعِنا البَرْهَنَةُ عليه عَنْ طَرِيقِ الإِشارَةِ إلى الصُّوَرِ التي خَلَّفها مَنْظُورُ ضيفٍ في سِيرَتِه عن أَساتِذَةِ الكُلِّيَّةِ، وكيفَ أنَّ انْطِباعاتِه الَّتِي بَثَّها إزاءَ أَغْلَبِهِم تَكادُ تَتَواطَأُ على إِنْتاجِ دَلالَةٍ واحِدَةٍ، مُؤَدَّاها أَنَّهُم حَرِيصُون على الجَمْعِ بيْن القَدِيمِ والجَدِيدِ أو بيْن الدِّراسَاتِ القَدِيمَةِ والدِّراساتِ الحَدِيثَةِ، فبحسب نُصُوصِها، كان إبراهيم مصطفى (ت: 1962م) يَجْمَعُ بين الدِّراسَةِ التَّارِيخِيَّةِ لِلنَّحْوِ والنَّفاذِ إلى آراءَ جَدِيدَةٍ، وأمين

---

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، *1/ 58، 59*.

(2) انظر: شوقي ضيف: معي، *1/ 90، 91*.

الخولي (ت: 1966م) يَجْمَعُ بين القَدِيمِ والجَدِيدِ، وأحمد أمين في طَلِيعَةِ مَنْ جَمَعُوا بين الثَّقافَتَيْن، ومصطفى عبد الرازق (ت: 1947م) مُحافِظًا في الوَقْتِ الذي كان أيضا مُجَدِّدًا[1]، أما أُستاذُه طه حسين، عَمِيدُ الكُلِّيَّةِ آنَذاك، فقدْ كان يُدرِّسُ لهم في العامِ الدِّراسِيِّ الأَخِيرِ مُقدِّمةَ كِتابِ "تاريخِ الأدَبِ الإنكِليزِي" لِلنَّاقِدِ الفَرَنْسِيِّ إيبوليت تين Hippolyte Taine (ت: 1893م)، كما كان يُدرِّسُ لهم بجِوارِه كِتابَي: نَقْدِ النَّثْرِ المَنْسوبِ لقُدامَةَ بنِ جَعْفَرٍ (ت: 337هـ) والمُوازَنَةِ بينَ أبي تَمَّامٍ والبُحْتُرِيِّ للآمِدِيِّ (ت: 371هـ)[2]؛ الأمرُ الذي رُبَّما يُسْهِم في الكَشْفِ عن مَنْظُورٍ «فِينومينُولُوجِيٍّ» تَتَبَنَّاه الذَّاتُ إزاءَ الشُّخوص أثناءَ بنائِها عَلاقَاتِها، إذْ لا تُنْتِجُ لهم مِرآتُها إلا صورَةً موحَّدَةً تَتَراءى فيها الوَحَداتُ كُلُّها مَرافِئَ لِلتُّراثِ ويَنابيعِه، مَهْمَا كانت دَرَجَةُ الاقْتِرابِ الخارِجِيِّ مِنْ هذا الوَصْفِ.

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 104، 105، 107، 113، بترتيب الصفحات؛ وهي دلالة ربما تعكس الفهمَ «المَطَّاطِيَّ»، إن صح هذا الوصف، عن التقليد والتجديد كليهما، كما سيتبين ذلك أثناء الفصل القادم الخاص باستشراف تصوره عن وحدة التراث.

(2) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/113، 114، وانظر أيضًا له: شوقي ضيف: تذكارية طه حسين (ضمن كتاب: في ذكرى طه حسين؛ الكتاب التذكاري الأول؛ بمناسبة المؤتمر العلمي في الذكرى الخامسة والعشرين لرحيله)، كلية الآداب بجامعة القاهرة، 1998م، 1/ 26.

- 2/1 -

المحطة النقدية الأولى

لقدْ آمَنَ إذن شوقي ضيف بالتُّراثِ إيمانًا عَميقًا، في مَرْحَلَةٍ مُبكِّرَةٍ من مَسيرَتِه النَّقْدِيَّةِ، وهو إيمان لَمْ يَزَلْ يَتَنامَى كُلَّما انْتَقَلَ من دورَةٍ إلى أُخْرَى، حتَّى لَكَأَنَّ حَيَاتَه في هذا الجانبِ عِقْدٌ تَواطَأَتْ حَلَقاتُه على أن يَكونَ التُّراثُ مَعْدِنَ نَظْمِها، لكنَّ تَعرُّفَه العَمِيقَ على مَوروثِ أسْلافِنا، مع هذا كُلِّه، لاسيَّما فيما يَخُصُّ مَيدانَ النَّقْدِ الأدَبِيِّ - لم يَبْدَأْ إلا بعْدَ انْتِهائِه من أَعْوامِ الدِّراسَةِ الجامعيَّةِ، وتَحْدِيدًا منذُ قِيامِه بِوَظِيفَةِ **مُحَرِّرٍ في مَجْمَعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ** (1935م)، بتَرْشِيحٍ من الشَّيخِ أحمد الإسكَنْدَرِيِّ (ت: 1938م) أُسْتاذِه في كُلِّيَّةِ الآدابِ، ذلك أنَّ الـمَجْمَعَ كانت به مَكْتَبَةٌ غَنِيَّةٌ بالكُتُبِ، فأخَذَ ضيفٌ يَنْهَلُ مِنْها، وارْتَأَى ساعَتَها أن يَضُمَّ إلى جانِبِ ما كان يَقْرَأُ فيه من كُتُبِ النَّقْدِ الغَرْبِيِّ كُتُبَ النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ، بَادِئًا بالجاحِظِ ومُنْتَهِيًا بابنِ الأثِيرِ (ت: 637هـ)؛ مُدوِّنًا مُلاحَظاتِها في جُذاذاتٍ وَرَقِيَّةٍ، مَكَّنَتْه بعدَ ذلك، فِيما يَقُولُ، أن يُؤَلِّفَ كِتابًا عن النَّقدِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ وأن يَكْتُبَ في الـمِجَلاتِ الأدَبِيَّةِ بَعْضَ مَقالاتٍ عن نُقَّادِ العَرَبِ الـمُهِمِّينَ[1].

في هذه الـمَرْحَلَةِ بعدَ أن تَمَّ تَعْيِينُه مُعِيدًا (1936م) يَخْطُو نَاقِدُنا خُطْوَةً تُوفِّرُ علينا عَناءً كَبيرًا في سَبيلِ تَوضِيحِ ما بَينَه وبينَ التُّراثِ من عَلاقَاتٍ آسِرَةٍ؛ نَظرًا لِدَلالاتِها الجَلِيَّةِ الـمُعَضِّدَةِ للصُّورةِ التي نَرْسُمُها له الآن، ونَقْصِدُ تَفْكِيرَه في اخْتِيارِ مَوضُوعٍ تُراثِيٍّ خَالِصٍ، بِغَرَضِ الحُصولِ على دَرَجَةِ الـماجِستيرِ، إذْ

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 121.

تَمثَّلَ المَوضُوعُ في تَحقِيقِ كِتابٍ(1) من كُتُبِ النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ، وإذا استَحْضَرْنا هنا ما كان يَتَّصِفُ به هذا الحَقْلُ حِينَئِذٍ من جِدَّةٍ، سواءٌ في البِيئةِ الثَّقافِيَّةِ النَّقدِيَّةِ العامَّةِ أم في البِيئةِ الجَامِعِيَّةِ الخَاصَّةِ(2)، كنَّا أكْثَرَ مَقْدِرَةً على الكَشْفِ عن المَدَى الواسِعِ الذي بَلَغَه هُيامُه بالتُّراثِ، من حيثُ ارْتِيادِه آفاقًا مُغَيَّبَةً لا تَنْفَكُّ عَادةً عن عَراقِيلَ صارِفَةٍ، وحقًّا إنَّ هذا المَشْرُوعَ ظلَّ مُجَرَّدَ

(1) لم نفلح، بالاعتماد على نتاج ضيف المكتوب، في محاولة التنقيب عن اسم هذا الكتاب، ومن الطبيعي أن يراوِدَنا سؤالٌ عن مَسلكه في عدم التصريح به، ونظن ظنًّا، بالاحتكام إلى أخلاقياته العلمية المطَّرِدَة، أن ذلك يرجع إلى أحد السببين الآتيين أو كليهما؛ الأول: أن غيره من الباحثين قد أنجز تحقيقه فيما بعد، والآخر: أنه رآه قليل الأهمية؛ فتجنب من ثم الحديث عنه؛ للارتفاع بنفسه فوق مستوى صبيانية الاختيار، ولتحبيذه الابتعاد عن مواطن الخصومة أو ما يبعثها، وهو أمر معهود منه، حتى إنه كان في مناقشاته بعض الآراء الخاطئة، بحسبه، يتغافل تمامًا اسم من يتبناها، مكتفيا بقوله الأثير: "زعم بعض المعاصرين"، ولعل الشذوذ الوحيد المناهِض لهذا هو ما صنعه في مقالاته التي كانت تناقش قضايا الساعة في الأدب والنقد، وهي على أية حال مقالات كان لها النصيب الأوْفى من بقائها في بطون المجلات على هيئتها، دون نشرها في كُتب حوتْ قريناتها.

(2) يكفي هنا تذكر أن كتب أحمد زكي باشا (ت: 1934م) كانت من أوائل الكتب التي نشرت مرقونا على غلافها كلمة "تحقيق"، متأثرا في ذلك بصنيع بعض المستشرقين، من مثل كتابه: "في الأدب الصغير" لابن المقفع المنشور عام 1911م، للمزيد حول تاريخ النشأة الحديثة لفن التحقيق؛ ينظر: محمود محمد الطناحي: مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، دار الخانجي، القاهرة، 1984م، ص31- 121، ورمضان عبد التواب: مناهج تحقيق التراث، الخانجي، القاهرة، 1986، ص58، 59، ويكفي ذكر أن الجامعات المصرية لم تشهد في هذا الميدان، إلى تاريخ حصوله على درجة الماجستير (1939م)، لا إلى سنة تفكيره في تحقيق ذلك الكتاب النقدي القديم (1936م)- سوى رسالة ماجستير وحيدة لطه الحاجري (ت: 1994م) عن كتاب البخلاء للجاحظ نوقشت في عام 1939م، وصدر تحقيقه للكتاب عام 1948م، انظر: طه الحاجري: تصدير [كتاب البخلاء] (منشور بين يدي تحقيقه للكتاب)، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1990م، ص9، ومحمد أبو المجد: بيليوجرافيا الرسائل العلمية، ص480 (من الكشافات)، وما تحيل عليه داخل البيليوجرافيا.

فِكْرةٍ، بعْدَ أن حوَّلَ راحِلَتَه لِمَوضُوعٍ جَديدٍ؛ بسَبَبِ انْتِظارِه مُصَوَّراتِ الـمَخْطُوطاتِ من مَكْتَبَاتِ إسْتانْبُولَ دون جَدْوَى، لكنَّ الفِكْرَةَ غيرَ الـمُرْدَفَةِ بتَنْشيطِها، على أَسْوَإ تَقْديرٍ، لا يُمكنُ أن تَكونَ شَيْئًا إلا خُطْوةً؛ تُجسِّدُ بِعُمقٍ تَشبُّعَ صاحِبِها بانْتِمائِه لِما خلَّفَه الأسْلافُ من جِهةٍ، وتُدلِّلُ على اسْتِحالتِه عَمَلا مَلْمُوسًا من جِهَةٍ أُخْرَى.

لمْ تُبْعِدْ راحِلَتُه الـمَذْهَبَ، فقد أَناخَتْ به تارَةً أُخْرَى حيثُ التُّراثُ، وكان الـمَوْضُوعُ الجَدِيدُ الذي عَزَمَ على اخْتِيارِه هو: **النَّقْدَ الأدَبِيَّ في كِتابِ الأغانِي**، لأبِي الفَرَجِ الأصْفَهانِيِّ (ت: 356هـ)، وكأنَّها لم تَكنْ وقتَذاك تُبْصِرُ سِوى الجُذُورِ الضَّارِبَةِ في الأعْماقِ؛ تَطَلُّعًا من جانبٍ إلى اسْتِواءِ العُودِ واكْتِمالِ النُّضْجِ بوَساطَةِ تَمْتِينِ الصِّلَةِ، ومن جانِبٍ آخَرَ إلى خدمتها وبَثِّ الرُّوحِ الـمُعاصِرَةِ فيها؛ ثِمارَ غَرْسٍ ورَجْعَ صَدًى طالَما اعْتَمَلَ داخِلَه منذُ الصِّبا، ولِذا كان يُمكِنُ القَولُ: إنَّ ضيفًا قد وَضَعَ بإنْجازِه تلك الرِّسالةَ اللَّبِنَةَ الأُولَى في مَشْرُوعِه النَّقْدِيِّ الـمُسْتَرفِدِ التُّراثِ، كما أَتاحَ لها صَلاحِيَّاتٍ كافِيَةً في تَرْكِ بَصَماتِها الواضِحَةِ على مُكَوِّناتِه ومُفْرَداتِه الـمُخْتَلِفَةِ، ورُبَّما بَدا أَمْرُ كونِها لَبِنَةً تُراثِيَّةً أولَى؛ من حيثُ مَضمُونِها وتاريخِ إنْتاجِهَا، غَنِيًّا عن البَيانِ والتَّوضِيحِ، وإِذنْ فَمِن الأَجْدَرِ أن نَفْرَغَ الآن إلى الزَّعْمِ الآخَرِ، وقد ارْتَأَينا أن ندَلِّلَ عليه في الصَّفَحاتِ الآتِيَةِ بِوَساطَةِ الحديث عن جانِبَين مُهِمَّين؛ هُما: المادَّةُ الـمَعْرِفِيَّةُ، والـمُلاحَظاتُ النَّقْدِيَّةُ.

- 1 /2 /1 -

المادَّةُ المَعرفيَّةُ:

باخْتِيارِ ضيفٍ هذا المَوضُوعَ وخَوْضِه غِمارَ البَحْثِ فيه لم يَظْفَرْ فَحسْبُ بنَتائِجَ عِلْمِيَّةٍ تَخُصُّ النَّقْدَ الأدَبِيَّ القَدِيمَ، لكنه ظَفِرَ كذلك فيما يَرى، ولعلَّ هذا أَهَمُّ، بِقِراءةِ أَكْبَرِ مَصْدَرٍ لِلشِّعْرِ العَرَبِيِّ وشُعَرائِه في عُصُورِه الأولَى، وهو لا يَزالُ في مُقْتَبَلِ مَسيرَتِه البَحْثِيَّةِ، فَأَتَاحتْ له سَيطَرَتُه على تلك المادَّةِ التَّارِيخِيَّةِ والنَّقْدِيَّةِ فيما بعدُ "أن يكتب في الشعر العربي وشعرائه مؤرخا تارة وناقدا تارة أخرى"(1)، بل أيضا حَقَّقَتْ له إلى جانِبِ هذا رَصِيدًا كَبِيرًا من حُرِّيَّةِ الحَرَكَةِ في مُمارَساتِه النَّقْدِيَّةِ، فلَمْ يَرْتَهِنْ اسْمُه كمِثْلِ كَثِيرٍ من الباحِثِين بِشاعرٍ ما أو بدِيوانِه، ولم يَنْشَغِلْ بِعَصْرٍ بعَينِه أو بِبِيئَةٍ جُغْرافِيَّةٍ مَحدُودَةٍ، وإِنَّمَا انْطَلَقَ في أَرْيَحِيَّةٍ عَرِيضَةٍ يَتَنَاولُ جُزْئِيَّاتٍ مُتَنَاثِرَةً بالدِّراسَةِ والتَّحْلِيلِ، ربَّما كانت الصِّلَةُ الوَحِيدةُ المُتَحقِّقَةُ بَينَها هِي أَنَّها مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَ ما يُسَمَّى لَدَى جماعة القُرَّاءِ «الأدَبَ العَرَبِيَّ».

لِلاقْتِرابِ أكْثَرَ من حُضُورِ مادَّةِ كِتابِ "الأغانِي"، أو لِنَقُلْ موضوعَ رِسالَةِ الماجِستِيرِ، في نِتاجِه اللاحِقِ، يُمكنُ التَّوَقُّفُ أَوَّلا عِندَ بَعْضِ المَقالاتِ التي ارْتَكَزَتْ على مَوادَّ مَعْرِفِيَّةٍ ذاتِ صِلَةٍ، من مِثْلِ مَقالَي(2): "أبو

(1) شوقي ضيف: معي، 1/ 126.

(2) نشر ضيف المقال الأول في مجلة الثقافة، عدد 18 يناير 1944م، ص17- 19، ونشر الآخر أيضا في المجلة نفسها، عدد 8 فبراير 1944م، ثم أعاد نشر المقالين مُلْتَحِمَين، مع إجراء بعض تغييرات طفيفة فيهما، ضمن كتابه: في الأدب والنقد، دار المعارف، القاهرة، 1999م، ص128- 136، تحت عنوان: "النقد في كتاب الأغاني".

الفَرَجِ النَّاقدُ"، و"الرِّوايَة الأدَبيَّة في كِتابِ الأغانِي"، وهو في الأوَّلِ يَسْتَعْرِضُ بَعْضَ الـمُلاحَظاتِ النَّقْدِيَّةِ التي بَثَّها أبو الفَرَجِ، سَواءٌ أكانت له هوَ أم كانت لِغيْرِه، مُشيرًا إلى أهَمِّ الـمَقاييسِ التي اعْتَمَدَها في تَقْييمِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ، وفي الآخَرِ يَتَناولُ خَصائِصَ رِوايةِ الخَبَرِ في كِتابِ الأغانِي، وكيفَ أنَّه كان يُساقُ دائمًا بالسَّنَدِ على طَرِيقةِ الـمُحَدِّثِينَ، وكيفَ حاوَلَ أبو الفَرَجِ أن يُقِيمَ عليه مَراصِدَ مُخْتَلِفَةً لِيَكْشِفَ الصَّحِيحَ من الزَّائِفِ، والـمَقالانِ بالوَصْفِ الفائتِ لهما لا يَعْدُوانِ كَوْنَهما تَلْخِيصًا لِلنَّتائجِ التي خَلَصَ إليها في رِسالَةِ الـماجِسْتِيرِ. وبينما تَتَّضِحُ العَلاقَةُ هُنا بين الـمَقالَيْن والرِّسالة، فإنها تَحْتاجُ في مَقالاتٍ أُخرَى إلى فَضْلِ تَأمُّلٍ لاكْتِشافِها، ونَسُوقُ لها مَثَلا مَقالَ: "الفُكاهةِ في الأَدَبِ العَرَبِي"[1]؛ إذ يَقُومُ على ذِكْرِ قِصَصِ جَماعَةٍ من الَّذِينَ اشْتُهِرُوا بالإضْحاكِ والفُكاهَةِ، أمثالَ: أَشْعَبَ، وأبي دُلامَةَ نَدِيمِ السَّفَّاحِ والـمَنْصُورِ والـمَهْدِيِّ، وأبي العَيْناءِ نَدِيمِ الـمُتَوكِّلِ، وابن الجَصَّاصِ نديمِ وُزَراءِ الخَلِيفَةِ الـمُقْتَدِرِ؛ وبَحْثٌ عن هذه الأَسْمَاءِ في الـمَصادِرِ القَدِيمَةِ سَتُشِيرُ نَتائِجُه الأوَّلِيَّةُ إلى كِتابِ "الأغانِي" بالأصالةِ، إذْ يكادُ يكونُ في بعضِ الحَالاتِ مَصْدَرًا وَحِيدًا لِبَعْضِ الرِّواياتِ الـمَعْنِيَّةِ بهم.

كُتُبُ النَّاقِدِ هي الأُخْرَى تَنْهَضُ نَماذِجَ لِبَيانِ هذه الـمَسْأَلَةِ، بَلْ رُبَّمَا تَكونُ الظَّاهِرَةُ أَكْثَرَ وُضُوحًا، خَاصَّةً عندما نَرَى كِتابًا كامِلا لا يَكادُ يَحِيدُ عن الـمادَّةِ الـمَبْثُوثَةِ في كِتابِ الأَغانِي، بِحَيْثُ يُقارِبُ أنْ يَكُونَ إعادَةَ تَرْتِيبٍ لها،

(1) انظر: شوقي ضيف: الفكاهة في الأدب العربي [الجزء الأول] (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 19 يونيه 1950م، ص9- 11.

بالـمَعْنَى الذي تَتَمازَجُ به وَظَائِفُه أحيانًا مع وَظائِفِ الفَهارِسِ في «ضَمّ النَّظائِرِ»، ذلك هو كِتابُ: "الشِّعْرِ الغِنَائِيِّ في الأمْصارِ الإسْلامِيَّةِ" (1949م)، الذي عُنِيَ الجُزْءُ الأوَّلُ منه بالحَدِيثِ عن هذا الفَنِّ في الـمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، في حينِ عُنِيَ الجُزْءُ الآخَرُ بالحَدِيثِ عنه في مَكَّةَ، وقد تَمَّ جَمْعُهما بَعْدَ ذلك في كِتابٍ واحدٍ تَحْتَ عُنْوانِ: "الشِّعْرِ والغِنَاءِ في الـمَدِينَةِ ومَكَّةَ لعَصْرِ بَنِي أُمَيَّةَ" (1967م)، ومن الـمُهِمِّ في سِياقِ الكَشْفِ عن أَثَرِ كِتابِ الأَغانِي أن نَتَأَمَّلَ التَّغَيُّرَ الذي لَحِقَ العُنْوانَ، لِنَلْحَظَ أنَّ الـمَشْرُوعَ لم تَكُن صُورَتُه الـمُرْتَسَمَةُ في ذِهْنِ ناقِدِنا كما هي صُورَتُه الحَالِيَّةُ الـمُنْجَزَةُ؛ فالعُنوانُ في هَيئَتِه الأُولى يَشِفُّ عن نِيَّتِه في اسْتِكْمالِ البَحْثِ مُقَسِّمًا إيَّاه على بِيئاتِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ الـمُخْتَلِفَةِ، ومُقَدِّمَةُ الجُزْءِ الأوَّلِ تُؤَكِّدُ هذا حينَ قال فيها: "..إننا في حاجة إلى من يدرس الصورة الغنائية من العصر الأموي إلى العصر الأندلسي.. وقد فكرت طويلا في المنهج الذي أدرس به هذه الصورة وخاصة أنها مرت بأحقاب متطاولة ورسمت خطوطها وألوانها أقاليم مختلفة. ولم ألبث أن رأيت أن من الواجب أن أخضع للتسلسل الزمني فأدرس أولا إقليم الحجاز الذي عني أثناء العصر الأموي.."[(1)]، ما الذي نُرِيدُ أن نَخْلُصَ إليه من تَسْجِيلِ هذه الـمُلاحَظَةِ؟ سيَتَّضِحُ الأَمْرُ إذا تَساءلْنا عن السَّبَبِ في نُكُوصِه عن عَزْمِه، قد تَكُونُ الإجابَةُ عائدة إلى أنَّه قد أَفْرَغَ شِحْنَتَه فيما كَتَبَه بعدُ تحت عُنوانِ: "الموسيقَى والصَّنْعَةُ"، إذ أَلَمَّ بِفَنِّ الغِنَاءِ وأثَرِه في الشِّعرِ التَّقلِيدِيِّ والغِنائِيِّ في إِقْلِيمَي الشَّامِ والعِراقِ

(1) انظر: شوقي ضيف: الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية؛ في المدينة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1949م، صفحة: (د) من المقدمة.

أثناءَ العَصْرِ الأُمَوِيِّ والعبَّاسِيِّ"(1)، وقد تَكونُ الإجابَةُ، ولَعَلَّها أكْثَرُ استِيعابًا وقَبُولا في آنٍ، عائِدَةً إلى عَدَمِ تَوَفُّرِ مَصادِرَ لاحِقَةٍ لِكِتابِ الأغانِي تُمَكِّنُه من مُتابَعَةِ المَسِيرَةِ على نَحْوٍ مُستَوعِبٍ، وهو الشَّيءُ الذي يُمكنُ أن نُصادِفَ دَلائِلَه، في غَيرِ هذا الموطِنِ، حينَ نَقْرَأُ قولَ ناقِدِنا عن الغِناءِ في إقْلِيمِ العِراقِ بَعْدَ القَرْنِ الخَامِسِ الهجرِيِّ: "..ونظن ظنا أن هذا الازدهار ظل له طويلا، وغاية ما في الأمر أنه لم يتح له عالم يؤلف فيه على نحو ما ألف أبو الفرج الأصفهاني كتاب الأغاني.."(2).

كِتابُ "التَّطوُّرِ والتَّجدِيدِ في الشِّعرِ الأُمَوِيِّ" (1952م) نَمُوذَجٌ ثانٍ على هَيمَنَةِ مادَّةِ الأغانِي، ففيه أبْحاثٌ واسِعَةٌ عن الشُّعرَاءِ الأُمَوِيِّينَ، كان كِتابُ الأغانِي المَصْدَرَ الرَّئيسَ لأشْعارِهم بِجِوارِ دَواوِينِهم، وكَثيرًا ما كان يَسْتَمِعُ إليه وَحْدَه حينَ يَعْجَزُ الدِّيوانُ عن الإفْصاحِ، فَضْلا عن اعْتِمادِه على أَخْبارِه في رَسْمِ شَخْصِيَّاتِهم، على سبيل التَّمْثِيلِ، يُمْكنُ التَّوقُّفُ عند دِراستِه لِلْكُمَيْتِ (ت: 126هـ)(3)، حيثُ المُزاوَجَةُ بينَ الاعتِمادِ على دِيوانِ الشَّاعرِ وكِتابِ الأغانِي أثْناءَ الحَدِيثِ عن هاشِمِيَّاتِه، خَاصَّةً أثناءَ تَوضِيحِه المُلابَسَاتِ

(1) انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط4، ص41- 90؛ وهي صفحات الفصل الثاني منه تحت هذا العنوان، وإن كان قد تحدَّثَ عن الموضوع نفسه قبل هذا التاريخ في الطبعة الأولى للكتاب، فقد كان الحديثُ هنا أتمَّ وأوْفَى؛ انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1943م، ص23- 58.

(2) انظر: شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1952م، ص232- 255.

(3) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 5- عصر الدول والإمارات: الجزيرة العربية- العراق- إيران، دار المعارف، القاهرة، 1980م، ص257.

السِّياسيَّةَ والدِّينِيَّةَ المُحيطَةَ بشِعرِه، والتي كان لَها كَبيرُ الأثرِ في صِياغَتِه، وتَتَزايَدُ هذه العَمَلِيَّةُ أثناءَ الحديثِ عن غَزَلِ عُمَرَ بن أبي رَبيعَةَ (ت: 93هـ) ومُناخِ المَدينَةِ الاجْتِماعِيِّ الذي أنْتَجَه[1]، وخَمْرِيَّاتِ الوَليدِ بنِ يَزيدَ، مع مُراعَاةِ أنَّ هذا الأخِيرَ دِيوانُه مَفْقُودٌ، ولم يَبْقَ منه إلا مَقْطُوعاتٌ احْتَفَظَ بها كِتابُ الأغانِي وغيرُه من كُتُبِ الأَدَب[2]. ونُشيرُ إلى نَمُوذجٍ ثالِثٍ هو كِتابُ "الحُبِّ العُذْريِّ عند العَرَبِ" (1999م)[3]؛ إذ مَثَّلَتِ الرِّواياتُ التاريخِيَّةُ المَبْثُوثَةُ في كِتابِ الأغَانِي المادَّةَ الخامَ للدِّراسةِ، ليقومَ نَاقِدُنا بتَرْتِيبِها وجَمْعِ شَتَاتِها ثم صَبِّها في «القالَبِ القَصَصِيِّ».

بتَأمُّلِ تَواريخِ النَّشْرِ الأُولَى لِلْمَقالاتِ والكُتُبِ المَذْكُورَةِ آنِفًا، يَظْهَرُ أَنَّ أصْداءَ كِتابِ "الأغانِي"، فيما يَخُصُّ المادَّةَ المَعْرِفِيَّةَ، ظَلَّتْ تُدَوِّي في أَرْجائِها على مَرِّ السِّنِين، لكنَّها على ما يَبْدُو كانت أكْثَرَ وُضُوحًا فيما قَرَّبه الزَّمانُ من رِسالَةِ الماجِسْتِير، وفي هذا السِّياقِ تَصْعَدُ على سَطْحِ نِتاجِه الرِّسالةُ التي حَصَلَ بها على دَرَجَةِ الدُّكْتُوراه (1942م= سنة مناقشتها، 1943م= سنة طباعتها)، ومَوضوعُها: **الفَنُّ ومَذاهِبُه في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ**، فَبَعْدَ أن عَرَضَ عليه طه حسين مَوضوعًا هو: التَّكَلُّفُ الشَّدِيدُ في الشِّعْرِ العَبَّاسِيِّ في القَرْنِ الرَّابعِ الهِجْرِي، رأى ناقدُنا إِحْداثَ بَعْضِ التَّعْدِيلاتِ فيه؛ لِيكونَ دِراسَةً لِفَنِّ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ مُنْذُ ظُهورِه إلى العَصْرِ الحَدِيثِ، بناءً على مُلاحَظَتِه المِحْوَرِيَّةِ أنَّ

(1) انظر: شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط1، 186- 209.

(2) انظر: شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط1، 255- 275.

(3) انظر: شوقي ضيف: الحب العذري عند العرب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999م، ص23، وصفحات عديدة أخرى.

الشِّعْرَ العَرَبِيَّ مَرَّ بثَلاثَةِ مَذاهِبَ رَئيسَةٍ؛ هي: الصَّنْعَةُ، والتَّصْنيعُ، والتَّصنُّعُ"[1]، إنَّ هذا التَّعْديلَ الذي أَلْحَقَه بِخُطَّةِ البَحْثِ المُقْتَرَحَةِ مُؤكَّدٌ سَيُثِيرُ لدى القارِئِ المُتَأمِّلِ سُؤالاتٍ تَتَّجِه صَوْبَ طَبيعَتِه وعِلِّيَّتِه وجَدْواه، وهي السُّؤَالاتُ التي شَكَّلَتْ رِحْلَةَ الإجابَةُ عنها رِحْلَةً لِلْكَشْفِ عن العَلاقَةِ بين رِسالَتَي الماجِستيرِ والدُّكْتُوراه.

لنَسْتَحْضِرْ أوَّلا مَفْهُومَ مَذْهَبِ «التَّصنُّعِ»، كما يَراه النَّاقِدُ في رِسالَتِه، ولعلَّ من أَقْرَبِ النُّصوصِ التي تَقومُ بِمَنْحِنا طِلْبَتَنَا هو قَولَه: "لا يمضي من يدرس الشعر العربي بعد القرن الثالث حتى يحس بظاهرة واضحة تمتد في هذا الشعر وتسيطر عليه وهي ظاهرة التصنع والتكلف الشديد"[2]. إن هذا النَصَّ، ووراءَه نُصُوصٌ كَثِيرةٌ، يُؤكِّدُ أَمْرًا مُهِمًّا جِدًّا، وهو أن التَّصنُّعَ لدى ضيفٍ يَترادَفُ والتَّكَلُّفَ الشَّديدَ، وأنَّه قد كان سِمَةً غالِبَةً من سِماتِ القَرْنِ الرَّابعِ الهجْرِيِّ، لقد أَحْيا هذا النَّصُّ إذنْ تارَةً أُخرى عُنْوانَ طه حسين نَفْسَه: "التَّكلفَ الشَّديدَ في الشِّعرِ العبَّاسِي في القرنِ الرَّابعِ الهجرِي"، وبِكَلِماتٍ شارِحَةٍ: إن تَعديلات الطَّالِبِ التي أَجْرَاهَا ظَلَّتْ مُبْتَعِدَةً عن جَوْهَرِ المَوضُوعِ المُقْتَرَحِ من أُستاذِه، على نَحْوٍ يَصِحُّ به وَصْفُها في نِهايةِ المَطافِ بأنَّها تَوسيعٌ

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1/ 126، 127.

(2) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط1، ص115، وهذا النص بحروفه موجودٌ في الطبعة الرابعة للكتاب، ص277، التي يجيء في مقدمتها أيضا تعريفٌ مختصرٌ لمذهب التصنع بأنه: "التطرف في التكلف وما ينطوي في ذلك من تعمل وتعقيد"، انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط4، ص9، وفي كتاب آخر يقول: "..فمذهب مثل التصنع أو التكلف الشديد الذي ساد في الشعر العربي منذ القرن الرابع الهجري.."، انظر: شوقي ضيف: البحث الأدبي، ص54،

لِنِطاقِ البَحْثِ ومِساحَتِه ؛ لِيشْملَ المَرْحَلَةَ الزَّمَنِيَّةَ السَّابِقَةَ واللاحِقَةَ ، وبِمَعْنَى يَجْعَلُنا أَكْثَرَ اسْتِعْدادًا لِرَفْضِ أنْ تكون مُلاحَظَةُ تَطَوُّرِ المَذاهِبِ وتَتابُعِها مُبرِّرا وَحيدًا مُقْنِعًا لإجْرائِها ، لأنَّها لَيْسَتْ شَيْئًا جَديدًا تَمَامَ الجِدَّةِ[1] ، وإنَّما الشَّأْنُ ،

---

(1) يُلِحُّ جابرُ عصفور ؛ في مواطن كثيرة من مقالاته ، على أن الفَرْضِيَّة التي انطلق منها ضيف في بحثه مذاهب الفن الشعري المتلاحقة ، كانت بذورها كامِنة في نتاج أستاذه طه حسين ، فالقارئ ، في رأيه ، لن يعجز عن العثور على منظور تطوُّري مُضْمَر ؛ يوصِّف تعاقُبَ الشعر كما الكائنات ، من البسيط إلى المركب ، عابرة درجات سلم التطور الذي يصل إلي غايته قبل أن ينحدر إلى القاع ، والشأن في رعاية ضيف هذه البذرة وتجاوزه ثنائية الطبع والصنعة ، انظر : جابر عصفور : أستاذي شوقي ضيف (مقال) ، البيان ، عدد *21* يوليو *2002*م ، وشوقي ضيف وأستاذية الجامعة (مقال) ، الأهرام ، القاهرة ، عدد *7* يوليو *2003*م ، وشوقي ضيف المعنى والقيمة (مقال) ، الأهرام ، القاهرة ، عدد *21* مارس *2005*م ، وحول هذا المنظور ذاته يمكن مراجعة ما كتبه عن تواريخ النقد العربي ذات المنحى التطوري ، وإشاراته أثناء ذلك إلى شوقي ضيف في : "البلاغة تطور وتاريخ" ، انظر : جابر عصفور : قراءة التراث النقدي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) ، القاهرة ، *2006*م ، ص*77*- *79* ، وهي ملاحظة لها قيمتها ، وتكاد تلتقي مع ما ذهبنا إليه ، لولا أمران ؛ الأول : أن المستندات التي اعتمدنا عليها تتصل بضيف نفسه ، بالمعنى الذي يجعل من الممارسات هنا شيئا لا يعدو محاولة الفهم المتأني للنصوص ويبعدها في آن عن الاستنباط أو الحدس ، والآخر : أن هذه المقالات تزعم أن نظرية تطور المذاهب عند ضيف كانت ذات صيغة رباعية ؛ على النحو الآتي : الطبع والصنعة والتصنيع والتصنع ، وأن الشعر الجاهلي يندرج أغلبه تحت الطبع ، لتظهر الصنعة عند أمثال زُهَيْر بن أبي سلمى (ت : *14*ق. هـ) ، في الحين الذي تشير الدلائل كلها إلى عزوف ناقدنا التام ؛ وأقصد تحديدا في أطروحته للدكتوراه ، عن ثنائية الطبع والصنعة ، وتصريحه أن الصنعة هي المذهب الأول الذي يقابلنا في تاريخ الشعر العربي ، حتى عند امرئ القيس ؛ نظرا لبذل الشاعر الجاهلي الجهدَ العنيفَ حتى تستوي قصيدته على الصورة الموروثة المتْقَنَة ، فالشعر لا يصدر صدورًا فِطريا كما الشَّذَى عن الزَّهرة ، وإنما تقاليدُ وضوابطُ ورسومٌ لم يَحِد عنها أحدٌ ، وكل ما هنالك إذن ، بحسب ناقدنا ، أن زهيرًا ينهض نموذجًا لتعقيد هذا المذهب شيئا من التعقيد ، انظر : شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط*4* ، ص*13*- *32* ، *36* ، *37* ، وأيضا : تاريخ الأدب العربي ، *1*- العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، *1960*م ، ص*183*- *188* ، *219*- *231*.

بِحَسْبِ اسْتِنْتاجِنا، في أنّه وَجَدَ نَفْسَه أمامَ كَمٍّ هائِلٍ من الشِّعْرِ العَرَبِيِّ في قُرُونِه الثَّلاثَةِ الأُولى مَلَكَ ناصِيَتَه بِرِسالَتِه عن الأغانِي، فرَأى أن تَكون هذه المادَّةُ المَبْذُولَةُ مَحِلا للدَّرْسِ والتَّحْلِيلِ.

إذا رُحْنا الآن نَتَأَمَّلُ في النَّهْجِ الذي عالَجَتْ به الرِّسالَةُ الشِّعْرَ العَرَبِيَّ الذي يَنْتَمِي لِلْحِقَبِ اللاحِقَةِ للقَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ، فَسَوفَ تَزْدادُ «مُعَدَّلاتُ» اليَقِينِ بِصِحَّةِ هذا الاستِنْتاجِ؛ إذ نَلْحَظُ العَجَلَةَ الشَّدِيدَةَ في العَرْضِ، والنَّظَراتِ النَّقْدِيَّةَ **«البانُورامِيَّةَ»** التي تَطْرَحُ «الفُسَيفِساءَ» في سَبيلِ الْتِقَاطِ «الكُلِّيِّ»، فَتَتَوَقَّفُ عندَ قُرونٍ مُتَطاوِلَةٍ لِتَمْنَحَها وَصْفًا أو تَسْلُبَها إيَّاه، دُونَ الاعْتِمادِ على نُصُوصٍ تَنْهَضُ بتَمْثِيلِها، وإنما نَصٌّ أو قِطْعَةٌ ثم تَعْمِيماتٌ للأحْكَامِ، ويَكْفِي لإيضاحِ ذلك ذِكْرُ أن بَحْثَها يَتَوقَّفُ فَحْصُه التَّارِيخِيُّ التَّحْلِيلِيُّ عند حُدودِ أبي العَلاءِ المَعَرِّيِّ، في مُنْتَصَفِ القَرْنِ الخامِسِ، الذي عَرَضَتْ له تحتَ عُنْوانِ التَّعْقِيدِ في التَّصَنُّعِ، ثم أَعْلَنَتْ في وُضوحٍ: "وعبث أن نبحث بعد ذلك عن جديد في الشعر.."[1]!، أمَّا التَّذْيِيلُ الذي تَناولَ شُعَراءَ الأَقالِيمِ العَرَبِيَّةِ فقد كان الغَرَضُ منه التَّأْكِيدَ على الأَساسِ الذي قامَتْ عليه نَظَرِيَّتُه في تَعاقُبِ المَذاهِبِ الشِّعْرِيَّةِ، بِوَساطَةِ تَقْرِيرِ "محافظتهم على الأوضاع والتقاليد القديمة محافظة شديدة تكاد تلغي كل ما كنا نأمله من تجديد عندهم أو ثورة على التقاليد"[2]، وأن شعراء الأندلس "يعيشون في شعرهم معيشة تقليدية خالصة.."[3]، على الرَّغمِ من تَميُّزِهم شيئًا من التَّمَيُّزِ.

---

(1) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط1، ص254.

(2) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط1، ص255.

(3) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط1، ص264.

لقد كانت هذه الأَحْكامُ، الـمُلْصَقَةُ بِشُعَراءِ الأَقالِيمِ العَرَبِيَّةِ بعد القَرْنِ الخامِسِ، تُسَجِّلُ دون أن نُصادِفَ بيتًا شِعْرِيًّا واحِدًا يُمثِّلُ هذه القُرُونَ أو تِلك الأَقَالِيمَ، وإذا أَرَدْنا الدِّقَّةَ، فيُمْكِنُ اسْتِثْناءُ بَعْضِ أَبْياتٍ قَلِيلَةٍ اخْتُصَّ بها إِقْلِيمُ الأَنْدَلُسِ، غيرَ أَنَّه اسْتِثْناءٌ يُعادِلُ وُجودَه العَدَمُ؛ لأنَّ انْتِقَاءَها خَضَعَ لِغايَةٍ واحِدَةٍ؛ هي إِثْباتُ تَقَصُّدِ الاحْتِذاءِ والـمُتابَعَةِ لِلْمَشْرِقِيِّينَ مع الفَشَلِ الدَّائِمِ في اللِّحاقِ بِرَكْبِهم، وبِعِبارَةٍ أُخْرَى إنَّ دِراسَةَ الشِّعْرِ الأَنْدَلُسِيِّ في هذه القُرونِ لَمْ تَسْتَهْدِفْ الاتِّصالَ به في ذاتِه أو لِذاتِه، الأَمْرُ الذي تَسبَّبَ أَحْيانًا فيما يُشْبِهُ أن يَكونَ تَعسُّفًا في إِقامَةِ الصِّلاتِ، ويَظْهَرُ هذا بِصُورَةٍ جَلِيَّةٍ أَثْناءَ الحَدِيثِ عن مُحاكاةِ ابنِ هَانِئٍ الأَنْدَلُسِيِّ (ت: 362هـ) لأبي الطَّيِّبِ الـمُتَنَبِّي (ت: 354هـ)، إذ يقولُ ضيفٌ: "وانظر إلى ابن هانئ يقول:

أنــتَ الـــوَرَى فـــاعمُرْ حَيَــاةَ الـــوَرَى

باسْـــــمٍ مِـــــن الـــــدَّعْوَةِ مُـــــشْتَقْ

وكأنه يتأثر في ذلك بفكرة الحلول التي شاعت في مدح المتنبي.."[1]، فهُنا يَلْقانا انْصِرافٌ عن الوِجْهَةِ التي كان من الـمُفْتَرَضِ أن يُوَلِّيَها؛ لأنَّ الشاعِرَ شِيعِيُّ العَقِيدةِ، بل هو من الفِرْقَةِ الإِسْماعِيلِيَّةِ، الذين انْسَرَبَتْ إليهم بَعْضُ أَفْكارِ «الأَفلاطُونِيَّةِ الحَدِيثَةِ» أو «الأَفْلُوطِينِيَّةِ السَّكَنْدَرِيَّةِ»؛ القائِلَةِ بِنَظَرِيَّةِ «الفَيْضِ» التي تَعسَّرَ عليها فَهْمُ عَمَلِيَّةِ الخَلْقِ دون تَخيُّلِ وسائِطَ[2]، فلم يَكنْ

(1) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط1، ص268.

(2) حول العلاقة بين عقائد الإسماعيلية في مسألة الإمامة وآراء أفلوطين (توفي حوالي: 270م)، الشيخ اليوناني، في نظرية الفيض؛ ينظر: الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1961م، 1/ 192- 194.

إذنْ بحَاجَةٍ إلى المُتَنَبِّي أو إلى غَيرِه لِتَشِيعَ في شِعْرِه فِكْرَةُ الحُلُولِ، هذا إذا سَلَّمْنا أَصْلا أنَّ البَيْتَ يَنْطَلِقُ مِنها، وأنَّه ليس على شاكِلَةِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120][1]، وإذا أَضَفْنا إلى هذا كلِّه أن رَأْيَه هذا يَغِيبُ عن الطَّبَعاتِ اللاحِقَةِ، بالمَعْنى الذي قَدْ يُشيرُ إلى أنه كمِثْلِنا قد استَشْعَرَ إغْرابَه - وإن كان سَيَظَلُّ مدافِعًا عن رَأْيِه في تأثر ابن هانئ بالمُتَنَبِّي بصورةٍ عامَّةٍ، بالاستِنادِ إلى أن القدماء أَنْفَسَهم لاحَظُوا ذلك في شِعْرِه[2] - فرُبَّما سَنكون أَكْثَرَ قَناعَةً بأنَّ مُعْظَمَ الجُهْدِ كان مُوَجَّهًا إلى شِعْرِ القَرْنِ الرَّابعِ الهجْرِيِّ؛ بوَصْفِه مُقْتَرَحًا لأُسْتاذِه، وإلى شِعْرِ ما سَبَقَه من قُرُونٍ؛ بوَصْفِه مادَّةً مَلَكَ هو نَاصِيَتَها بِرسالَتِه العِلْمِيَّةِ الأُولَى، لِيَظْهَرَ مِنْ ثَمَّ أَثَرُ مادَّتِها المَعْرِفِيَّةِ وبَياناتِها التي اتَّصَلَتْ بها ظُهُورًا بَيِّنًا، من حَيْثُ إقْبالِه بِفَضْلِها على رِسالةٍ كان قد قَطَعَ ما يَقْرُبُ من نِصْفِ شَوطِها[3].

(1) راجع البيت ورواياته الأخرى وشرحه عند: زاهد علي: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ؛ الأندلسي المغربي، دار المعارف، القاهرة، 1932م، ص 501.

(2) انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط4، ص419- 424.

(3) هناك ملاحظة شكلية على الرسالة في طبعتها الأولى، سيكون لها دلالتها فيما نحاول توضيحَه، وهي أن عدد صفحاتها 283 صفحة، يشغل الحديث منها عن شعر القرون الثلاثة الأولى؛ بمَذهبَي: الصنعة والتصنيع، إلى صفحة 152، أي ما يزيد عن نصف الكتاب من حيث عدد الصفحات، وبالطبع لا تقاس المسألة بهذا المقياس الكمِّي، فوجود المادة شيء ومعالجتُها معالَجَةً علمية شيء آخر، لكن على أية حالٍ لن يمكن تجاهُلُها أثناء تلمُّس أثر رسالة الماجستير في نتاجه اللاحِقِ.

- 2 /2 /1 -

المَقُولاتُ النَّقْدِيَّةُ:

مَهْما كان بِوُسْعِنا أَنْ نُقَلِّلَ من مَكانَةِ رِسالَةِ الماجِسْتِيرِ في تارِيخِنا النَّقْدِيِّ الحَدِيثِ، فَسَوفَ يَظَلُّ من حَقِّها عَلَينا الانْتِباهُ إِلَى أَنَّ آثارَها لَمْ تَتَوقَّفْ عِنْدَ مُجَرَّدِ تَوفِيرِها مَادَّةً مَعْرِفِيَّةً تُراثِيَّةً أفادَ ناقِدُنا مِنْها في نِتاجِه اللاحِقِ، بل تَعَدَّتْها إلى جَانِبِ المَقُولاتِ النَّقْدِيَّةِ المَبْثُوثَةِ في كِتابِ الأغَانِي، سواءٌ أكانت مَقُولاتٍ لِصاحِبِ الكِتابِ نَفْسِه؛ أَبِي الفَرَجِ الأَصْفَهانِيِّ، أم مَقُولاتٍ لغَيرِه من المُؤرِّخِينَ والنُّقَّادِ[1]، عُنِيَ هو بتَسْجِيلِها أَثْناءَ الْتِقاطِه صُورَةً لِلمَشْهَدِ العَرَبِيِّ النَّقْدِيِّ في القُرُونِ الأولَى، إذ ظَلَّت هذه المَقُولاتُ وما صَحِبَها من مُلاحَظاتٍ بِعَيْنَي ضيفٍ؛ يُوظِّفُها من حينٍ لآخَرَ في مُمارَساتِه النَّقْدِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ. ولْنَرْجِعْ مَرَّةً أُخْرَى، حتى نَتَأكَّدَ من ذلك، إلى رِسالَةِ الدُّكْتُوراه، ونَتَوقَّفْ حيثُ وقْفَتِها المُتَأَنِّيَةِ عندَ أبي تَمَّامٍ (ت: 231هـ) ومَذْهَبِه التَّجْدِيدِيِّ[2]، إذ تَسُوقُه مُمَثِّلا المَذْهبَ الثَّانِي: مَذْهَبَ «التَّصْنِيع»، وتُخصِّصُ كَلِمَةً لِما كان من مَزْجِه بينَ ما أَسْمَتْه: أَلْوانَ التَّصْنِيعِ القَدِيمَةِ والجَدِيدَةِ، وهي تَقْصِدُ بالقَدِيمَةِ إلى مِثْلِ: الطِّباقِ والجِناسِ والتَّصْوِيرِ والمُشاكَلَةِ، وبالجَدِيدةِ إلى مِثْلِها أَيْضًا حالَةَ

(1) لا يسمح المقام في هذا المبحث بتناول ملاحَظَاتٍ نقديَّة لغير أبي الفَرَج، حتى لا تتداخل الأغراضُ هنا بأغراضٍ من الممكن تحقيقها في مواطِنَ أخرى، على أن المسألة أهْوَنُ من ذلك؛ فبعض ملاحظات أبي الفرج نفسه، كما سيتبين آخرَ وقفتنا، ليست خالصةً له من دونهم، وإنما يشركه فيها غيرُه؛ فيغدو التأثُّر به تأثُّرًا بهم في آن.

(2) حول هذه القضايا التي سنشير إليها؛ انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط1، ص111، 113، 128، 130- 135، وأيضا الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط4، ص227، 239، 247، 250- 254.

انسِرابِ أَلْوانٍ من الثَّقافَةِ والفَلْسَفَةِ إليها، فالطِّباقُ مثلا بِحَسْبِها يَصيرُ من أَدَواتِ التَّصْنيعِ الجَديدةِ حينَ يَتَقولَبُ في «وِعاءٍ فَلْسَفِيٍّ» أو يَصبغُه الشَّاعِرُ بأَصْباغِها المُعَقَّدَةِ، وتَضرِبُ له مَثلا قَولَه:

مَطَـرٌ يَـذُوبُ الـصَّحْوُ مِنْـهُ وبَعْـدَه
صَـحْوٌ يَكَـادُ مِـنَ النَّـضارَةِ يُمْطِـرُ

ولِهذا يُسَمِّيه الناقِدُ «طِباقًا فَلْسَفِيًّا»، ويَعْرِضُه تَحْتَ عُنْوانِ: «نَوافِرِ الأَضْدادِ»؛ مُسْتَعِيرًا هذِه التَّسْمِيَةَ من الشَّاعِرِ نَفْسِه في بَعْضِ أَبْياتِ شِعْرِه(1).

يَحينُ الآن التَّصْرِيحُ بالسُّؤالِ، الذي من أَجْلِه اضْطُرِرْنا إلى كُلِّ هذا الشَّرْحِ: هلْ كان ضيفٌ في هذا يَسيرُ على غَيرِ مِثالٍ سالِفٍ؟ أو لنقل بِكَلِماتٍ أُخْرى مُعاكِسَةٍ: هل يُمْكِنُ أن نَعْثُرَ على بُذُورٍ تُراثِيَّةٍ لهذا التَّصَوُّرِ الذي يَبْنِيه

(1) الأبيات التي اعتمد عليها ناقدنا هي من قول أبي تمام مادحًا ابن أبي دُؤاد:

قَـدْ غَرَسْـتُم غَـرْسَ المَـوَدَّةِ والـشَّحْـ ـناءِ فـي قَلْـبِ كُـلِّ قـارٍ وبَـادِ
أَبْغَـضُوا عِـزَّكم ووَدُّوا نَـدَاكُم فقَـرَوْكم مِـن بِغْـضَةٍ ووِدادِ
لا عَـدِمتُم غَرِيـبَ مَجْـدٍ رَبَقْـتُم في عُـراهُ نَـوَافِرَ الأَضْـدَادِ

لمراجعة هذه الأبيات؛ انظر: أبو تمام: ديوانه الشعري، شرح: محي الدين الخياط، التزام [على نفقة]: محمد جمال، بترخيص من نظارة المعارف العمومية، القاهرة، 1900م، ص78، وأبو تمام: ديوانه الشعري، بعناية محمد سعيد، المكتبة الوهيبية، القاهرة، ص40، وتختلف روايتهما عن رواية الأبيات بالصورة الفائتة اختلافا يسيرا، لعل أهمه هو أن كلمة: "غرستم" تروى "بَثَثْتُم"، وربما كانت روايتهما هي الأرجح؛ نظرا لتوافق اللفظة مع عاطفتي الشحناء والمودة المذكورتين في البيت ووعائهما؛ القلب، في الحين الذي لن تعوق عملية تحويل ما هو معنوي (العواطف) إلى ما هو حسي (الغرس)، وهذا الجو المشيج؛ الذي تخلّفه الصورة بإبقائها على بعض العناصر وتحويلها أخرى، لعله كان مطلب أبي تمام؛ لتنعكس على البناء الشعري صفات الممدوح المصلِح بين نوافر الأضداد في حسه، وهي عمليات، فوق كل شيء، تتلاءم وما بُرِّز به الشاعر واشْتُهِرَ في ميدان التصوير الشعري.

ويُرَوِّجُه؟ الحقُّ أنَّ رِسالةَ الدُّكْتُوراه لا تُساعِدُنا في أَداءِ هذه المَهَمَّةِ على الإطْلاقِ، لا فِي طَبْعتِها الأولَى ولا في طَبَعاتِها التَّالِيةِ، بَيْدَ أنَّ ضيفًا يَمْنَحُنا في مَوطنٍ آخَرَ خَيْطًا مُتَّصِلا بالإِجابَةِ، ذلك حين يَقولُ: "وليس من شك في أن أبا الفرج كان دقيقا دقة فائقة حين لاحظ ما يتميز به أبو تمام من استخدام طباق جديد، وربما كان هو الناقد العربي الوحيد الذي تنبه إلى هذا الجانب في صناعة أبي تمام"[1]، ومُؤكَّدٌ أنَّه كان يُشيرُ بذلك إلى قَولِه في كتابِ الأغانِي بينَ يَدَي تَرْجَمَتِه لأبي تَمَّامٍ: "وله مذهب في المطابق، هو كالسابق إليه جميع الشعراء.."[2]، فالصِّلاتُ إِذَنْ قائِمَةٌ بينَ إدْراكِ هذا المَلْمَحِ ومُلاحَظَةِ أبي الفَرَجِ القَيِّمَةِ، وإذا اسْتَحْضَرْنا إلْحاحَ ناقِدِنا على هذه الظَّواهِرِ طَوالَ هذا الفَصْلِ، بالصُّورةِ التي مَكَّنَتْه من اسْتِكْمالِ رَسْمِ المُنْحَنَى الشِّعْرِيِّ؛ المُتَرَدِّدِ بينَ الصُّعودِ والهُبُوطِ، على مَرِّ العُصُورِ المُتَلاحِقةِ، مُتَّخِذًا من أَبِي تَمَّامٍ «قِمَّةً» من قِمَمِه، أو لِنَقُلْ «لَحْظَةً» من لَحَظاتِ ذُرْوَتِه، اتَّضَحَ لنا إلى أيِّ مَدًى كان التُّراثُ؛ بِتَمْثِيلِ كِتابِ الأغانِي له، ذا تَأْثِيرٍ كَبِيرٍ في تَشْكِيلِ البِناءِ النَّظَرِيِّ للرِّسالةِ وتَوجِيهِها وِجْهَتَها.

(1) شوقي ضيف: أبو الفرج الناقد (مقال)، ص19، وأيضا له: في الأدب والنقد، ص132.

(2) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني [الجزء السابع عشر]، إشراف وتحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الشعب، القاهرة، 1969م، ص6227. وتأسيسًا على اتصال هذه الملاحظة بأبي الفرج، يمكن إلحاق مقال: "ماهية الألوان الفنية" بمجموعة المقالات التي تحتاج إلى فَضْلِ تأَمُّل لاكتشاف علاقتها بكتاب الأغاني؛ إذ يناقش فيه ضيف فكرة الألوان الزاهية الذاتية في الشعر التي تتلاءم وطبيعته، والألوانِ القائِمةِ المغايرة طبيعة الشعر بانبثاقها عن الفلسفة أو الثقافة، ويسوقه المقام إلى حديث عن الطباق الفلسفي وأبي تمام، وكيف استطاع أن يُحَوِّل الفلسفة إلى فَنٍّ رائق. انظر: شوقي ضيف: ماهية الألوان الفنية (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 19 مايو 1942م، ص19- 21.

على أن تَقْرِيرَ الصِّلاتِ القائِمَةِ يَجْعَلُنا أَكْثَرَ حَيْرَةً في تَفْسِيرِ مَسْلَكِ ضيفٍ أثناءَ دِراسَتِه شِعْرَ أبي تَمَّامٍ في رِسالةِ الدُّكتوراه، إذْ لِماذا لَمْ يَرْعَ مُلاحَظَةَ أبي الفَرَجِ رَغْمَ أنها مُتَّصِلَةٌ اتِّصالا وَثِيقًا بجَوانِبِ بَحْثِه، ورَغْمَ أنَّها كانت سَتُتِيحُ مَدْخَلا هَنِيئًا لِمُعالَجَةِ الظَّاهِرَةِ؛ يَكْفِيه بَعْضَ مَئُونَةِ الجُهْدِ الذي بَذَلَه، وَرَغْمَ أن الرِّسالةَ تَعَرَّضَتْ لِتَنْقِيحاتٍ وإِضافاتٍ كان من الـمُمْكِنِ أن تَسْمَحَ باسْتِدْراكِه ودَمْجِه؟! ولئن كنا لَسْنا نَمْلِكُ إجابَةً تُبَدِّدُ شَغَفَ هذا التَّساؤُلِ، فَقَدْ يَلُوحُ لي مِن الـمُهِمِّ، في سبيلِ البَحْثِ عَنْها، الإشارَةُ إلى أنَّ الأمْرَ لم يَقِفْ عند هذا الحَدِّ من تَغافُلِ الرِّسالةِ عن تلك الـمُلاحظةِ فحسب، بل يبدو **التَّغافُلُ عن كِتابِ الأغاني** بِصُورةٍ عامَّةٍ مَلْمَحًا بارِزًا؛ إذ تَخْلُو في طَبْعَتِها الأُولى، أَثْناءَ الحديثِ عن الشَّاعِرِ، من أيِّ اعْتِمادٍ عليه، إلا في مَوضِعٍ واحِدٍ ذَكَرَتْ فيه مَحِلَّ وِلادَتِه بِقَرْيَةِ "جاسِم"[(1)]، وكأنَّها كانت تَتَحاشاهُ عن عَمْدٍ، بالنَّظَرِ إلى مُخالَفَتِها بِذلك طَرِيقَتَها الـمَعْهُودَةَ في اتِّصالِها الحَمِيمِ به في حالاتٍ مُناظِرَةٍ، وإلى جانِبِ ذلك أنها قد ضاقَتْ بهذا الـمَوْطِنِ هو الآخر؛ فَقامَتْ بِحَذْفِه من الطَّبَعاتِ اللاحقة؛ لِتَصيرَ خالِيةً تَمامًا من أَيَّةِ إحالَةٍ على كِتابِ الأغاني أو صاحِبِه أثناءَ بَحْثِ أبي تَمَّامٍ[(2)]!

لَدَينا **مَقُولَةٌ نَقْدِيَّةٌ أُخْرَى** على قَدْرٍ كَبِيرٍ من الأَهَمِّيَّةِ؛ بالنَّظَرِ إلى حُضُورِها الواسِعِ في مَورُوثِ ضيفٍ النَّقْدِيِّ وإلحاحِه عليها من جانِبٍ، وتَشْكِيلِها إحدَى الأَماراتِ الـمُمَيِّزَةِ خِطابِه من غيرِه وتَكَلُّفِه عِبْءَ الـمُنافَحَةِ

---

(1) انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط1، 107.

(2) انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط4، ص219- 262.

عنها أَمامَ الـمُخالِفِينَ من جانِبٍ آخَرَ، وهي مُلاحَظَةٌ مَفادُها أنَّ النَّاقِدَ يَنْبَغِي **ألا يُعْنَى فَحَسْبُ بِتَتَبُّعِ سَقَطاتِ الشُّعَراءِ**؛ لأَنَّهم جميعَهم- حتى من أجادَ منهم- لا يَخلُو شِعْرُهم من كَبَواتٍ، فإنْ أَحْسَنَ الشَّاعِرُ كان الواجِبُ تَلقِّي هذا بالثَّناءِ؛ بعيدًا عن إِخْفاقِه في مَواطِنَ أخرَى؛ كَثيرًا أو قَليلا، يَقولُ أبو الفَرَجِ الأَصْفَهانِيُّ: "وليست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مسقطة إحسانه، ولو كثرت إساءته أيضا ثم أحسن لم يقل له عند الإحسان أسأت ولا عند الصواب أخطأت، والتوسط في كل شيء أجمل والحق أحق أن يتبع"[1]، ويَقُولُ أيضًا في مَوطِنٍ آخَرَ أَثْناءَ الدِّفاعِ عن ابنِ الـمُعْتَزِّ (ت: 296هـ)، أمَامَ من نَسَبَه إلى التَّقْصِيرِ من أجلِ هَلهَلَةِ أُسْلُوبِه أَحْيانًا: ".. ولا أن يُغمَط حقه كله إذا أحسن في الكثير وتوسط في البعض وقصر في اليسير، وينسب إلى التقصير في الجميع لنشر المقابح وطي المحاسن، فلو شاء أن يفعل هذا كل أحد بمن تقدم لوجد مساغا.."[2].

يَتلقَّفُ ناقِدُنا هذه الـمَقُولَةَ، بعدَ التَّوقُّفِ عندَ النُّصوصِ الفائِتَةِ، ويُحاوِلُ إِدْخالَ بعضِ التَّعْدِيلاتِ عليها وعلى مَفْهومِها، أو بالأَحْرَى يَرْتَكِزُ عليها لِيَنْطَلِقَ إلى **صِياغَةٍ تَرْشِيحِيَّةٍ جَدِيدَةٍ لها**، فَيُؤكِّدُ أَنَّ النَّمُوذَجَ الواحِدَ قد يَجْمَعُ بينَ الإِجادَةِ والإِسْفافِ، ويُقرِّرُ أنَّ النَّاقِدَ يَنْبَغِي أنْ يَرْضَى من شاعِرِه بأنْ يَرْتَفِعَ ارْتِفاعًا حَسَنًا في بَعْضِ الـمَواطِنِ لا كُلِّها، ويُلْمِحُ إلى أنَّ هذه الهَنَاتِ والهَفَواتِ قد تَكُونُ آيةً على مَهارَةِ الشَّاعِرِ؛ من حَيثُ إِنَّها دَلِيلٌ على ارْتِفاعِ

---

(1) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني [الجزء السابع عشر]، ص6228.

(2) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني [الجزء العاشر]، ص3738.

الشَّاعرِ في بَعضِ النَّماذِجِ، وإلا لَمَا تَمكَّنَ النَّاقِدُ من إِبْصارِها وتَمْييزِها، في حينِ أنَّها لا تَظْهَرُ عندَ الشُّعراءِ المتوسِّطِينَ؛ لِتَحْلِيقِهِم الدَّائمِ في المَدى القَرِيبِ؛ فلا ارْتِفَاعٌ ساعَتَها ولا هُبُوطٌ ..![1]، ويُلقِي عليه ذلك فيما بَعدُ تَبِعَةَ مُعارَضَةِ صَنِيعِ ابنِ وَكِيعٍ التِّنِّيسِيِّ (ت: 393هـ) مع قَصائِدِ المُتَنَبِّي، قائِلا: "ونعجب أن يحاول ابن وكيع بيان الإسفاف عند المتنبي وضعفه اللغوي لبيت وقع عليه عفوا هنا أو هناك، والشاعر لا يقاس ببعض عثرات له ندت عنه، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة"[2]، وَاضِعًا بذلك المُلاحَظَةَ القَدِيمَةَ المَورُوثَةَ في صِيغَةٍ أَشَدَّ حَسْمًا.

لم تَنْحَسِرْ قَناعَةُ ضيفٍ بهذه المَقُولَةِ عندَ هذا الحَدِّ؛ بل طَفِقَ يُوظِّفُها كُلَّما سَنَحَتْ له فُرْصَةٌ؛ ويُشَكِّلُ بها أَبْعادَ مَوقِفِهِ النَّقْدِيِّ إزاءَ القَضايا الأدَبِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ، حتَّى لَو كلَّفَه ذلك مُخالَفَةَ النُّقَّادِ القُدَماءِ أنفُسِهِم! وربَّما ظَهَرَ للمُتأمِّلِ أَحْيانًا أنها تَتطوَّرُ على يَدِيه دُرُوبًا من التَّطَوُّرِ؛ من ذلك ما كان مِنه في مُجابَهَةِ مَوقِفِ الجاحِظِ من مَديحِ الكُمَيتِ لِرَسولِ اللهِ ﷺ، وتَحْدِيدًا في تَعْلِيقِهِ على بَيتَي الكُمَيتِ القائلَينِ:

وبُورِكَ قَبْرٌ أَنْتَ فِيهِ وبُورِكَتْ
بِهِ ولَهُ أَهْلٌ بِذَلِكَ يَثْرِبُ
لَقَدْ غَيَّبُوا بِرًّا وحَزْمًا ونائِلا
عَشِيَّةَ واراهُ الصَّفِيحُ المُنَصَّبُ

(1) انظر: شوقي ضيف: أبو الفرج الناقد (مقال)، ص18، وفي الأدب والنقد، ص130، 131.

(2) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، ط2، 1990م، 7/124.

إذ راحَ الجاحِظُ يُزْرِي عليه، قَائِلا على سَبِيلِ التَّمثِيلِ: "وهذا شعر يصلح في عامة الناس"[1]؛ في حينِ يَجنَحُ ضيفٌ إلى الحافَّةِ الأُخْرَى التي يَمْهَدُ لها الطَّرِيقَ بِقولِه: "وهذا صحيح، ولكن ينبغي ألا نقيس الكميت ببيتين"[2]؛ وهو قَولٌ يَتَأَسَّسُ على المُلاحظةِ الحَالِيَّةِ، لو تَأَمَّلْنا؛ لأنَّ قِوامَ المَوْقِفِ هنا هو الاتِّفاقُ مع الجاحِظِ في حُكْمِه على البَيْتَينِ؛ من حيثُ إنَّهما لا يَفِيضانِ بِشُعُورِ مُسْلِمٍ مُحِبٍّ تجاهَ حَدَثٍ جَلِيلٍ، كَمِثْلِ مُواراةِ النَّبِيِّ ﷺ ووَفاتِه، لكنَّ هذا الحُكْمَ القِيَمِيَّ، بِحَسْبِ رَأْيِ ناقِدِنا، لا يَلْزَمُ منه ما وَراءَه، من إسْقَاطِ شِعْرِ الكُمَيْتِ، سواء في المَدِيحِ أو غيرِ المَدِيحِ؛ فإسَاءةُ الشَّاعرِ في مَوطِنٍ لَيستْ مُسْقِطَةً إحْسانَه، على حَدِّ قولِ أبِي الفَرَجِ الذي مرَّ بِنا،

(1) هكذا جاء نصُّ الجاحظ بحسب ما نقل ضيف؛ مُحيلا في الهامش إلى كتاب الحيوان، انظر: شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف القاهرة، ط6، 1977م، ص290، غيْر أن النَّصَّ في كتاب الحيوان يجيء على النحو الآتي: "فلو لم يكن يمدحه عليه السلام إلا بهذه الأشعار التي لا تصلح في عامة العرب لما كان ذلك بالممدوح، فكيف مع الذي حكينا قبل هذا"، انظر الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1965م، ص171، وبالبحث في كتب الجاحظ الأخرى تبين أن النص، بصورته التي نقل ضيف، موجودٌ في كتاب البيان والتبين، انظر: الجاحظ: البيان و[التبين]، ص240، والمهم أيضا أن المحقق يشير في هامش صفحة كتاب الحيوان إلى أن حرف "لا" في قوله: "لا يصلح" ساقطة من بعض نسخ المخطوطات، وإذن فيبدو أن ضيفًا قد اطمأن إلى هذه القراءة، ولا يبعد أن تكون رواية كتاب البيان قد تسببت في ذلك، فنقلها ناسيا ردها إلى مظانها، والعجيب أن محقق الكتابين، وهو من هو معرفة بكتب الجاحظ، لم تستوقفه هذه المسألة، ولم يحاول أن يقرأ أحد النصين في ضوء الآخر. ومهما يكن، فإن القراءتين كلتيهما لا تغيران من ملامح موقف الناقِدَين شيئا، فسواء أكان الشعر يصلح في عامة الناس أم لا؛ فسيبقى غير صالح في مقام المديح النبوي، ومن ثمَّ يلقانا استهْجان الجاحظ له، واعتراض ناقدنا ما يترتب على ذلك من إسقاط مديحه جُمْلَةً من أجل هَفْوَةٍ.

(2) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط6، ص291.

ولذلك يَسْتَأْنِفُ ناقِدُنا حَدِيثَه بعد ذلك قائِلا: "فمن الممكن أن لا يكونا معبِّرين عن صورة مدحه للرسول [صلى الله عليه وسلم].."[1].

من الكُمَيْتِ إلى عَلِيِّ بنِ الجَهْمِ (ت: 249هـ)؛ الذي تَصَيَّدَ له النُّقَّادُ اللُّغَوِيُّون خَطَأينِ في بَابِ الصَّرْفِ والأَبْنِيَةِ[2]، يَجِيءُ الخَطأُ الأوَّلُ في بيتِه:

ونَحْـــنُ أُنَـــاسٌ أَهْـــلُ سَـــمْعٍ وَطَاعَـــةٍ
يَـــصِحُّ لكُـــم إسْـــرَارُها وعِلانُهـــا

إذْ المَسْمُوعُ لدى العَرَبِ: "إِعْلانُها" لا "عِلانُها" (بِكَسْرِ العَينِ)، أمَّا الخَطَأُ الآخَرُ فيَأْتِي في قَولِه: "أظنني مأزُورًا في قُعودي"، والمَسْمُوعُ لدى العَربِ "مَوزُورٌ" لا "مأزور"، وبَعدَ وَقْفَةٍ تَعْلِيلِيَّةٍ لدى ما عَدَّهُ اللُّغويُّون القُدَماءُ خَطَأً، ربَّما أرادَ بها نَاقِدُنا تَسْوِيغَ صنيع الشَّاعِرِ من قِياسٍ على بَعْضِ الصِّيَغِ، يَقولُ مُعقِّبًا: "وحتى على فرض خطئه فيهما وأنه لم يصب في اجتهاده، كان يحسن أن يغفروهما له وأن يشيدا بمدى معرفته للعربية وأمثلتها في البنية والصياغة، إذ لم يحدث أن أخطا فيها- إن سلمنا [لهم] بهذا الخطأ- سوى مرتين"[3]. لتَتَمَاهَى الملاحَظَةُ الحاليةُ بعد هذه التَنَقُّلاتِ والتَّجارِبِ مع شَطْرِ بيت بَشَّارٍ الأثِيرِ: **"كَفَى بِالمَرْءِ نُبْلا أنْ تُعَدَّ مَعَايِبُه.."**.

---

(1) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط6، ص291.

(2) لمراجعة هذه الأخطاء؛ انظر: المرزباني: الموشح، بعناية: محب الدين الخطيب، جمعية نشر الكتب العربية (المطبعة السلفية)، القاهرة، 1924م، ص345.

(3) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 4- العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، 1973م، ص184؛ بتصرف يسير، اقتضته ضرورة تصحيح اللفظة الواقعة ما بين الحاصرتين؛ من "لهما" إلى "لهم".

إذا انْتَقَلْنا مِنْ ساحَةِ الشِّعْرِ القَدِيمِ إلى ساحَةِ الشِّعْرِ الحَدِيثِ، فَسَوفَ تُؤَكِّدُ مُمارَساتُ ضيفٍ أَنَّها لَمْ تَزَلْ راكِنَةً إلى هذا المِقْياسِ أَثْناءَ مُواجَهَةِ إِخْفاقاتِ الشُّعَراءِ، يَتَّضِحُ ذلك بِتَأَمُّلِنا نَهْجَه الـمُطَّرِدَ في مُجابَهَةِ الانْتِقاداتِ التي صُوِّبَتْ إلى شِعْرِ أحمد شوقي (ت: 1932م)، فإنه يَقُومُ بِشَيءٍ من الإِجْمالِ على دِعاماتٍ ثَلاثَةٍ؛ الأُولى: التَّرْكِيزُ على سَوءةِ تَحَكُّمِ النُّقَّادِ في الفَنِّ والفَنَّانِينَ، فَيُقِرُّ على سَبيلِ التَّمْثِيلِ بِأَنَّ شوقي شاعِرٌ غَيرِيٌّ يَتَنازَلُ راضِيًا عن شَخْصِيَّتِه وفَرْدِيَّتِه، حَتَّى يُتاحَ له اتِّخاذُ هذا الإِقْرارِ وَسِيلَةً لِلاعْتِرافِ بِحَقِّه في اخْتِيارِ الـمَذْهَبِ الشِّعْرِيِّ الذي سَيَحْتَذِيه، والثَّانِيَةُ: تَفْنِيدُ هذه الاتِّهاماتِ والخُلُوصُ إلى أَنَّ أَغْلَبَها لا يَعْدُو أن يَكُونَ تَمَحُّلاتٍ تَرْتَبِطُ أَحْيانًا بِأَغْراضٍ تَبْتَعِدُ عن الـمَوضُوعِيَّةِ[1]، والثَّالِثَةُ- وهي أَلْصَقُ بِحَدِيثِنا- مُجاراةُ النُّقَّادِ في آرائِهم الـمَعْنِيَّةِ بِرَصْدِ الإِخْفاقاتِ لَكِنْ دون أَنْ يَمْضِيَ مَعَهُم إلى نهاية الطريق، وأقصد دون أن يَتَّخِذَ منها مُسْتَنَداتٍ لِلْحُكْمِ على شاعِرِيَّتِه أو إِسْقاطِ شِعْرِه جُمْلَةً، إِنَّه إذن يُسَلِّمُ بِمُقَدِّماتِهم لِيُسائِلَ نَتائِجَهُم الـمُعْلَنَةَ، ويَظْهَرُ هذا جَلِيًّا في حُكْمِه على مَسْرَحِيَّةِ قَمْبِيز؛ إذ يقول بكلمات تَتَأَرْجَحُ بين الاعْتِرافِ والاحْتِرازِ[2]: "على كل حال هبط شوقي في هذه المسرحية عن مستواه الفني الرفيع الذي حلق فيه أثناء تأليفه للمسرحية السابقة [كليوباترا]، ولكن هذا الهبوط ينبغي ألا يجعلنا نزري عليه ولا على فنه، فكل شاعر ممثل تتفاوت تمثيلياته من حيث الجودة، وتقصيره في تمثيلية أو مسرحية لا يصح أن يتخذ

---

(1) حول هذه المسائل؛ ينظر: شوقي ضيف: شوقي شاعر العصر الحديث، دار المعارف، القاهرة، ط13، 1998م، ص51- 57، 73- 120.

(2) شوقي ضيف: شوقي شاعر العصر الحديث، ص214، 215؛ بتصرف.

مركزا للهجوم عليه والغض من شأنه، بل يقاس بعمله كله، وموازين شوقي تثقل بآيات الفن الرائعة وما تحمله من بدائعه وفرائده".

الآنَ، قَبْلَ مُغادَرَةِ هذا الـمَوْطِنِ، من الـمُهِمِّ التَّنْبِيهُ إلى أنَّ هذا الـمِقْياسَ الذي أَرْشَدَ إليه أَبو الفَرَجِ **لم يَكنْ في الواقِعِ حِكْرًا عليه**، ويَكْفِي للتَّدلِيلِ، على سَبِيل التَّمْثِيلِ، مَعْرِفَةُ أنَّ كِتابًا كمِثْلِ "أَخْبارِ أَبِي تَمَّامٍ"؛ الذي أَلَّفه الصُّولِيُّ (ت: 336هـ) نُصْرَةً للشَّاعِرِ، تَكادُ مُحصِّلَتُه النِّهائِيَّةُ تَكونُ ظِلا من ظِلالِه؛ فهو يُقِرُّ بِبَعْضِ ما عابَه عليه النُّقَّادُ؛ بَيْدَ أنَّه يَأْخُذُ علَيهِم انْشِغالَهم الـمُسْرِفَ بِهذِه الهَناتِ وتَغاضِيهِم عن مَواطِنِ الإجادَةِ في شِعْرِه، وهو أَمْرٌ بِحَسْبِه كان سَبَبًا في انْحِرافِ أَحْكامِهِم عن الجادَّةِ[1]، وأنَّ كِتابًا هو وَساطَةُ الجُرْجانِيِّ (ت: 392هـ) تَجْرِي حُجَجُه الـمُضادَّةُ لِخُصُومِ الـمُتَنَبِّي والـمُتَجَنِّينَ عليه الـمَجْرَى نَفْسَه، فهو يُعْلِنُ في مُقدِّمَتِه أنَّ من الحَيْفِ أنْ يَنْشَغِلَ النُّقَّادُ فحسبُ بِتَتَبُّعِ السَّقَطاتِ، ولْنقرَأْ قَولَه الـمُفْصِحَ عن مِقياسِه الـمُعْتَمَدِ: "وللفضل آثار ظاهرة، وللتقدم شواهد صادقة، فمتى وجدت هذه الآثار وشوهدت هذه الشواهد، فصاحبها فاضل مقدم، فإن عثر له من بعد على زلة ووجدت له بعقب الإحسان هفوة انتحل له عذر صادق أو رخصة سائغة.. وأي عالم سمعت به ولم يزل ويغلط أو شاعر انتهى إليك ذكره لم يهف ولم يسقط؟!"[2]، بل لَعلَّه من الطَّرِيفِ أنْ يَتَبَنَّى هذا الـمِقْياسَ واحِدٌ مِن أولئك

(1) انظر: أبو بكر الصولي: أخبار أبي تمام، تحقيق: خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937م، ص7- 13، 49، 102.

(2) علي بن عبد العزيز الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2006م، ص13، باختصار.

الذين دَرَجَ نُقّادُنا القُدَماءُ والـمُعاصِرُون على وَصْفِهم بالشَّطَطِ في حُكْمِهم على الـمُتَنَبِّي، ذلكم هو الحَاتِمِيُّ (ت: 388هـ) الذي شَنَّ حَمَلاتٍ عَنِيفَةً مُفْتَعَلَةً عليه وعلى شِعْرِه، فإنَّه يَقُولُ في بعضِ كُتُبِه: "من أحسن في الكثير اغتفرت إساءته في القليل اليسير"[1]؛ بِحيثُ يَتَراءَى الـمِقْياسُ في نِهايةِ الـمَطافِ مَشاعًا بين نُقّادِنا العَرَبِ القُدَماءِ؛ وهو الأمرُ الذي لا يَزيدُ الحَديثَ هنا إلا وُضُوحًا وتَأْكِيدًا؛ بما أنَّ انْتِقاءَنا أبا الفَرَجِ لم يَكُن سِوَى انْتِقاءِ نَمُوذَجٍ يُبِينُ عن «الرَّافِدِ التُّراثِيِّ» ويَكْشِفُ عَنْ أَثَرِه[2].

لقد رَأَيْنا من قَبْلُ كيف أَسْهَمَتِ البِيئَتان؛ الاجْتِماعِيَّةُ والثَّقافِيَّةُ في صِياغَةِ ناقِدِنا صِياغَةً تُراثِيَّةً مُتْقَنَةً؛ حين أَنْتَجَتْ كُلُّ واحِدَةٍ منهما بِمُفْرَداتِها الخاصَّةِ جَوًّا تراثِيًّا خِصْبًا، لم يَزَلْ في صِباهُ يَسْتَنْشِقُ نَسِيمَه: في البَيْتِ بِجِوارِ أَبِيه وأُمِّه وَجَدَّتِه، كما في الكُتَّابِ حيثُ أقْرانُه الـمُلْتَفُّون حول "سيِّدِنا"، وفي القَرْيَةِ بِطُقُوسِها الـمَعِيشِيَّةِ الـمُتَشَبِّثَة بها، كما في الـمَعْهَد بِأَجْوائِه العِلْمِيَّةِ وشُرُوحِه وحَواشِيه وتَقارِيرِه، فأسْلَمَتاه متشَبِّعا حُبًّا وهُيامًا بالـمَورُوثِ وبِكُلِّ ما يَمُتُّ إليه، وقد رَأينا هنا كَيفَ كانت **الـمَحَطَّةُ النَّقْدِيَّةُ الأُولَى** مَحَطَّةً تُراثِيَّةً ذاتَ أَثَرٍ كَبِيرٍ في مَسِيرَتِه العِلْمِيَّةِ، حين نَهَضَتْ تُرَدِّد أَصْداءَها من حينٍ لآخَرَ في

---

(1) الحاتمي: الموضحة، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، *1965*م، ص*54*.

(2) نكتفي بهذا القَدْرِ، مؤكِّدين وجودَ ملاحظاتٍ نقديَّةٍ أخرى يمكن استِثْمارُها وتتبعُ أطوارِها في كتابات ناقدنا، على سبيل التمثيل، يمكن الإشارة إلى موقف أبي الفرج من دراسة شعر الأحوص الأنصاري (ت: *105*هـ)، وادعائه تقدُّمَ منزلته على كثير من أقرانه، وتعريضِه بصنيع الرواة، اللغويين منهم خاصة، في تأخير منزلته الشعرية بسبب سوء أخلاقه ورقَّة دينه، ومسايَرَة ضيف له في ذلك كله، انظر: الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، ص*138*- *141*.

نِتاجِه، مُغَذِّيَةً إيَّاهُ بِمادَّتِها المَعْرِفِيَّةِ ومُلاحَظاتِها النَّقْدِيَّةِ، لاسيَّما في الكِتاباتِ التي قَرَّبها الزَّمانُ منها، فباتَتْ «امتِدادًا» و«إمْدادًا»؛ امتِدادًا لِتيَّارِ التُّراثِ المُتَدفِّقِ منذُ الصِّبا، وإمْدادًا له بِما يُمتِّنُه ويُحْكِمُ عُراه؛ ولئن كنا قد ألحَحْنا على هذه النَّتيجَةِ الأخيرَةِ، فإنَّ هذا لَمْ يَكُن لِلْحَقِّ نابِعًا من غاياتٍ بَحْثِيَّةٍ مُجَرَّدةٍ، وإنَّما كَذلكَ من غاياتٍ تَصْحَبُها مُحاولَةُ المُناهَضَةِ لِلصُّورَةِ المُقْلِقَةِ التي تُصِرُّ كَثْرَةُ الدِّراساتِ[1] على تَكْريسِها، وأقصد إغْضاءَها عن رِسالةِ الماجِستيرِ ودَورِها، وأَخُصُّ حين تَنْطَوِي معالِمُها على إبْرازِ رِسالَةِ الدُّكْتُوراه بوَصْفِها مَحَطَّةً نَقْدِيَّةً أُولى، وتأكِيدِها أنَّها هي التي انْحَلَّتْ في مُؤلَّفاتِه اللاحِقَةِ؛ وأنَّها شَكَّلت المَلامِحَ العامَّةَ الرَّئيسَةَ في مَشْرُوعِه النَّقْدِيِّ، مُرْتَكِبَةً في غالِبِ الأحْيانِ مُغالَطَةً ومُخَلِّفَةً مُفارَقَةً طرِيفَةً في آن، إذ تَتَعامَلُ مع رِسالةِ الدُّكتُوراه لا في هَيئَتِها الأولَى، كما عَرَضْنا لها هنا، وإنَّما في هَيئَتِها المَنْشُورةِ عامَ 1960م، وهو أمْرٌ، رَغْمَ أنه تَسَبَّبَ في إحْداثِ هذه الغَفْلَةِ، كان بِمَقْدُورِه الإحالَةُ على مُنْجَزاتٍ بَحْثِيَّةٍ أَتَمَّها الناقِدُ بِالفِعْلِ، يَجِيءُ على رَأْسِها الكِتابُ الأوَّلُ في سِلْسِلَةِ تاريخ الأَدَبِ، بِالمَعْنى الذي كان يَنْبَغِي أن يَمْهَدَ لِزَحْزَحَةِ هذه الصُّورَةِ التي تَتَراءى فيها طَوَال المَسِيرَةِ «أداةً» لِلتَّأْثِيرِ واستِبْدالِ صورَةٍ أُخْرى تَتَراءى فيها[2] «مَيدانًا» لِلتَّأثُّرِ.

---

(1) بعباراتٍ متفاوتَةٍ في درجة الوضوح، انظر: عبد العزيز الدسوقي: شوقي ضيف رائد النقد والدراسات الأدبية، ص11، 82، وسعد شلبي: شوقي ضيف وعصر الدول والإمارات (ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية)، ص230، 231، وإبراهيم عبد الرحمن: مناهج نقد الشعر في الأدب العربي الحديث، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، 1997م، ص12، وعزة أحمد عبد العزيز: شوقي ضيف ناقدًا، ص4، 5، 12- 17، 472، 473.

(2) ننتوي التوقف لاحقا عند تطور نظرته إلى شعر المتنبي لتأكيد ذلك.

ليس هذا يَعْنِي أن أَحَدًا من الباحثين والنقاد لم يَتَنَبَّهْ إلى ما نُرِيدُ تَجْلِيَتَه أو إلى قَرِيبٍ مِنْه، لأنَّنا نَلْتَقِي، على سبيلِ التَّمْثِيلِ، بِمُلاحَظاتٍ يُسَجِّلُها سيد حامد النساج، ذَهَبَتْ إلى أنَّ الأغاني هو اليَنْبُوعُ الثَّرِيُّ الغَزِيرُ الذي نَهَلَ منه ناقِدُنا، وأنه لذلك مَوجُودٌ بِكُلِّ ثِقَلِه فيما كَتَبَ وأَلَّفَ في مَسِيرَتِه كلِّها(1)، ونَلْتَقِي بِأُخْرى يُسَجِّلُها أحمد يوسف بِخُصوصِ آثارِ أُطْرُوحَةِ ضيفٍ الأولى في تَكْوِينِه المَعْرِفِيِّ والمَنْهَجِيِّ؛ في حِسِّه المَوْسُوعِيِّ المُنْفَتِحِ على الجَوانِبِ غَيْرِ الأَدَبِيَّةِ من جِهَةٍ، وحسِّه التاريخِيِّ المُعْتَمِدِ على التَّقْسِيمِ السِّياسِيِّ والرِّوايَةِ من جِهَةٍ أُخْرَى(2)، وكنْتُ أنا في بَحْثٍ سابِقٍ قد أَلمَحْتُ إلى شَيءٍ مِنْ هذا، وأَشَرْتُ فوق هذا إلى أن الرِّسالَةَ ظُلِمَتْ أيضًا على يَدِ صاحِبِها، بِإبْقائِه عليها راقِدَةً على رُفُوفِ مَكْتَبَةِ كليَّةِ الآدابِ دون نَشْرٍ حتى لحظَتِنا هذه، كما نَبَّهْتُ حينها على الأَثَرِ الذي خَلَّفَتْه في المادَّةِ والمُلاحَظاتِ النَّقْدِيَّةِ والمَنْهَجِ، ودَعَوْتُ إلى أن يَتَوَفَّرَ على الكَشْفِ عن هذا المَعْنِيُّون به(3)، وأرْجُو الآن أن أَكُونَ قد قُمْتُ بِبَعْضِ أَعْباءِ هذه المَهَمَّةِ.

(1) انظر: سيد حامد النساج: رحلة التراث العربي، دار المعارف، ط5، 1994، ص194- 196.

(2) انظر: أحمد يوسف: البحث عن الشخصية المصرية عند شوقي ضيف (ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية)، ص245.

(3) انظر: أحمد سمير المرسي: شوقي ضيف ومشروع التعريف بنقاد العرب القدماء (ضمن كتاب المؤتمر العلمي العاشر: التفكير المنهجي في العلوم العربية والإسلامية)، كلية دار العلوم، الفيوم، 2008م، 2/ 1318.

- 2 -

وُحْدَةُ التّراث: التّصَوّر والأصْدَاء

"وكأنما كانت هناك إبر مغناطيسية تجذب شعراء العرب بعضهم إلى بعض، فتتشابه أساليبهم، وبتشابه إطارها، ولكن دون إخلال بتعبير كل منهم عن شخصيته ونفسيته وحوادثه الشعورية الخاصة". شوقي ضيف: ابن زيدون، ص40.

بانْتِماءِ التُّراثِ إلى عالَمِ الحَقائقِ الـمُتَعَلِّقَةِ بالجُذُورِ؛ فإنَّه يَبِيتُ هدفًا مَعْرِفِيًّا مُؤَرِّقًا لِلعَقْلِ الإنْسانِيِّ، وبتَأْثِيراتِه الـمُتَبايِنَةِ وانْعِكاساتِه الـمُسْتَمِرَّةِ، فإنَّ هذا العَقْلَ سُرْعانَ ما يُحاوِلُ تكوينَ تَصَوُّرٍ كُلِّيٍّ عن خَصائِصِه الرَّئِيسَةِ؛ لِيُثْبِتَ أَعْمِدَةَ العَلاقَةِ الجَدَلِيَّةِ بَيْنَهما، أو حَتَّى لِمُجَرَّدِ تَضْيِيقِ الفَجْوَةِ بَينه وبَين الـمَجْهُولِ، مُتَوَسِّلا حالَةَ إنْتاجِه وإذاعَتِه بمَنهَجٍ فِكْرِيٍّ يُنَظِّمُ الرُّكامَ الـمَعْرِفِيَّ السَّائِدَ في الذِّهْنِ إزاءَه، كما يُنَظِّمُ اللُّغَةَ التي يُصاغُ فيها. **«وُحْدَةُ التُّراثِ»** هو ذلك الـمُصْطَلَحُ الذي ارْتَضاهُ ضيفٌ عَلَمًا على تَصَوُّرِه الكُلِّيِّ عن تُراثِ أَسْلافِنا، وكان في رَأْيِنا عَامِلا مُؤَثِّرًا في تَشْكِيلِ مَواقِفِه النَّقْدِيَّةِ؛ فأيَّ شيءٍ يكونُ؟ تُقابِلُنا مَقالَةٌ بالعُنْوانِ نَفْسِه (1980م)(1) تَحَمَّلَتْ عِبْءَ الصِّياغَةِ النِّهائِيَّةِ له، سيَتَوَفَّرُ الفَصْلُ الحالِيُّ على استِشْرافِها، وفي سَبِيلِ القِيامِ بذَلك على نَحْوٍ اسْتِغْراقِيٍّ تَمَّ الاعْتِمادُ على **ستِّ عَدَساتٍ ذاتِ أداءٍ تَكامُلِيٍّ**؛ تُؤدِّي كلُّ عَدَسَةٍ بِمُفْرَدِها دَورًا في هذه العَمَلِيَّةِ، بما تُحَقِّقُ من أَهْدافٍ مَرْحَلِيَّةٍ مُتَفَرِّعَةٍ عن الـهَدَفِ الغائِيِّ، كما تُمَهِّدُ لِغَيرِها الطَّرِيقَ أمامَ استِكْمالِ أَدوارِها وتَحْقِيقِ أَهْدافِها؛ العَدَسَةُ الأُولَى مُجَمِّعَةٌ للأَشِعَّةِ الشَّارِدَةِ تُمَكِّنُنا من تَحْدِيدِ الخُطُوطِ العَرِيضَةِ التي تَجْرِي فيها الـمُفْرَداتُ، والثَّانِيَةُ تُوَلِّي وَجْهَها قِبَلَ الـمُعَوِّقاتِ وما

---

(1) نَشَرَ ضيفٌ هذا المقالَ أوَّلا في مجلة فصول النقدية، انظر: شوقي ضيف: وحدة التراث (مقال)، مجلة فصول، القاهرة، عدد أكتوبر 1980م، ص9- 18، ثم أعاد نشره بعد ذلك بسبع سنين مع تعديلات طفيفة، انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص11- 43، وإلى هذا الكتاب سنعود غالبًا في الإحالات؛ مراعاة لحداثة تاريخ نشره. ويمكن على هامش الحديث هنا تسجيل أن هذا العدد الذي نشير إليه من مجلة فصول هو أول عدد يصدر منها 1980م، وأن ناقدنا ظَلَّ من مستشاري هيئة التحرير، الملاحظة التي قد تمهد لما ينبغي أن تنهض به غير هذه الدراسة من محاولة التَّقَصِّي لحضوره البارز في عمق المشْهَدِ النقدي المعاصر.

اتُّخِذَ من إجْراءاتٍ في تَجاوُزِها، والثَّالِثَةُ تَتَلَمَّسُ الثَّغَراتِ في صياغَةِ النَّاقِدِ، بوَساطَةِ وَجْهٍ له صَفْحَتانِ؛ صَفْحَةٌ تُطِلُّ على هذه الصِّياغَةِ وصَفْحَةٌ تُطِلُّ على بَقِيَّةِ نِتاجٍ ضيفٍ، والرَّابِعَةُ تَخْتَزِنُ العَلاماتِ الفارِقَةَ للتَّصَوُّرِ ثمَّ تَرْتَدُّ تاريخيًّا باحِثَةً عن نَماذِجَ قَبْلِيَّةٍ تَقْتَرِبُ منه، فإذا تَمَّ ذلك شَرَعَتِ الخامِسَةُ في قياس الثَّابِتِ والـمُتَغَيِّرِ برَسْمِ مُخَطَّطٍ افْتِراضِيٍّ لآرائه النَّقْدِيَّةِ الـمُتَطَوِّرَةِ إزاء الشِّعْرِ الحُرِّ، لِتَتَمَكَّن السادِسَةُ أَخِيرًا بعد التوقُّفِ عند أَصْدائه؛ الـمُتَمِثِّلَةِ في تَجاوُزِ الـمَكانِ والزَّمانِ، من بَلْوَرَةِ الـمَفْهُومِ، كلُّ هذا في نِطاقٍ يَسْمَحُ به الفَصْلُ التَّأمُّلِيُّ، حتى نَطْمَئِنَّ إلى شُمُولِيَّةِ الرُّؤْيَةِ واستِيعابِ العَرْضِ. وجديرٌ بالذِّكْرِ أن ناقِدَنا يُوَزِّعُ حَدِيثَه إلى قِسْمَين؛ قِسْمٍ عَن التُّراثِ الدِّينِيِّ والعِلْمِيِّ، وقِسْمٍ عن التُّراثِ الأَدَبِيِّ، في حين سنَعْمَدُ هنا إلى تَناوُلِهما في حَيِّزٍ واحِدٍ؛ لاتِّحادِهما لَدَيه في الـمُنْطَلَقاتِ والمآلاتِ كِلَيهما.

- 1 /2 -

خُطُوطٌ عَرِيضَةٌ

بالاعْتِمادِ على العَدَسَةِ الأُولَى، المَوصُوفَةِ بأنّها «مُجَمِّعَةٌ» للأَشِعَّةِ الشَّارِدَةِ، يُمكنُ أن يَتِمَّ رَصْدُ أَرْبَعَةِ خُطُوطٍ عَرِيضَةٍ، تَنْهَضُ بمُقَوِّماتِ التَّصوُّرِ وعَناصِرِه، وتَحْمِلُ بَراهِينَ الناقِدِ وشَواهِدَه على قِيامِ الوُحْدَةِ، وقَبْلَ العَرْضِ لها يَنْبَغِي مَعْرِفَةُ أنَّ قِيمَةَ صَنِيعِنا تُسْتَمَدُّ من كَونِه تَمَخَّضَ عن عَمَلِيَّاتٍ مُرَكَّبَةٍ من التَّحْلِيلِ وإعادَةِ البِناءِ، فَهو يَحْتَفِي بالتَّفاصِيلِ والجُزئِيَّاتِ، في الوَقْتِ الذي لا يُسَبِّبُ عَرْقَلَةً أَمامَ تَكْوِينِ صُورَةٍ كامِلَةٍ مُؤسَّسَةٍ على تعانُقِ النَّظائِرِ، فيَتَجلَّى سَاعَتَها لا كَيفَ كَتَبَ الناقِدُ فحسبُ، وإنَّما كذلك **كَيفَ كان يُفَكِّرُ أَثْناءَ الكِتابَةِ**، وتَزِيدُ هذه القِيمَةُ حين نَلْقَى محاولاتٍ نَرَى أنها قَدْ أَخْفَقَتْ في استِخْلاصِ الأُسُسِ الرَّئيسَةِ لِوُحْدَةِ التُّراثِ، لِخَلْطِها بين الشواهِدِ التي سيقت لِتَعْضِيدِ فَرْضِيَّاتِه والأسسِ التي أَرْساها بهذا التَّصَوُّرِ(1) ؛ أما الخطوطُ الأَرْبَعَةُ فيمكنُ إجْمالُ الحَدِيثِ عنها فيما يأتي:

---

(1) على سبيل التمثيل ؛ مِن الدارسين مَن يجعل الأسس التي قامت عليها نظرية وحدة التراث خمسة: "الأساس الأول: وحدة التراث الديني وعلى رأسه القرآن الكريم، وما انبثق عنه من تفسير وحديث ومذاهب فقهية. الأساس الثاني: وحدة التراث النحوي واللغوي والبلاغي. الأساس الثالث: وحدة التراث المتصل بعلوم الأوائل كالفلسفة والطب والطبيعة والكيمياء.. إلخ. الأساس الرابع: الوحدة الظاهرة في نظام الأدب وقواعده: شعرًا ونثرًا. الأساس الخامس: كتب تراجم المفسرين والقراء والمحدثين أو الحفاظ للحديث النبوي والنحاة، وكتب التاريخ العام"، انظر: يوسف حسن نوفل: نقاد النص الشعري، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، 1997م ص166، وهو فيما نرى إيجازٌ اضطُرَّ إلى اجترار المبذول دون تأنٍّ في الكشف، وإلا فماذا يفيد، في سياق الحديث عن تصور وحدة التراث، قولُنا: إن التراث الديني وعلى رأسه القرآن كان يتمتع بالوحدة، وهل كان هذا الأمر

=

- **وُحْدَةُ القالَبِ**[1]: ويَجْمَعُ هذا الخَطُّ ما ذَكَرَه الناقِدُ عن تَوْحِيدِ القُرآنِ لِلُغَةِ العَرَبِ؛ لُغَةِ هذا التُّراثِ، بعْدَ غَزْوِها لُغَاتٍ قَدِيمَةً في عُقْرِ دارِها، حتى صارَت لُغَةَ العِلمِ والعُلَماءِ؛ في بلاد المُسْلِمِين قاطِبَةً، حَتَّى في تِلك التي لَمْ يَدْخُلْ أَهْلُها في دِينِ الإِسْلامِ، وأيضا بَعْدَ مَنْحِه إيَّاها خَصائِصَ جَمالِيَّةً لِتَصِيرَ أوَّلَ مُقَوِّمٍ من مُقَوِّمَاتِ وُحْدَةِ التُّراثِ الأدَبِيِّ؛ شِعْرًا ونَثْرًا.

- **مَراكِزُ الاستِقطابِ**[2]: ونَقصِدُ بهذا المُصْطَلَحِ ما عَرَّجَ عليه ضَيفٌ من مَراكزَ ظَلَّتْ تَجْذِبُ المُسْلِمين حَولَها، مُسْتَنْفِدَةً جُهودَهم في خِدْمَةِ العِلمِ والأدَبِ من خِلالِها، وبِهذا الفَهمِ المُتَّسِعِ لِطَبيعَةِ المَرْكَزِ فإنَّه يَشْمَلُ كُتُبَ التَّفْسِيرِ والحَدِيثِ والنَّحْوِ والبَلاغَةِ، كما يَشْمَلُ قُرَّاءَ القُرْآنِ الكَرِيمِ السَّبْعَ المَشْهُورِين، ومَذاهِبَ الفِقْهِ الأَرْبَعَةَ المَعْرُوفةَ؛ الذي يَتَّفِقُ الواحِدُ منها في أُصُولِه وفُرُوعِه عنْدَ جَميعِ فُقَهائِه، وأيضا الشُّعَراءَ والنَّاثِرِينَ.

- **تَمثُّلُ الأَسْلافِ**[3]: ونَعْنِي ما كان يَأْخُذُ به المُؤلِّفُون أَنْفُسَهم عنْدَ التَّأليفِ؛ من وَضْعِ كلِّ ما كُتِبَ في فَنِّهم نُصْبَ أَعْيُنِهم؛ لِيَتَمَثَّلُوه تَمثُّلا دَقِيقًا، وتَحْتَ هذا المُصْطَلَحِ يَأْتِي ما سَجَّلَه الناقِدُ في مَقالِه على شَارِحِي الحَدِيثِ وكُتُبِ

=يحتاج إلى بيان أو إثبات أو تأسيس؟ وإنما كان الشأن، بحسب ناقدنا، في أن هذه الوحدة انطوت على وحدة اللغة التي بها كُتب التراث، إلى غير ذلك من أمور سنكشف عنها فلا حاجة لاستباقها.

(1) انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص11، 12، 29، 43، وحول نشوءِ الفصحى واكتمال نُضْجِها قبل نزول القرآن وتوحُّدِ لهجات العرب في الجاهلية على لهجة قريش واتخاذها نموذجا أعلى في صياغة الشعر؛ يمكن مراجعة: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 1/117- 137.

(2) انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر اللغة، ص12- 16، 20، 34، 35، 40، 43.

(3) انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص13، 21، 36، 38.

الـمَذاهِبِ الفِقْهِيَّةِ ومُصَنَّفاتِ النَّحْوِ وكُتُبِ التُّراثِ اللُّغَوِيِّ وكُتُبِ البَلاغَةِ، وأيضًا ما سَجَّلَه على الشُّعَراءِ في مُعارَضاتِهِم لِقَصائِدِ الآخَرِينَ وتَحْوِيرِهِم للمَعانِي السَّالِفَةِ فيما عُرِفَ بَعْدُ لَدَى النُّقَّادِ بِبابِ «السَّرِقاتِ الشِّعْرِيَّةِ».

- **امِّحاءُ الحُدُودِ الجُغْرافِيَّةِ**[1]: يُلَخِّصُ هذا العُنْوانُ مَظاهِرَ الاتِّصالِ بينَ أَرْجاءِ العالَـمِ العَرَبِيِّ عامَّةً؛ الغَرْبِيِّ والشَّرْقِيِّ منه خاصَّةً، فالعُلَماءُ يَتَراسَلُونَ فيما بَيْنَهم، وربَّما يَرْحَلُون من مَواطِنِهم للتَّعَلُّمِ أو الـمُراجَعَةِ أو الـمُناظَرَةِ، والكُتُبُ تَنْتَشِرُ بِسُرْعَةٍ عَجِيبَةٍ على أَيدِي الوَرَّاقَةِ، بِوَساطَةِ رِحْلَةِ الحَجِّ السَّنَوِيَّةِ، أما الـمُصْطَلَحاتُ فتَكادُ تَكونُ مُوَحَّدَةً كما يَظْهَرُ في الفَلْسَفَةِ والطِّبِّ مَثَلا، وأَعْظَمُ من هذا، فيما يَرَى، أنَّ عَرَبَ الأَنْدَلُسِ لم يُحاوِلُوا الاستِقْلالَ بِحَرَكَةٍ عِلْمِيةٍ أو فَلْسفِيَّةٍ أَساسُها التَّرْجَمَةُ عن اللاتِينِيةِ، بل تَمَسَّكُوا بالتُّراثِ الـمَشْرِقِيِّ الـمُتَرْجَمِ وغيرِ الـمُتَرْجَمِ، ويَظْهَرُ هذا التَّمسُّكُ كذلك في الأَدَبِ مُمَثَّلا في الهِيامِ بالنَّمَاذِجِ الـمَشْرِقِيَّةِ الشِّعْرِيَّةِ والنَّثْرِيَّةِ وقِيامِهِم باستِلْهامِها.

ولَعَلَّ من الأُمورِ الدَّاعِيَةِ إلى التَّأمُّلِ، في إطارِ البَحْثِ عن مَدَى **قَناعَةِ النَّاقِدِ نَفْسِه بامِّحاءِ الحُدودِ الجُغْرافِيَّةِ** بين الـمَشْرِقِ والـمَغْرِبِ، ما كان مِنه أَثْناءَ قِيامِه بِجَمْعِ مقالاتِه الـمُتَفَرِّقَةِ ونَشْرِها في كتبٍ تارَةً أُخْرى، ذلك أن كِتابًا من الكُتُبِ التي عُنِيَتْ بِهَذا الشَّأنِ يَحْمِلُ عُنْوانًا رَئِيسًا هو: "مِن الـمَشْرِقِ والـمَغْرِبِ"، متفرِّدًا بذلك عن بَقِيَّةِ الكُتُبِ التي نَهَضَتْ بالـمَهَمَّةِ نَفْسِها وأَقْصِد: "في التُّراثِ والشِّعرِ واللُّغَةِ"، و"فُصُول في الشِّعْرِ ونَقْدِه"، و"فِي الأَدَبِ والنَّقْدِ"؛ إذ تَنْبَثِقُ مَرْجِعِيَّةُ عُنْواناتِها من القاسَمِ الـمُشْتَرَكِ في الجانِبِ الـمَوضُوعِيِّ، مَهْمَا كان من

(1) انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص17، 21، 24، 36، 37.

اليَسِيرِ مُلاحَظَةُ أنّه مُتَّسِعٌ فَضْفاضٌ إلى حَدٍّ كَبِيرٍ، على نَحْوٍ يَسْمَحُ بالتآلُف بين المُتَبايِنِ؛ إنَّ هذه الصِّيغَةَ المُتَفَرِّدَةَ: "من المشرق والمغرب"، التي تُحَقِّقُ التَّجاوُرَ بين البِيئَتَيْن، وتَشِي بعَدَمِ اكْتِراثٍ بِطَبِيعَة المادَّة والمُحْتَوى- ربَّما يَصِحُّ أن تكون انْعِكاسًا للوُحْدَةِ القائِمَةِ بينهما، لاسِيَّما وقد يُمْكِنُ إلى جِوارِ ذلك الإِلْماحُ إلى أنَّ الكِتابَ يَقُومُ على عَدَدٍ من المَقالاتِ يَتَكافَأُ فيها نَصِيبُ المَشْرِقِ مع نَصِيبِ المَغْرِبِ؛ سِتُّ مَقالاتٍ؛ لِيُكَرِّسَ بِصُورَةٍ تِلْقائِيَّةٍ، على خِلافِ ما مَرَّ بِنا، التَّعادُلَ بينهما؛ نابِذًا النَّظْرَةَ النَّمَطِيَّةَ التي ابْتَغَتْ تَقْدِيمَ إِحْداهُما على الأُخْرَى في الرُّتْبَةِ والمَنْزِلَةِ(1).

بَقِيَتْ معنا الإِشارَةُ إلى خَطٍّ فَرْعِيٍّ؛ من حيثُ اتِّصالِه بِبَعْضِ ما مَضَى، ومِن حيثُ اخْتِصارِ ضيفٍ الحَدِيثَ عنه اخْتِصارًا؛ بَيْدَ أنه من المُهِمِّ أنْ نَخْتَصَّه بِكَلِمَةٍ مُفْرَدَةٍ؛ لِما له مِنْ قِيمَةٍ عَظِيمَةٍ في تَأْصِيلِ تَصَوُّرِه عن وُحْدَةِ التُّراثِ، ويَتَجلَّى في مَقالِه حين يَتَعرَّضُ للهَيْئَةِ التي خَلَّفَ الأَسْلافُ عليها كُتُبَ التَّراجِمِ والتَّارِيخِ، فإنَّها كمَا يَصِفُ لنا نَوعانِ: نَوعٌ خاصٌّ(2): يُتَرْجِمُ للعُلَماءِ

(1) للمزيد انظر: شوقي ضيف: من المشرق والمغرب؛ بحوث في الأدب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1998م، ص7- 11.

(2) ربما يَخْدُم حديثَ الناقد هنا النَّظَرُ إلى هذا الصِّنْفِ من التراجم من زاوِيَةِ المادة المعروضة نفسها؛ وأقصد المتَرْجَمَ لهم، لا النَّمَط المـُتَّبَع فيها؛ فإن عددًا غفيرًا من علماء الأسلاف لم يكونوا يعرفون التخصصَ العلميَّ الدقيق بمعناه الحديث، فقد نجد مؤلِّفَ الكتاب البلاغي هو نفسه الفقيه أو الأصولي، وطبيعيٌّ حينئذ أن يكون للعالم الواحِدِ ترجمةٌ هنا وهناك وهنالك، وبهذا يتضح أن كتب التراجم الخاصة لم تقم على صناعة الحواجز بين العلوم والعلماء إلا من حيث كونها تطمح لرسم ما يمكن أن نسميه «خريطة» لعلمٍ منها بعينه على تلاحق عصوره واختلاف أقطاره، أما فيما عدا ذلك فهي تعكس بصنيعها ما كان عندهم من قناعة بالوشائج والصلات.

حَسْبَ الفِئَةِ التي يَنْتَمُونَ إليها، لكنَّها تَسِيرُ دُونَ أن تُفرِّقَ بين العُصُورِ ولا بينَ الأقْطارِ، ونَوعٌ عامٌّ: يَجمَعُ إلى جانِبِ عَدَمِ اكتِراثِه بالزَّمانِ أو المَكانِ خَصْلَةً أُخْرَى، وهي أنَّه يُتَرْجِمُ للعُلَماءِ والأُدَباءِ أَبْجَدِيًّا بِغَضِّ النَّظَرِ عن الفِئَةِ التي يَنْتَمِي إليها، ولِذَا يُوجَدُ فيها المُفَسِّرُ بِجوارِ المُحَدِّثِ بِجوارِ الفَقِيهِ بِجوارِ الشَّاعِرِ.. وهو الأَمْرُ نَفْسُه الذي يُلاحَظُ في الكُتُبِ التي عُنِيَتْ بالتَّراجِمِ لِبَعضِ القُرُونِ. إنَّ قِيمَةَ هذا الخَطِّ تَعُودُ لا فَحَسبُ إلى كَونِه يَنْهَضُ بُرهَانًا على صِدْقِ التَّصَوُّرِ، وإنَّما إلى تَجسِيدِه شُعُورَ الأَسْلافِ أَنفُسِهم به وتَأسِيسِهم عليه نَشاطاتِهم العِلْمِيَّةَ المتنوِّعَةَ.

على هذا النَّحْوِ يبدُو ضيفٌ في تَصَوُّرِه لاجِئًا مُلِحًّا إلى ظَواهِرَ «دائِمَةِ التَّمَرُّدِ» على هَيمَنَةِ المُتَغَيِّرَين الزَّمَنِيِّ والمَكانِيِّ؛ أي أنَّها تَتَّسِعُ لِتَستَوعِبَ المَكانَ وتَتَمدَّدُ لتَتَجاوَزَ الزَّمانَ؛ فالقُرآنُ الكَرِيمُ، الذي شَهِدَ نُزُولَه أهلُ مَكَّةَ والمَدِينَةِ، كِتابُ المُسْلِمين مَهْما تَباعدَتْ أقْطَارُهم، وهو ليس كِتابَ مَرْحلَةٍ زَمَنِيَّةٍ، بل هو الكِتابُ المُهَيمِنُ المَحْفُوظُ في السُّطُورِ والصُّدُورِ بِحِفظِ اللهِ، وفي حِفظِه وبَقائِه حِفْظُ اللُّغةِ المَكْتُوبِ بها وبَقاؤُها، وكِتابٌ مِثْلُ تَفْسِيرِ ابن جَرِيرِ الطَّبَرِيِّ (ت: 310هـ)[1]، بِمادَّتِه العِلْمِيَّةِ التي جَمَعَ فيها مَأثُورَ التَّفْسِيرِ، لم يَزَلْ بأَعْيُنِ كلِّ مَنْ أرادَ التَّعامُلَ مع كِتَابِ اللهِ، وكأنَّ العُكُوفَ عليه ضَرِيبَةٌ لابُدَّ من أدائِها قَبْلَ الشُّرُوعِ، ومُعْجَمٌ مثلُ "المُخَصَّصِ" لابنِ سِيْدَه الأَنْدَلُسِيِّ

(1) انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص13. وحول حديثه عن منهج الطبري في التفسير والخصائص التي تَمَيَّز بها عن غيره، بوصفه إمام أهل التفسير بالمأثور؛ انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 4/ 161.

(ت: 458هـ)[1]، يَكَادُ لا يَتْرُكُ كِتابًا قَيِّمًا في التُّرَاثِ اللُّغَوِيِّ الذي سَبَقَه إلا واطَّلعَ عليه وأفادَ منه، بالإضافَةِ إلى بَعْضِ كُتُبِ الفُنُونِ الأُخْرَى، لا يُفرِّقُ بينَ قُطْرٍ وآخَرَ ولا حِقْبَةٍ وأُخرَى، وهو فوقَ هذا تَجْسِيدٌ حَيٌّ للتَّواصُلِ بينَ الـمَشْرِقِ والـمَغْرِبِ، وشاعِرٌ مِثْلُ الـمُتَنَبِّي[2] ليس شاعِرَ الشَّامِ وحْدَها ولا العِراقِ وحْدَها، بل شاعِرُ العَرَبيَّةِ؛ يُرْوَى دِيوانُه ويُشْرَحُ، وتُحاكَى قَصائِدُه وتُعَارَضُ، على اخْتِلافِ الأقطارِ ومرِّ العُصُورِ، ولعلَّ الحَرَكَةَ النَّقدِيةَ حوْلَ شِعرِه التي لا تَزالُ في اتِّساعٍ إلى اليَومِ أكْبَرُ دَلِيلٍ على ذلك، وبهذا الصَّنيعِ تَغْدُو الوُحْدَةُ أَقْرَبَ إلى دَوائِرِ «الثَّابِتِ الـمُسْتَقِرِّ»، لاستِيعابِها «الـمتَعدِّدَ الـمُتَغيِّرَ»؛ حتى وإن كُنَّا سَنُسَجِّلُ، فيما سَيَجِيءُ من مَباحِثِ الفَصْلِ الحَالِيِّ، إقْرارَ النَّاقِدِ بسُنَّةِ التَّطَوُّرِ وتَرْحَابِه بأُطْرُوحاتِ التَّطْوِيرِ.

---

(1) انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص18، 19. وحول حديثه عن جهود ابن سيده اللغوية ومُعْجَمَيْه: "المحكم" المتبع ترتيب معجم العين، و"المخصص" الذي تحدثنا عنه آنِفًا، وما كان من اطلاعه الواسع على التراث اللغوي وغير اللغوي، ونفاذِه إلى آراء تُقارِب آراء علم اللغة المقارن؛ انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 8- عصر الدول والإمارات؛ الأندلس، دار المعارف، القاهرة، 1989م، 8/ 94، 95.

(2) انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص34- 36. وحضور شاعرٍ مثل المتنبي في نتاج ضيف أوسع من أن يشار إليه في هامش من الهوامش؛ لكن ربما كان من الخير أن نلفت هنا فحسب إلى حديثه عن الحركة النقدية المعنيَّة بشعره، خاصة بإقليم إيران، أثناء العصر الذي أسماه عصر الدول والإمارات، وهو يمتد من عام 334هـ إلى العصر الحديث؛ إذ يتخذ من شخصه مرتَكَزًا يتيح له عَرْضَ النشاط النقدي في التراث العربي، فيتوقف عند مؤلفات مثل: "الموضحة" للحاتمي، و"الكشف عن مساوئ المتنبي" للصاحب بن عباد، و"الانتصار المنبي عن فضل المتنبي" للمتيم، و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي الجرجاني، وشرح الواحدي لديوانه.. إلخ، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 5/ 303، 304، 544- 547.

- 2 /2 -

المُعَوِّقاتُ وإجْراءاتُ المُعالَجَةِ

يُمكنُ الآنَ أنْ نُفْسِحَ المَجالَ أمامَ العَدَسَةِ الثَّانِيَةِ ؛ لِتُحَدِّدَ المُعَوِّقاتِ التي قد تَتَراءى لِلْبَعْضِ في طَرِيقِ إنْجازِ التُّراثِ وُحْدَتَه، وتُراقِبَ عن كَثَبٍ ما اتُّخِذَ من إجْراءاتِ الناقدِ إزاءَها، عاكِسَةً جُهُودَه في اخْتِبارِ صِدْقِ تَصَوُّرِه على المُفْرَداتِ، وسَنَعْرِضُ لخَمْسَةِ معوِّقاتٍ منها ؛ هي :

- **التَّعدُّدِيَّةُ السِّياسيَّةُ**: يُؤَكِّدُ ناقدُنا أنَّ التَّعدُّدِيَّةَ السِّياسِيَّةَ التي ظَلَّلَتْ أقْطارَ العالَمِ الإسلامِي لم تَنْعَكِسْ آثارُها على العُلَماءِ ؛ فقدْ كانُوا دائِمًا "يشعرون بأنهم علماءُ قُطْرٍ واحدٍ، بل علماء مؤسسة علمية واحدة تمتد أطنابها حتى تشمل الوطن العربي جميعه"[1] ، "وأن أقطاره وإن انفصلت سياسيا فإنها لم تنفصل روحيا ولا ثقافيا ولا علميا ولا أدبيا"[2] ، ويُلاحَظُ أنَّه لم يَتَمَهَّلْ في مُعالَجَةِ هذا المُعَوِّقِ، لأنَّ المَقالَ مَشْحُونٌ بدَلائِلَ مُتَكاثِرَةٍ تَدْعَمُ زَعْمَه.

- **التَّجْدِيدُ في الشِّعْرِ**[3] : المُعَوِّقُ الثَّانِي والأَهَمُّ أمامَ قِيامِ الوُحْدَةِ في ظَنِّ قاعِدَةٍ عَرِيضَةٍ من المُثَقَّفِين، يُمكِنُ أن يَتَجَسَّدَ ذلك في سُؤالٍ مُؤدَّاه : كَيفَ يَصِحُّ القَولُ بِوُجُودِ وُحْدَةٍ في التُّراثِ الشِّعرِي وهو لا يَزالُ يَتَغَيَّرُ من عصرٍ لآخَرَ في شَكلِه ومَضمُونِه؟ ويَستَوقِفُنا أنَّ المَواطِنَ التي عُولِجَتْ فيها هذه القَضِيَّةُ، لم تُصَوِّرْ وُحْدَةَ التُّراثِ الشِّعرِي بتَناوُلِها عَناصِرَ الثَّباتِ المَورُوثَةِ،

---

(1) شوقي ضيف : في التراث والشعر واللغة، ص24.

(2) شوقي ضيف : في التراث والشعر واللغة، ص26.

(3) انظر : شوقي ضيف : في التراث والشعر واللغة، ص29- 33.

وإنَّما سَلَكَتْ سَبِيلا مُخْتَلِفَةً مُعاكِسَةً، فَراحَتْ تَرْصُدُ عَناصِرَ التَّجْدِيدِ الذي أَصابَ الشِّعْرَ في عَصْرَيه: الأُمَوِيِّ والعبَّاسِيِّ؛ يَتَطوَّرُ الشعر في العصر الأُمَوِيِّ بِحَسْبِه في الغَزَلِ بفَرْعَيه: الوِجْدانِيِّ والـمُتْرَفِ، وفي الهجاءِ عِنْدَ جَرِيرٍ (ت: 110هـ) والفَرَزْدَقِ (ت: 110هـ) وفي وَصْفِ الطَّبيعَةِ البَدَوِيَّةِ عِنْدَ ذِي الرُّمَّةِ (ت: 117هـ)، وفي الأَراجِيزِ عِنْدَ رُؤْبَةَ (ت: 145هـ)، وبينما يبدُو هنا التَّرْكِيزُ على تَطوُّرِ الـموضُوعاتِ، فَسَوف يَبْدو التَّرْكِيزُ إزاء الشعر في العصر العَبَّاسِيِّ على تطَوُّرِ الـمُوسِيقَى، الذي تَمَثَّلَ في كَثْرَةِ تَجْزِئَةِ الأَوزانِ التَّقْلِيدِيَّةِ والنُّفُوذِ إلى أَوزانٍ جَدِيدَةٍ وبَعْضِ التَّجْدِيداتِ في القافِيَةِ، لِيَخْلُصَ في هُدُوءٍ إلى أنَّ كُلَّ هذا التَّطَوُّرِ كان مُحَجَّمًا بحُدُودِ ما أَسْماه «مُقَوِّماتِ شَخْصِيَّةِ الشِّعْرِ العَرَبِي»، وهي خُلاصَةٌ مَهَّدَ لها بإِجْراءاتِه؛ إذ ما فَتِئَ يَرُدُّ كلَّ تَجْدِيدٍ فيما سَبَقَ إلى أُصُولِه القَدِيمَةِ الـمَورُوثَةِ منذ العَصْرِ الجاهِلِيِّ، أو يُبَرِّرُ وُجُودَه وذُيُوعَه بأنَّه لا يَنْبُو مُطْلَقًا على الذَّوقِ العَرَبِيِّ الأَصِيلِ.

- **الـمُوَشَّحاتُ الأَنْدَلُسِيَّةُ والشِّعْرُ الحُرُّ الحَدِيثُ**[1]: صُورَتانِ من صُوَرِ التَّجْدِيدِ في مَسِيرَةِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، وهل يُفْهَمُ من هذا اتِّصالُهما بالـمُعَوِّقِ الفائِتِ؟ نَعَمْ هو كذلك؛ وإنَّما فَصَلْنا بينَهما لِسَبَبَينِ رَئِيسَينِ؛ الأول: أنَّهما قد تَعرَّضَتا لأَحْكامٍ طالَما أَخرَجَتْهما ضِمْنًا عن «حَظِيرَةِ التُّراثِ»، بجَعْلِهما في مَكانٍ قَصِيٍّ عن دَائرَةِ الفُنُونِ الجَدِيرَةِ بالدِّراسَةِ[2]، والآخر: أن ناقِدَنا قد اتَّخَذَ

---

(1) شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص37- 39.

(2) يمكن على نحو مُجْمَلٍ القول: إن استقبال فَنِّ الـموشَّح في الأوساط العلمية الثقافية قد سادَه غيرُ قليلٍ من الجفاء والتغاضي؛ فابنُ عبد ربه الأندلسي (ت: 328هـ)، على سبيل التمثيل، رغم ما يُقال عن صِلَتِه بفنِّ الـموشحات ونَظْمِه على غِرارِها، يُجنِّب كتابَه: "العقد الفريد" ذِكرَها، وكأنها شيئا غير

=

أثْنَاءَ مُعالَجَةِ الإشكالاتِ التي يُثِيرانِها إجْراءاتٍ مُغايِرَةً. فيما يَخُصُّ الـمُوَشَّحاتِ حاولَ أن يُقيمَ بيْنها وبيْن الـمُسَمَّطات العَبَّاسِيَّةِ[1] عَلاقَةً تُفْضِي

=مُجْلٍ بإقليمه، وربما تنطوي بعض أبيات منظومته الشهيرة في العروض على ذكر السبب في ذلك؛ حين يقول، بعد فراغِه من توصيف الدوائر العروضية التي يُعرَف بها مستَخْدَم البحور من مُهْمَلها:

هَـــذا الَّــــذي جَرَّبَـــه المُجَــــرِّبُ مِـــنْ كُــلِّ مَـــا قَالَــت عَلَيْـــه العَـــرَبُ
فَكُـــلُّ شَـــيْءٍ لَـــمْ تَقُـــلْ عَلَيْـــهِ فَإِنَّنَــــا لَـــــمْ نَلْتَفِـــتْ إِلَيْـــــه
وَلا نَقُـــول غَيْـــرَ مَـــا قَـــدْ قَـــالُوا لأَنَّـــــهُ مِـــــنْ قَوْلِنـــــا مُحَـــــالُ

وكأنه يعرِّض بالصور المخالِفة للعروض الخليليِّ في عصره، التي يأتي الموشَّح على رأسها، انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، الهيئة العامة لقصور الثقافة؛ ضمن سلسلة: الذخائر (نسخة مصورة عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)، القاهرة، 2004م، 5/ 441، وابن بسام (ت: 542هـ)، رغم إشاراته لفن الموشحات التي ربما تعكس زَهْوًا بالأندلسيين وإبداعهم؛ لم يعتنِ بها على الإطلاق في ذخيرته، ويصرح بالعامل الذي أدَّى إلى تحاشيه روايتها؛ قائلا: "وأوازن هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب"، انظر: ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997م، 1/ 470، بل يبلغ الحال بعبد الواحد المراكشي (ت: 581هـ) أن يتعلل لعدم روايته موشحات ابن زهر أثناء الحديث عنه بقوله: "ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له بعض ما بقي على خاطري من ذلك"! انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م، ص92. أما الشعر الحُرُّ؛ فيكفي تذكُّرُ موقف العقاد، وهو من هو احتفاء بالتجديد ونبذا للتقليد، أو على الأقل هكذا كان يقدم نفسه في كتبه ومعاركه؛ فإنه لم يَكَدْ يُلِمُّ بخَبَرِ هذا التيار الساعي للتجديد في الجانب الموسيقي للبناء الشعري، المتمرِّدِ على أعباء الوزن والقافية، حتى تَصَدَّى له بقسوةٍ شديدة، واضعًا الناهضين به أمام خيارين سيئين للغاية؛ فإما أن يكونوا بحسب رأيه عاجزِين عن مُجاراة النَّسقِ القديم وإما أن يكونوا دعاةَ هَدْمٍ عن خُبْثٍ وسوءِ نِيَّةٍ، انظر: العقاد: اللغة الشاعرة، نهضة مصر، القاهرة، 1995م، ص27- 32.

(1) الـمُسَمَّطات: قصائد تَتَألَّف من أدْوارٍ، يتركب كل واحد فيها من أربعة شطورٍ أو أكثر، حتى لقد تَصِلُ إلى ثمانيةٍ، تَتَّحِد في قافيتها عَدا الأخيرِ منها، فإنه يَستقلُّ بقافيةٍ تتفقُ وقوافيَ الشطورِ الأخيرةِ في =

إلى أن تَكُونَ الأُولَى مُتَطَوِّرَةً عَن الأُخْرَى؛ مَدْفُوعًا فيما يَظهَرُ بِغَايَةِ إيجادِ «الأَصلِ التُّراثِي» الذي تَمَّ التَّجْدِيدُ على هَدْيِه من جانِبٍ، وتَضييقِ مِساحَةِ هذا التَّجْدِيدِ بحَيثُ يَقِفُ عِنْدَ كَثْرَةِ التَّفَنُّنِ والتَّنويعِ في شُطُورِها وقَوافِيها من جانِبٍ آخرَ، ولا يَكْتَفِي بهذا، بل يُحاوِلُ أن يُوظِّفَ الـمُوشَّحَاتِ نَفْسَها في تصويرِ الوُحْدَةِ، فيَقُومُ بِرَصْدِ نِقاطِ التَّماسِّ بيْنَها وبيْن القَصِيدَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ؛ فَفِكْرَةُ الشَّطْرِ والقافِيَةِ أَسَاسٌ في كِلَيهِما، غيرَ أنَّ الشُّطُورَ في الـمُوَشَّحاتِ لا تَطُولُ كما في التَّقْلِيدِيَّةِ، والـمَوضُوعاتُ والأَخْيِلَةُ والـمَعانِي واحِدَةٌ، وتَكَادُ صِيغُ الـمُوَشَّحِ أن تَكُونَ قائِمَةً على اختِيارِ أَنْصَعِ الصِّيَغِ الـمَبْثُوثَةِ في أُخْتِها التَّقْلِيدِيَّةِ، ويُدَلِّلُ على الوُحْدَةِ أَخِيرًا بِقَبُولِ الذَّوقِ العَرَبِي لها وانتِشارِها، الأمْرُ الذي أدَّى إلى أنْ يُوضَعَ عَرُوضُها في الإقليمِ الـمِصْرِيِّ على يَدِ ابنِ سَنَاءِ الـمُلْكِ (ت: 608هـ)، لا في الأندَلُسِ؛ مَوطِنِ النَّشْأَةِ، وفيما يَخُصُّ الشِّعْرَ الحُرَّ[1] يُقرِّرُ أنَّه لا يَزَالُ يَحْتَفِظُ بِوَمِيضٍ من تلك الخَصائِصِ الجَمَالِيَّةِ للشِّعرِ

=الأدوار المختلفة، ولذا يُسَمَّى عمودُ المسَمَّط أو قُطْبُه الذي يدور حَوْلَه، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 3/197- 200، وفصول في الشعر ونقده، ص40، 71، 72.

(1) الشعر الحر مصطلح يُثِيرُ كثيرًا من الإشكالات في العصر الحديث، فمن حيث المعنى المعجمي، الذي تحيل عليه مفرداته، نجد أنفسَنا أمامَ شعرٍ متحرِّرٍ من القيود والتقاليد الفنية الخاصة بالجانب الإيقاعي، وربما التقى حينها بالمصطلح الإنكليزي *Free Verse*؛ الذي يشير إلى نَمَطِ "الشعر المنثور"، في حين ذاع المصطلح في الدراسات العربية حديثا عَلَمًا على نمط لم يتحرَّرْ تمامًا من هذه القيود، بل لم يزل يترَسَّم خُطاها؛ حين اتخذ من التفعيلة الخليلية وحدة موسيقية صُغرى لسطوره، محقِّقًا في أحيان كثيرة وحدةَ القافية لمقاطعه والتشاكل الصوتي لألفاظه، ومن أجل هذا ظهرت محاولات شتى للتَّخَلُّص من هذا الاضطراب، فاقترح بعضهم، مثل محمد النويهي في سياق هجوم قاسٍ على المصطلح، أن يسمَّى بالشعر "المرسل" أو "المنطلق"، بَيْد أنه يعود ليستدرك على تسميته بالمرسل؛ نظرا لأنها أطلقت على نوع من الشعر الحديث المتحرِّر من القافية، وبعضهم يقترح، مثل عز الدين

=

العَرَبِيِّ، في صياغَتِه ومُوسِيقاهُ، خَاصَّةً عِنْدَ الذين أكَبُّوا مِنْ أَصْحابِه في مُسْتَهَلِّ حَياتِهِم الشِّعْرِيَّةِ على التُّراثِ الشِّعْرِيِّ.

- **التَّجْدِيدُ في النَّثْرِ:** قَرِينُ التَّجْدِيدِ في الشِّعْرِ؛ فمَذاهِبُ النَّثْرِ لم تَثْبُتْ على حالٍ جامِدَةٍ مُنْذُ الجاهِلِيَّةِ إلى العَصرِ الحَدِيثِ(1)، وإنَّما سَلَكَتْ سَبِيلَ التَّطَوُّرِ

=الأمين، أن يسمى "شعر التفعيلة"، بالنظر إلى أساسه العروضي ولإقامة الفروق بينه وبين الأشكال الشعرية الحديثة الأخرى، هذا، ويقف بعضهم، مثل عبد الله الغذامي، من هذه المحاولات موقف الرفْضِ، معضِّدًا التسمية التي ذاعت أولَ مَرَّة، مسوغا رأيه بأحقية مستخدم المصطلح في تضمينه ما شاء من مفهومات، ليتلاءم وبيئته الجديدة، مشدِّدا على خطورة تغيير المصطلحات ما دامت تؤدي الغرض، حول هذه القضية؛ انظر: نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، *1983*م، ص*50- 62*، والنويهي: قضية الشعر الجديد، الخانجي، القاهرة، ط*2*، *1971*، ص*451- 456*، وعز الدين الأمين: نظرية الفن المتجدد وتطبيقها على الشعر، دار المعارف، القاهرة، ط*2*، *1971*، ص*108*، والغذامي: الصوت القديم الجديد؛ دراسات في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، *1987*م، ص*11- 15*، والذي يستوقفنا هو أن ناقدنا لم يُلقِ بالا لهذا كله، بل راح يوظِّف المصْطَلحَ دون أن نَظْفَرَ في كتاباته بتحديدٍ نَظَرِيٍّ للمفهوم، على أن تأمل السياقات واستنطاق الممارسات، في مواطن متعدِّدة من موروثه النقدي، يُنبِئان عن استقرار تصوره إزاء بعض المصطلحات؛ فالقصيدة "التقليدية"، بحسبه، هي القصيدة في شكلها الموروث؛ القائمةُ على شَطْرَين والمتوفِّرُ فيها الوزنُ على بحور الخليل والقافيةُ الموحَّدة، وقصيدة الشعر "المرسل" هي القصيدة التي لا تتوحد فيها القافية لكنها تأخذ بنظام الوزن على بحور الخليل، وقصيدة الشعر "الحر" هي القصيدة التي تتحرر من وحدة القافية ومن الوزن حاشا التفعيلات، مفرَدةً أو مركَّبةً، دون التزامِ عددٍ معيَّن لها أو توزيعٍ لها على شطرين، أما "قصيدة النثر" فيتحرر فيها الكاتب من القافية والوزن بتفعيلاته مطلقا، ولذلك رفض تسميتها بهذا الاسم؛ لأنها بحسبه نثرٌ خالِص ينبغي تنحيتُه عن مسيرة التجديد الموسيقيِّ الرشيد لشعرنا العربي، انظر: شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص*301- 319*، ومحاضرات مجمعية، مجمع اللغة العربية، القاهرة، *1998*م، ص*137- 149*.

(*1*) انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط*3*، ص*5- 11*.

والتَّحَوُّلِ بِخُضُوعِها لِعَوامِلَ مُخْتَلِفَةٍ، لعلَّ على رأسِها نُزُولَ القُرآنِ، وامْتِزاجَها بالشُّعُوبِ والثَّقافاتِ المتَبايِنَةِ في الأَقْطارِ العَرَبِيَّةِ، وهو أَمْرٌ تَوَلَّدَ عنه من جانبٍ آخَرَ نَشْأَةُ بَعْضِ فُنُونِ النَّثْرِ الجَدِيدَةِ، وهنا نَجِدُ أَنْفُسَنا إزاءَ سُؤَالٍ مرَّ بنا قَبْلَ ذلك نَظِيرُه أثناءَ الحديث عن التَّجْدِيدِ الشِّعْرِيِّ، وهو: كيفَ تَتَحَقَّقُ وُحْدَةٌ للتُّراثِ النَّثْرِيِّ في هذه الحالَةِ؟ ويَفْجَؤُنا صَنِيعُ الناقِدِ؛ إذ يَلْجَأُ إلى تَغْييرِ إِجْراءاتِه لِمُعالَجَةِ هذا المُعَوِّقِ، رَغْمَ شَراكَتِه مُعَوِّقَ التَّجدِيدِ الشِّعرِي في خَصائِصِه ومُلابَساتِه، فَيَتَوقَّفُ عنْدَ هذه المَذاهِبِ وتِلْك الفُنُونِ؛ لِيَتَّخِذَ من تَسَرُّبِها في البِيئاتِ الأُخرَى مَظْهَرًا من مَظاهِرِ الوُحْدَةِ، لأنَّه "كان كلما ظهر مذهب أدبي قويم في بيئة من بيئاته شاع في البيئات الأخرى"[1]، ولأنه كان "إذا ظهر فن نثري جديد في بيئة عربية لم تلبث البيئات العربية الأخرى أن تسهم فيه وسرعان ما يصبح فنا نثريا عربيا عاما"[2].

- **الثَّورَةُ على العَنَاصِرِ التَّقْلِيدِيَّةِ:** المُعَوِّقُ الأخِيرُ الذي تَوَقَّفَ لدَيه ناقِدُنا، ويُمَثِّلُ له بأبِي نُوَاسٍ (ت: 199هـ) في ثَوْرَتِه على عُنْصُرِ الأَطْلالِ في القَصِيدَةِ الجَاهِلِيَّةِ، وما كان من تَفْسِيرٍ لها بأنَّها ثَورَةٌ «شُعُوبِيَّةٌ» ضِدَّ العُرُوبَةِ وكلِّ ما يَتَّصِلُ بها[3]، وفي سَبِيلِ مُعالَجَةِ هذه الأَزْمَةِ يقولُ ضيفٌ: "وهي في واقعها

(1) شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص42.

(2) شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص43.

(3) النزعة الشعوبية: نزعة قومية ذات بُعْدٍ فكري شاعت أولا في العصر العباسي، قوامُها الإزراء على العرب وتتبع مَثالِبِهم، والافتخار بمآثر الشعوب الأعجمية، فهي إذن نِسْبَةٌ غير قِياسيَّة إلى الشعوب، وقد تضافرت عوامِلُ شتّى في نشأتها ونموِّها، منها ما يعود إلى خُبْثِ طَوِيَّة بعض القوميِّين الموتُورِين لذهاب أمجادهم على أيدي المسلمين الفاتحين الذين كان أكثرُهم عَرَبًا، ومنها ما يعود إلى الثقافات الوافِدة التي أضعفت صلتّهم بالدين وأيضا اللغةَ التي نُزّل بها القرآن ومن يَتحدَّث بها، ومنها ما يعود إلى سُوء معاملة

=

كانت ثورة شاعر ماجن أسرف على نفسه في اللذات.. ولم يستجب له أحد من المعاصرين.. بل إن أبا نواس نفسه لم يستجب إلى دعوته في افتتاح كثير من قصائده"(1)، ثُمَّ يُنشِدُ تَدْلِيلا على ذلك بَيْتًا لأبي نُوَاسٍ يقول(2):

يَـــا دَارُ مَـــا فَعَلَـــتْ بِـــكِ الأَيَّـــامُ
ضَـــامَتْكِ وَالأَيَّـــامُ لَـــيْسَ تُـــضَامُ

في هذا النَّصِّ الفائت، الذي اجتَزَأْنا خُلاصَتَه، لم يَلْجَأْ ناقِدُنا مُباشَرَةً إلى الإقْرارِ بأَمْرِ هذه الثَّورَةِ، كَمِثْلِ ما صَنَعَ مع التَّجْدِيدِ الشِّعرِي، أو حَتَّى مع مَذاهبِ النَّثرِ وفُنُونِه الجَدِيدَةِ، إذ لا يَزالُ أمامَه مُتَّسَعٌ لِلإفْضاءِ بِتَفْسِيرٍ لهذه الثَّورَةِ يُهَوِّنُ من شَأْنِها؛ إن لَمْ يَنْفِها تَمَامًا، وهو أَنَّها لم تَكُن ثَورَةً يُقْصَدُ بها

=بعض القادة للموالي وإقصائهم عن مواطن التشريف، وقد شُغِل وقتئذٍ غيرُ واحد بالرد على مزاعمهم، يجيء على رأسهم الجاحظ وابن قتيبة، حول تفصيل هذا ينظر: الجاحظ: البيان و[التبين]، 3/ 5- 48، وابن قتيبة: فضل العرب والتنبيه على علومها [اشتهر باسم: الرد على الشعوبية]، تحقيق: وليد محمود خالص، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1998م، ص33- 206، وشوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 3/ 74- 79، 203، 208، 4/ 97- 99.

(1) شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص33؛ باختصار.

(2) لمراجعة هذا البيت الذي أنشده ضيف؛ انظر: أبو نواس: ديوانه الشعري، بعناية: إسكندر آصاف، بشرح: محمود واصف، المطبعة العمومية، القاهرة، 1898م، ص63، وهو من قصيدةٍ شهيرةٍ يَمْدَح فيها الخليفةَ العباسيَّ الأمين (ت: 198هـ)، ويمكن أن نضع إلى جواره، قصيدته في مدح هارون الرشيد (ت: 193هـ) البادئة بقوله:

لَقَـدْ طَـالَ فِـي رَسْـمِ الـدِّيارِ بُكَـائِي وَقَـدْ طَـالَ تَـرْدَادِي بِهَـا وَعَنَـائِي

انظر: أبو نواس: ديوانه الشعري، ص62، وأيضا قصيدته التي يمدح فيها الفضل بن يحيى (ت: 193هـ) البادئة بقوله:

أَرَبْـعَ البِلَـى إنَّ الخُـشُوعَ لَبَـادِ عَلَيْـكَ وإنِّـي لَـمْ أَخُنْـكَ وِدَادِي

انظر: أبو نواس: ديوانه الشعري، ص73.

إلى «الشُّعُوبِيَّةِ» بل إلى مُجَرَّدِ «التَّمَاجُنِ»، وهو تَفْسِيرٌ سَنَجِدُه بِهَيْئَتِه الأولى في كِتاباتِه السابِقَةِ عن الشَّاعِرِ، إذ سَنَلْقَى التَّشْدِيدَ على ضَرورَةِ قِراءَةِ شِعْرِه قِراءَةً تَتَلاءَمُ ومُقَوِّماتِ شَخصِيَّتِه، والخُلُوصَ إلى أنه يَنْبَغِي ألا نُمِرَّ ما بِشِعْرِه من تَغَنٍّ بالفُرْسِ أو ازْدِراءٍ لِلْعَرَبِ على أَنَّه شُعُوبِيَّةٌ جادَّةٌ؛ لِما عُرِف عن تَماجُنِه وحياتِه الـمُخْلِصَةِ للعَبَثِ، الأمرُ الذي ساقَه إلى مُخالَفَةِ أُسْتاذِه طه حسين في ذَهابِه إلى أَنَّه كان شُعُوبِيًّا حَقًّا[1]، ثم يُشَتِّتُ أخِيرًا شَمْلَ الثَّورَةِ وآثارَها بِما يُمْكِنُ أن نُعِيدَ صِياغَتَه على النَّحْوِ الآتي: هَبْ أَنَّها كانت ثَورَةً ذاتَ أَبْعادٍ فِكْرِيَّةٍ، فَهُناكَ ما سيُثْبِت شُذُوذَها وأنها كانت صيحةً في فِنْجانٍ: عَدَمُ استِجابَةِ الآخَرِين من مُعاصِرِيه له، وعَدَمُ استِجَابَتِه هو لِنَفْسِه.

بِقَدْرِ ما كان يُمكِنُ أن تَعْتَرِضَ هذه الـمُعَوِّقاتُ وُحْدَةَ التُّراثِ يبدُو أَنَّها اعْتَرَضَتْ صِياغَةَ الناقِدِ تَصَوُّرَه، ولذلك اتَّسَمَتِ الـمُعالَجَةُ بالتَّنْوِيعِ في الإِجْراءاتِ الـمُسْتَخْدَمَةِ والبَثِّ الـمُكَثَّفِ لآرائِه النَّقْدِيَّةِ، وفي رَأْيِنا أنها بِصُورَةٍ مُجْمَلَةٍ كانت **مُتَماسِكَةً مَنْهَجِيًّا** إلى حَدٍّ بَعِيدٍ، ويُمكِنُ الرُّجُوعُ إلى مُعالجَتِه قَضِيةَ التَّجْدِيدِ في الشِّعرِ للتَّأَكُّدِ من ذلك؛ وقد مرَّ بنا أَنَّه قامَ بتَسْلِيطِ الأَضْواءِ على مِساحَةِ التَّجْدِيدِ، ولم يَجْعَلْ «عَناصِرَ الثَّباتِ» مِحْوَرًا لِحَدِيثِه، وسَنُشِيرُ

---

(1) حول هذه القضية؛ انظر: طه حسين: في الأدب الجاهلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1927م، ص174، وحديث الأربعاء، دار المعارف، القاهرة، ط14، 1993، ص90- 97، 134- 136، وشوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط4، ص99، 159، 161، وتاريخ الأدب العربي، 3/ 230، 231. على أنه من الضروري الإشارة؛ حتى تستتم الصورة، إلى أن طه حسين نفسه كان قد اتخذ من مجون الشاعر سلوكًا مِحْوَرِيًّا، في كتابه حديث الأربعاء، ليتمكن من تفسير كثيرٍ من الظواهر الحياتية والفنية.

الآنَ إلى ثلاثةِ أُمورٍ تُجَلِّي لنا مَواطِنَ التَّوفِيقِ فيما فَعَلَ: الأَوَّلُ: أنَّ الناقِدَ نَفْسَه هو صاحِبُ كِتابِ: "التَّطَوُّر والتَّجدِيد في الشِّعرِ الأُمَوِي"، الذي يُعرِّف به في أوَّلِ فِقْرَةٍ من فِقْراتِه قَائِلا: "يقوم هذا البحث على أسس نظرية جديدة تناقض أشد المناقضة ما استقر في نفوس الباحثين في الشعر العربي من أن الطبقة التي كونها هذا الشعر في عصر بني أمية تشبه تمام الشبه الطبقة الجاهلية، إن لم تتحد معها في خصائصها الفنية تمام الاتحاد.. ونحن لا نكاد نلقي عنا هذا الحكم وما مد بين أعيننا وبين رؤية الحقائق الفنية لهذا العصر من حجب، وندخل في دراسة الدواوين الأموية باحثين وناقدين ومحللين حتى نرى رأي العين أننا ندخل في عالم جديد مباين أشد المباينة وأوضحها للعالم الفني القديم عالم العصر الجاهلي"[(1)]، فلو كان أَنْكَرَ التَّطَوُّرَ أو غَيَّرَ في صُورَتِه التي رَسَمَها هناك لعُدَّ ذلك منه تَناقُضًا، ولو أنه لَمْ يُفَصِّلِ القَولَ في مَظاهِرِ التَّطَوُّرِ لَعُدَّ هذا منه هُرُوبًا من ساحَةِ النِّقاشِ الحَقِيقِيَّةِ التي اصْطَنَعَها «خَصْمُه الاعْتِبارِيُّ»،

(1) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط1، صفحتي: (ج ، د) من المقدمة؛ باختصار، ومع أنه عاد بعد ذلك بسبع سنين تقريبًا يُزيل ما قد ينشأ من لَبْسٍ في فَهْمِ حديثه، حين يُفَسَّر على أنه يَنْفِي الصلةَ بين الشعر الأموي والجاهليِّ، فأكَّد على أنه لم يَقْصِد إلى ذلك، مصرِّحًا باعتقاده في أن هذه الصلة لم تتحقق فحسب بين الأمويِّين والجاهليين، بل بين شعراء العربية في جميع العصور؛ مع ذلك فقد بَقِيَتْ فكرةُ تطور الشعر قائمةً، بل نلحظ أيضا أنها اتسعت لتشمل عصرَ الرسالة والخلافة، انظر: شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط6، ص5، 13- 21، وستلقانا بعد ذلك في حديثٍ مستفيضٍ أثناء الجزء الثاني من سلسلة تاريخ الأدب، حين يعرض لأثر القرآن والقِيَم الرُّوحيَّة الجديدة والفتوح التي صاحبت نَظْمَه، وإلى جوار ذلك تجيء دراسةٌ خصبة للشعر الأموي، تئول إلى النتائج نفسها، وربما كان الشيء الجديد الجدير بالذكر، وهو يعود إلى المادة لا إلى الفكرة، أنه تَنَبَّه إلى بيئة خراسان التي قلما اعتنى بها الدارسون، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 2/ 42- 76، 161- 165، وأيضا له: البحث الأدبي، 50- 52.

والأَمْرُ الثَّانِي: أنَّ الوُقُوفَ في مِنطَقَةٍ بَعِيدَةٍ عن التَّطَوُّرِ هو وَحْدَه الكَفِيلُ بتَضْخِيمِ المَشْهَدِ، وباسْتِدامَةِ النَّظَرِ إليه سَنَشْعُرُ حَتْمًا بِضَآلَتِه، وهذا عَيْنُ ما يُرِيدُ ناقِدُنا الإبانَةَ عنه، ومِن ثَمَّ لم يَرَ بُدًّا من اتِّخاذِ هذه الخُطْوَةِ ما دامَتْ سَتَكْشِفُ عن حَقِيقَتِه، والأَمْرُ الثالِثُ: أنَّ تَحْدِيدَ عَناصِرِ التَّجْدِيدِ بحَجْمِها الحَقِيقِيِّ يَنْطَوِي في الوَقْتِ نَفْسِه على الاعْتِرافِ بِبَقاءِ عَناصِرِ الثَّباتِ المُتَمَثِّلَةِ فِيما أَسْماهُ مُقَوِّماتِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، وفي هذا ما يُؤَكِّدُ تَحقُّقَ الوُحْدَةِ، بَلْ أَيْضًا يُثَبِّتُ مَفْهُومَها؛ مِنْ حَيْثُ إِنَّها سَتَتَراءَى حِينَئِذٍ في حِسِّ المُتَلَقِّي أَصْلًا لا يَضِيرُه ما يَحْدُثُ في فُرُوعِه هنا أو هناك من تَغَيُّراتٍ، بما أَنَّ هذه التَّغَيُّراتِ نَفْسَها سَتُجَذِّرُ علائِقَها الَّتِي تَتَأَبَّى على الفَصْمِ عن هذه الحَرَكَةِ المُسْتَمِرَّةِ التي يُحْدِثُها التُّراثُ بِصُورَةٍ تَراكُمِيَّةٍ.

- 3 /2 -

ثغرات الصياغة

على أنَّ تَشْيِيدَ النَّاقِدِ صَرْحَ تَصَوُّرِه لم يَسْلَمْ من ثُغراتٍ تَعْتَوِرُه، سَيَكُونُ من وَظِيفَةِ العَدَسَةِ الثَّالِثَةِ الكَشْفُ عنها والإِلْماحُ إلى أثرِها في قَناعاتِ المُتَلقّي؛ بوَساطَةِ صَفْحَتَي وَجْهِهَا، اللَّتينِ تَرْقُبان في آنٍ صيغَةَ التَّصَوُّرِ النِّهائِيَّةِ وبَقِيَّةَ نِتاجِ الناقِدِ، وتَحْتَ العُنْواناتِ الآتِيَةِ يمكن أن نعْرِضَ لثَلاثٍ مِنْها:

- **التَّوصيفُ والتَّقْويمُ:** إنَّ بَيانَ قِيمَةِ المَظاهِرِ التي ساقَها ضيفٌ لِتَأكِيدِ وُحْدَةِ التُّراثِ وإثباتِها مَرْهُونٌ بالحُكْمِ عليها، لا بِمُجَرَّدِ الإِخْبارِ عن وُجُودِها وتَحَقُّقِها، وقد يَكُونُ هذا الإِخْبارُ مَقْبُولا حالَةَ اتِّخاذِ مَوقِفٍ «حِيادِيٍّ» منها، إن صَحَّ هذا التَّعْبيرُ، وهُو الأَمْرُ الذي يَنفِيه السِّياقُ، فالوُحْدَةُ بِحَسْبِ ناقِدِنا مَفْخَرَةٌ من مَفاخِرِ التُّراثِ العَرَبِيِّ، فهل هكذا مَظاهِرُها أو شَيءٌ آخرُ؟ الحَقُّ أنَّ الصِّياغَةَ تُوقِعُنا في حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ؛ حينَ تَسُوقُ مَظاهِرَ كان قد اتَّخَذَ منها مَوقِفَ الذَّمِّ والرَّفضِ من قَبْلُ! نَضْرِبُ لذلك مَثَلا قَضِيَّةَ مُحاكاةِ الشُّعَراءِ بَعْضَهم وسَرِقاتِهم ومُعارَضاتِهم، فإنَّها سِيقَتْ هنا لِتَأكِيدِ وُحْدَةِ التُّراثِ الشِّعْرِيِّ، دُونَ بَيانِ هل كانت خَيرًا له أو أنها ضَيَّقَتْ عليه الخِناقَ بما فَرَضَتْ من قَوالِبَ يُبْدِئُ فيها الشُّعراءُ ويُعِيدُون؟ وباستِصْحابِ طَبِيعَةِ مَوقِفِه من المَظاهِرِ الأُخْرَى سيَحُسُّ القارِئُ بارْتِياحِ الناقِدِ وانْشِراحِه بها، وبِمُراجَعَةِ ما كَتَبَ في غَيرِ هذا المَوطِنِ سيَتَمَلَّكُ القارِئَ العَجَبُ والحيرةُ، إذ سَيُقابِلُ تَصريحًا باستِهْجانِه القَوِيِّ لها، ويَكْفِي، على سَبيلِ التَّمْثِيلِ، أنْ نُشِيرَ إلى مَقالٍ بِعُنوانِ: "شِعْرِ المُناسَباتِ"؛ مَضْمُونُه المُقاوَمَةُ الشَّدِيدةُ لذلك النَّمَطِ من الشِّعْرِ؛ ويَسُوقُه مَوقِفُه إلى التَّلْوِيحِ الصَّارِمِ في وَجْهِ تَشابُه النَّماذِجِ في المَورُوثِ الشِّعْرِي

العَرَبِيُّ، بقَولِه: "وأكاد أقول إن الشعر العربي في عصوره المختلفة ليس أكثر من مصنع كبير كان يدخل فيه الشعراء كما يدخل العمال في مصانعهم الكبيرة، فيجدون قوالب جاهزة مهيئة لأن يصبوا فيها ما يريدون، من مديح أو تهنئة أو تعزية أو عتاب.. وهذا الإنتاج الهائل من الشعر العربي المتشابه حينما ننظر فيه نظرة فاحصة نجد السبب الأهم في أنه اتخذ هذه الآلية أن أصحابه لم يحاولوا به أن يعبروا عن فحوى نفوسهم ولجج عقولهم، ومشاكل حياتهم وصلتها بالكون والإنسانية كلها.."(1).

ليس يَعْزُبُ عن البَحْثِ أن المُتَأَمِّلَ لِنِتاجِ الناقِدِ بِوُسْعِه التَّوفِيقُ بيْن هَاتَيْنِ الوِجْهَتَيْنِ. على سَبيلِ التَّمثِيلِ، يُمكنُ القَولُ: إنه لم يَنْبِذْ هذا التَّقْلِيدَ إلا من حَيْثُ ارْتِهانِه في الجُمْلَةِ بِشِعْرِ المُناسَباتِ، وهو أمْرٌ ربَّما يُوحِي به عُنْوانُ المَقالِ، إذ اضْطُرَّتْ جُمُوعُ الشُّعَراءِ إلى تَهْمِيشِ مَشاعِرِهم ووِجْدانِيَّاتِهم؛ لِيَصُبُّوا في القَوالِبِ الغَيرِيَّةِ «الجاهِزَةِ»، ويُمْكنُ أن نَلْتَمِسَ سبيلا آخَرَ باقتِرابِنا من تَفْرِيقِه بيْن نَوْعَيْنِ من التَّقْلِيدِ(2)؛ الأَوَّلُ، على حَدِّ وَصفِه، يَعْنِي المادَّةَ المَيِّتَةَ، وذلك حين يُعْنَى الأدِيبُ فَحَسْبُ بتَتَبُّعِ خُطَى السَّابِقِين دُونَ التَّفكِيرِ في تَجْدِيدٍ أو تَعْبِيرٍ عن حاضِرٍ، والآخَرُ يَتَراءى له ضَرُورَةً من ضَرُوراتِ الآدابِ الحَيَّةِ؛ لأنَّه لا يَنْتَهِي بِصاحِبِه أن يَكُونَ نُسْخَةً طِبقَ الأصْلِ من أَدِيبٍ آخَرَ، وإنَّما إلى اسْتِشْعارِ الماضِي الفَنِّيِّ والإِحْساسِ به، وأَيْضًا باقْتِرابِنا من تَفْرِيقِه

(1) شوقي ضيف: شعر المناسبات (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 29 ديسمبر 1952م، ص13- 14؛ باختصار شديد.

(2) على سبيل التمثيل؛ انظر: شوقي ضيف: الأصول الفنية للأدب؛ تأليف الأستاذ عبد الحميد حسن (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 4 يوليو 1949م، ص26.

بين نوعَينِ من السَّرِقاتِ الشِّعْرِيَّةِ؛ الأَوَّلُ: يَعْجَزُ عن إِخْراجِ الخاطِرَةِ في صُورَةٍ جَدِيدَةٍ؛ فيُلْصِقُ به وَصْفَ «التَّلْفِيقِ»، والآخَرُ: يَرْتَفِعُ عن هذا المُسْتَوَى ولا يَزالُ يُحَوِّرُ حَتَّى لَيُنسِينَا هَيْئَتَها الأُولَى، ولأَجْلِ هذا يَدْعُو إلى اسْتِقْبالِه بتَرْحِيبٍ لِجَمالِ إخراجِه، ويُلْصِقُ به وَصْفَ «التَّحْوِيرِ الفَنِّيِّ»[1]، ليس يَعْزُبُ كُلُّ هذا عن البَحْثِ، لكِنْ في نِهايَةِ المَطافِ سَتَظَلُّ **الثَّغْرةُ بادِيَةً**؛ بما أَنَّ الحَدِيثَ لم يَكُنْ عن وُجُودِ رَأْيٍ يَتَضارَبُ مع غَيْرِه حتى يتِمَّ التَّوفِيقُ بيْنَهما، بل عن غِيابِه؛ بدَلِيلِ أَنَّه ليس من إِنْتاجِ الناقدِ وإِنَّما من إِنْتاجِ القارِئِ وما أَحَسَّ، ومُؤَكَّدٌ أَنَّ للناقدِ حَقَّ اعْتِناقِ ما يَشاءُ من الآراءِ وأيضًا التَّصرُّفَ فيها كيفَما شاءَ، لكنَّ الشَّأْنَ في إِيقافِ القارئِ عليها وعلى مُجْرَياتِ التَّحَوُّلِ، إذا أرادَ لِتَصَوُّرِه أن يَتَجاوَزَ مُحِيطَ ذِهْنِه إلى أَذْهانِ الآخَرِينَ.

- **تَمايُزُ التُّراثِ العِلْمِيِّ**: أَخُصُّ بالذِّكْرِ مُعَوِّقَ التَّطَوُّرِ الحادِثِ فيه؛ إذ إِنَّه لا يَسْمَحُ بِحَياةِ القَدِيمِ مع الجَدِيدِ، بل رُبَّما انْقَطَعَتِ الصِّلَةُ بيْنَهما وعُدَّتْ تَخَلُّفًا ورَجْعِيَّةً، بِخِلافِ الأَدَبِ الذي تَتَمَيَّزُ آثارُه بأَنَّها قائِمَةٌ على أَشْياءَ نَفْسِيَّةٍ قائِمَةٍ بِنا وفِينا، فكانَ من المُتَوَقَّعِ إِذَنْ أن يَحْظَى مُعَوِّقُ التَّطَوُّرِ العِلْمِيِّ بِعِنايَةٍ تَفُوقُ غَيْرَه من المُعَوِّقاتِ؛ لأَنَّه يَتَسَبَّبُ في تَدابُرٍ يَكادُ يَأْتِي على الوُحْدَةِ من القَواعِدِ، لكنَّ ضيفًا أَخَذَ يُفَصِّلُ في التَّطَوُّرِ الذي أَصابَ التُّراثَ الأَدَبِيَّ مُبَيِّنًا أَنَّه لا يَعُوقُ الوُحْدَةَ، ولم يُواقِعْ نَظِيرَه في التُّراثِ العِلْمِيِّ، واكْتَفَى فحسب بِتَأْكِيدِ أَنَّ التُّراثَ العِلْمِيَّ في الطِّبِّ والطَّبِيعَةِ والكِيمياءِ كان غارِقًا في وُحْدَةٍ تَشْمَلُ

(1) على سبيل التمثيل؛ انظر: شوقي ضيف: السرقات الشعرية (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 20يوليو 1939م، ص34- 36، وقد أعاد نشره بكتاب: "في الأدب والنقد"؛ في هذا الأخير انظر: ص88- 93، وانظر أيضا له: الفن ومذاهبه في العشر العربي، ط4، ص295- 302.

جَمِيعَ أَجْزائِه، وتَزْدَادُ خُطُورَةُ هذه الثَّغْرَةِ حين يَكُونُ لِلناقدِ نُصوصٌ في مَواضِعَ أُخرَى هي الَّتي صِيغَ مِنها صَدْرُ فِقْرَتِنا هذه! وهي تُؤَكِّدُ إِدْراكَه هذه الفُروقَ الكائنَةَ بينهما، من مِثْلِ قَولِه: "الحقائق العلمية تتغير من عصر إلى عصر بحيث تبطل كثرتها وتحل محلها حقائق جديدة مما يجعل أي كتاب علمي سابق لعصرنا تفقد حقائقه قيمتها.. وهذا لا يحدث في الشعر أبدا؛ فشعر عصر لا يلغي شعر عصر آخر.."(1)، وأيضا قوله: "تلغي الطبعة الحديثة لكتاب في العلم ما قبلها من طبعات، وقد ينشر عالم آخر كتابا جديدا في نفس الموضوع فيلغي معظم ما ذهب إليه العالم الأول من آراء ونظريات، وهذا لا يحدث في الأدب، فنموذج أدبي لا يلغي آخر، وطبعة جديدة لا تلغي طبعة قديمة.. فالأدب لا يتقدم، إنما يتقدم العلم"(2)، ومِنْ أَجْلِ هذا السَّبَبِ كان إِغْفالُ الحَدِيثِ عن التَّطَوُّرِ العِلْمِيِّ، الذي يَقْضِي فيه الجَدِيدُ على القَدِيمِ، والاهْتِمامُ المُتَزايدُ بالتَّطَوُّرِ الأدَبِيِّ، الذي يَتَعايَشُ فيه الجَدِيدُ مع القَدِيمِ- ثَغْرةً في صِياغَةِ النَّاقِدِ تَصَوُّرَه.

(1) شوقي ضيف: القديم الجديد في الشعر (مقال)، مجلة فصول، القاهرة، عدد يوليو 1981م، ص11؛ باختصار، والمقال في جوهره يُعَدُّ امتدادًا لفرضياته ورؤاه في مقاله: "وحدة التراث"؛ إذ يهدف إلى تجلية ماهيَّة الشعر وكيف أنه لا يستجيب لوصف القديم أو الجديد؛ نظرًا لصدوره عن الطبيعة البشرية المستقِرَّة وقيامه على أركان ثابتة هي: الإيقاع والموسيقى والصياغة، وربما كان من المهمِّ أن ننتبه إلى التقارُب على المستويين؛ الزمني والمكاني بين المقالين، فعلى المستوى الزمني يتلاحقان، لاسيما والمجلة فَصْلِيَّة في صدورها، وعلى المستوى المكاني نلقاهما في مجلة واحدة متعاقِبَين، وفي الكتاب الذي تولى إعادة نشرهما متجاورَين، انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص102- 121.

(2) شوقي ضيف: في النقد الأدبي، ص71؛ باختصار.

- **مُونْتاجُ الآراءِ السَّالِفَةِ**: يَظْهَرُ هذا، على سَبيلِ التَّمْثِيلِ، حين يَقُولُ في مَقالِه عن كِتابِ شَرْحِ السُّبكِي (ت: 773هـ) على مَتْنِ التَّلْخِيصِ: "وإذا أنت أخذت تقرؤه وجدت علماء البلاغة معروضين عليك عرضا علميا دقيقا منتهى الدقة، كل عالـم وأفكاره وما اكتشفه من قواعد البلاغة ومن محسنات البديع، ولا يخطئك أبدا أن تعرف لهذا العالـم أو لذاك أفكاره وآراءه.."[1]، وهذا الكِتابُ نفْسُه هو الذي يقُولُ عن مادَّتِه في مَوضِعٍ آخرَ: "وهي مادة وفيرة، غير أنها لم تنظم، بل انساقت في شكل اعتراضات، مختلطا فيها الدر بالصدف وما قد ينفع بالزبد الذي يذهب جفاء"[2]، وقد حَدَثَ قَرِيبٌ من هذا مع كِتَابِ "التَّلْخِيصِ" للخَطِيبِ القَزْوِينِيِّ (ت: 739هـ)، فهُو هنا، كما في مَواطِنَ كَثيرةٍ، كِتابٌ مُوَفَّقٌ في تَلْخِيصِه واضِحٌ في عِباراتِه[3]، وهو أَيضًا الذي تُلْصَقُ به أَوصافٌ تَدُلُّ على إِساءَتِه وغُمُوضِ عِبارَاتِه والْتِوائِها وتَلخِيصِه المُسْرِفِ[4]، وقد يَكونُ التَّعْدِيلُ من رَأيه في الكِتابَينِ قد تَمَّ بِنَاءً على قِراءَةٍ

(1) شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص20.

(2) شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص354، 355.

(3) للوقوف على هذه المواطن التي تتولى امتداحه، على سبيل التمثيل؛ انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص20، وتاريخ الأدب العربي، 6- عصر الدول والإمارات؛ الشام، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1990م، ص 92، 93، وتاريخ الأدب العربي، 7- عصر الدول والإمارات؛ مصر، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص123، وتاريخ الأدب العربي، 10- عصر الدول والإمارات: الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السودان، دار المعارف، القاهرة، 1995م، ص354.

(4) انظر: شوقي ضيف: النقد، ص7، 128، ويمكن هنا أن نستحضر ما مَرَّ بنا عن موقف الناقد إزاء كتب المتون والحواشي والتقارير بوجه عام، وما كان من تفسيرنا هناك لذلك وأسباب التحول في رؤيته، على أن ذلك لا يغني المقام هنا شيئا؛ إذ لا تعليل من لَدُن الناقد نفسه.

ثانِيَةٍ؛ لا تَثْرِيبَ على ذلك البَتَّةَ، وإنَّما الإشْكالُ في أنَّ هذا التَّعدِيلَ قد سِيقَ خِلْوًا من المُبَرِّراتِ والأسْبابِ المُقْنِعَةِ، ومن ثَمَّ فلِلْقَارِئ حَقُّ الشَّكِّ في مَوضُوعِيَّتِه، وربَّما يَتَرسَّخُ تَعلِيلا لِذلك أنَّ رَسْمَ صُورَةٍ ناصِعَةٍ لِلْوُحْدَةِ قد كان هَدَفًا مُهَيمِنًا على الرُّؤَى والمَواقِفِ، وهو الوَضْعُ الذي سَيَجْعَلُنا نَفْتَقِدُ التَّفاعُلَ مع التَّصَوُّرِ، ويَسْتَوِي لَدَينا مَعرِفَةُ النَّصِّ الذي يَحمِلُ الحَقَّ وجَهلُه. وبهذا يَتَجَلَّى الفارِقُ بيْن هذه الثَّغْرَةِ والأُولَى؛ فالسَّبَبُ في نَشْأَتِها هنا عَدَمُ ذِكْرِ سَبَبِ تَغْيِيرِه رَأيَه، أي أنَّ رَأْيًا جَدِيدًا مَوجُودًا بالفِعْلِ أثْنَاءَ الصِّياغَةِ، في حِينِ كان السَّبَبُ هناك هو إغْفالَه ذِكْرَ رَأيِه، فَحَتَّم على القارِئ الحَدْسَ والاستِنْباطَ، وهو الأمْرُ الذي أحدَثَ تَضارُبًا حين آلَتْ عَمَلِيَّاتُ القراءة إلى نَتائِجَ تَتَضادُّ وما صَرَّحَ به الناقِدُ في مَواطِنَ أُخْرَى.

لَقَدْ كانَتِ الرَّغْبَةُ في قِياسِ مَنْسُوبِ التَّماهِي بين الناقِدِ وتَصَوُّرِه وقِياسِ قُدْرَةِ النَّاقِدِ على نَقْلِه من المَجالِ الذِّهْنِيِّ إلى المَجالِ الكِتابِيِّ- هي العامِلَ الرَّئِيسَ وَراءَ استِجْلابِ هذه العَدَسَةِ؛ لأن الثَّغَراتِ التي تَعْتَرِي الصِّياغَةَ، بالمِعْيارَيْن الكَمِّيِّ والنَّوعِيِّ، تُعَدُّ مُؤَشِّرًا من المُؤَشِّراتِ الهادِيَةِ في أداءِ هذه العَمَلِيَّةِ، ولَعَلَّه مِن أجْلِ هذا يَجِبُ التَّنَبُّهُ إلى أن وُجُودَ هذه الثَّغراتِ في الصِّياغَةِ لا يَعْنِي بالضرورةِ وجُودَها في التَّصَوُّرِ، فَشَتَّانَ بين صِياغَةِ التَّصَوُّرِ والتَّصَوُّرِ ذاتِه، بِكَونِ الأخِيرِ نِظامًا فِكْرِيًّا؛ هذا فَضْلا عن إمْكانِيَّةِ الْتِماسِ بَعْضِ التَّخْرِيجَاتِ لِسَدِّ هذه الثَّغْرَةِ أو تِلْك، وأَيًّا كان مِنْ أَمْرِها؛ فإنَّها لَمْ تَقِفْ حائلا دون تَجْلِيَةِ وُحْدَةِ التُّراثِ العَرَبِيِّ، لا بِوَصْفِها فَحَسْبُ مِظَلَّةً ظَلَّلَتْ أَرْجاءَه كما كان هُناك في عَصْرِ إنْتاجِه، وإنَّما كذلك بِوَصفِها رُؤْيَةً لِناقِدٍ صاغَ علاقَتَه به هنا في عَصْرِ استِقْبالِه.

- 4 /2 -

الوُجُودُ القَبْلِيُّ

في صَدْرِ الفَصْلِ الحالِيِّ ذَكَرْنا أنَّ المَقالَةَ تَحمَّلَتْ عِبْءَ الصِّياغَةِ النِّهائِيَّةِ للتَّصَوُّرِ، وهذا يَعْنِي أنَّه كان مَوجُودًا بِصُورَةٍ ما قَبْلَ تارِيخِها. عن نَماذِجِ هذا الوُجُودِ تَبْحَثُ العَدَسَةُ الرَّابِعَةُ، بَعْدَ أن تَكُونَ قد اختَزَنَتِ «العَلاماتِ الفارِقَةَ» لتلك الصِّياغَةِ النِّهائيةِ، وإذن فمَهَمَّتُها في بَعضِ جَوانِبِها تَتَّجِهُ نَحْوَ العِنايَةِ بالبُعْدِ التَّارِيخِيِّ؛ والقِيمَةُ الكُبْرَى لهذا أنَّه سَيُخَلِّصُنا من آفَةِ الانْشِغالِ بتَناوُلِ مُنْجَزَاتِ اللَّحْظَةِ الآنِيَّةِ عمَّا كان يَجْرِي في عَقْلِيَّةِ الناقِدِ وفِكْرِه، فنَكُونُ بِمَحْدُودِيَّةِ «**التَّوْصِيفِ الاسْتاتِيكِيِّ**» كمَنْ يَنشَغِلُ بالأَمْواجِ السَّطْحِيَّةِ عن التَّيَّاراتِ الكامِنَةِ هناك في العُمْقِ، ورُبَّما من أجْلِ هذا كان يُمْكِنُ أن تَتَقَدَّمَ رُتْبَةً، غيْرَ أنَّ ذلك كان يَسْتَلْزِمُ تَزْوِيدَها بِبَعْضِ البَياناتِ المُهِمَّةِ، وهو أمْرٌ لم يَكُنْ لِيَتِمَّ، كما هو ظَاهِرٌ، إلا بَعْدَ إتْمَامِ عَمَلِيَّةِ الاسْتِشْرافِ، أو بِالأَحْرَى حين لا يَبْقَى فيها إلا ما تُؤَدِّيه هي من دَورٍ، ومهما يكُن من أمْرٍ فقدْ كان من نَصِيبِها أن تُقابِلَ في طَرِيقِها نَماذِجَ عِدَّةً تَنْهَضُ بتَجْلِيَةِ مَلامِحِ «الوُجُودِ القَبْلِيِّ»، ارتَأَتْ أن تَخْتَصَّ منها بالفَحْصِ مُحاضَرَةَ: **حاضِرِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ متَّصِل بِمَاضِيه**، التي ألقَاهَا ضيفٌ عام 1960م[1].

(1) ألقى ضيف هذه المحاضرة في مهرجان الشعر الثاني، الذي أقامه المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية في دمشق عام 1960م؛ للتفصيل انظر: شوقي ضيف: معي، 2/ 84-86. ويمكن هنا، بمناسبة الحديث عن الوجود القبلي، تسجيل ظَنِّ الباحث في أن الكتاب الخامِسَ من سلسلة تاريخ الأدب، بانفتاحه على عصور الأدب المتلاحقة وأقطار ذات رصيد ضخم، هو المسئولُ عن مَنْح التصور مقوماتِ الاكتمال، يتأكد لنا هذا إذا وازنَّا بين عناصر المقدمة التي كتبها بين يديه وما
=

بتَأَمُّلِنا عُنْوانَ المُحاضَرَةِ سَيَظْهَرُ الغَرَضُ الذي لأَجْلِه أُلقِيَتْ، إذ تَتَشَكَّلُ مَرْجِعِيَّتُه حَيثُ النَّتِيجَةُ التي أُثْبِتَتْ في نِهايَتِها، ومَفادُها: أنَّ العَلاقةَ بيْن قَدِيمِ الشِّعرِ العَرَبِيِّ وحَدِيثِه لم تَنْقَطِعْ إطْلاقًا، بل لم تَزَلْ تَتَوثَّقُ على اخْتِلافِ الأَقْطارِ وتَلاحُقِ الأَزْمِنَةِ، وكما يَخْتَزِلُ العُنْوانُ ذلك فإن بِدايَتَها تَتَرَسَّمُ خُطَاهُ حين تقُولُ: "إن اتصال الشعر المعاصر في حاضره بماضيه التليد واتساقه مع نظامه الوطيد إنما هو انعكاس طبيعي لوراثات مجتمعنا العربي وما ساده قديما وحديثا من وحدة التقاليد والعادات والأفكار والمشاعر، وهي وحدة تنتظم تحت راية واحدة هي راية العروبة العتيدة، تلك الراية التي ثبتها العرب منذ فجر الإسلام في بيئات مختلفة، لم تلبث أن تعربت وتشابكت في قومية واحدة يتخذ فيها أبناؤها الضاد لسانا لهم.."[1].

أَكبَرُ الظَّنِّ أنَّ قَارِئَ هذه الفِقْرَةِ قد تَنَسَّمَ المُناخَ السَّائِدَ في **مَقالَةِ وُحْدَةِ التُّراثِ**، وسيَتَأَكَّدُ لَدَيه، بَعْدَ أن يَمْضِيَ قُدُمًا في القِراءَةِ والتأَمُّلِ، أنه لم يكُنْ مُخْطِئًا فيما صَنَعَ؛ إذ سَيَلتَقِي الأَوْتارَ نَفْسَها التي كان يَضْرِبُ عليها ناقِدُنا؛

=عرضنا له هنا، وإذا استأنسنا بالنظر إلى تاريخ نشره: أول يونيه 1980م، وتاريخ نشرِها: أكتوبر 1980م، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 5/5- 8.

(1) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص320، وعنوان الموضوع أو الفصل الذي نحيل عليه في الكتاب هو: "حاضر الشعر العربي متصل بماضيه"، ولذلك تم التعامل معه على أنه النسخة المنشورة للمحاضرة، رغم ما يُعْوِزنا للأمانة من مستندات تَقْطع بذلك، غير أن اتحاد العنوان، ومعرفتَنا بصنيع ضيف في نشر مقالاته ومحاضراته منذ تاريخ نشر الكتاب: 1971م، وضآلة احتمال إلحاق تعديلات جَوْهَرِيَّة قياسًا على الحالات المشابهة- كانت هي أهم أسباب هذا الظن، وأيًا كان من أمر فسيبقى الموضوعُ، حتى مع افتراض انقطاع صلته بالمحاضرة، نموذجًا صالحًا لبيان الوجود القبلي للتصور؛ بالنظر إلى سبقه إياه زمنيًا.

من مِثْلِ أنَّ الأَوطانَ العَرَبِيَّةَ في القَدِيمِ كان بيْنَها دائمًا صِلاتٌ وَثِيقَةٌ، تَدْفَعُ الانْفِرادَ والتَّمَيُّزَ، وهو أمْرٌ أتاحَ للشُّعَراءِ أن يُجَدِّدُوا تَجْدِيدًا لا يَمْحُو الأُصُولَ التَّقْلِيدِيَّةَ التي ورِثُوها، فَدائمًا تَواصُلٌ بيْن الماضِي والحاضِرِ، وكان الشُّعَراءُ الأُمَوِيُّون هُم الذين مَهَّدُوا لهذا التَّواصُلِ الوَثِيقِ وتَلاهُم العَبَّاسِيُّون فأَوفَوا به على الغايَةِ من المُزاوَجَةِ الدَّقِيقَةِ بيْن عَناصِرِ القَدِيمِ وعناصِرِ الجَدِيدِ، فليس كُلُّ تَجْدِيدٍ يَعْنِي انْقِطاعَ الصِّلَةِ بالماضِي؛ ويَسُوقُ على ذلك مَثَلًا المُوشَّحاتِ التي تُعَدُّ تَجْدِيدًا في الشَّكْلِ والمَضْمُونِ، ويَذهَبُ، كما مرَّ بنا، إلى أنَّ أصْلَها الأَراجِيزُ القَدِيمَةُ والمُسَمَّطاتُ والمُخَمَّساتُ، وأنَّ مَضمُونَها يتَّحِدُ مع مَضمُونِ القَصِيدَةِ المورُوثَةِ، وسُرْعانَ ما أصْبَحَتْ فَنًّا عَرَبِيًّا عامًّا بمُشارَكَةِ الأَقْطارِ الأُخْرَى في صِناعتِها[1].

بيْدَ أنَّ حَدِيثَه هنا ليس يُعْنَى بالشِّعْرِ العَرَبِيِّ في عُصُورِه المُخْتَلِفَةِ، وإنَّما بالمُعاصِرِ منه، ولِهذا اضْطُرَّ إلى الإطْنابِ في بَعْضِ القَضايا المُتَّصِلَةِ به خاصَّةً، أو إنْ شِئتَ الدِّقَّةَ- بِمُراعاةِ السَّابقِ واللاحِقِ- أَوْجَزَ هناك؛ فيَبْذُلُ جَهْدَه في تَحَسُّسِ الأُصُولِ التَّقْلِيدِيَّةِ التي تَسَرَّبَتْ إلى المَدارِسِ الشِّعْرِيَّةِ المُعاصِرَةِ المُخْتَلِفَةِ، حَتَّى مَعَ تِلْكَ الَّتِي رَفَعَتْ رايَةَ التَّجْدِيدِ، وحَتَّى مَعَ تلك التي عَمَّقَتْ صِلَتَها بالآدابِ الغَرْبِيَّةِ، لِيُثْبِتَ أنَّ الحاضِرَ كان يَتَّصِلُ بالماضِي عن طَرِيقِ احْتِفاظِه بالتَّقالِيدِ الفَنِّيَّةِ المَورُوثَةِ، كما يُثْبِتُ أنَّ هذا الاسْتِمْساكَ بالماضي الفَنِّيِّ لمْ يَحُلْ دُونَ التَّجْدِيدِ أو الاطِّلاعِ على الآدابِ الغَرْبِيَّةِ؛ يَتَّضِحُ ذلك بِتَوَقُّفِه عِنْدَ النَّماذِجِ الآتِيَةِ:

(1) انظر: شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص320- 322.

- مَدْرَسَةُ النَّهْضَةِ التي يَتَزَعَّمُها محمود سامي البارُودِيُّ (ت: 1904م)، وهي مَدْرَسَةٌ تُصرِّحُ بمُحاكاتِها القُدَماءَ، ويُؤَكِّدُ النَّاقدُ أنَّ هذا لم يَعُقْها عن التَّعْبيرِ عن عَواطِفِ شُعَرائِها الشَّخْصِيَّةِ أو عَواطِفِ الأمَّةِ، وحَقًّا جَدَّدَتْ في بعضِ الجَوانِبِ وتَأَثَّرَتْ بالغَرْبِ، كمِثْلِ ما كان من أحمد شوقي في الشِّعرِ التَّمثِيلِي، الذي استَطاعَ في نِهايَةِ المَطافِ أن يُعرِّبَه تَعرِيبًا تامًّا، ومِثْلِ ما كان من خليل مطران (ت: 1949م) في شِعْرِه القَصَصِيِّ الدِّرامِيِّ؛ لكنْ كانت مَادَّتُهما الرَّئِيسَةُ هي مادَّةَ شِعْرِنا الغِنائِيِّ المَورُوثِ[1]. ويَلْحَظُ المُتَأَمِّلُ فيما كَتَبَ الناقِدُ من كُتُبٍ مُسْتَقِلَّةٍ عن أَتْباعِ هذه المَدْرَسَةِ، وهما كتابان؛ أَحَدُهُما عن البارُودِيِّ والآخر عن شوقي، أنه كان حَرِيصًا على تَخْصِيصِ مِساحَةٍ مُلائِمَةٍ لِتَتَبُّعِ حُضُورِ القَدِيمِ والمَورُوثِ الفَنِّيِّ في شِعْرِهم، وَلَجَ إليها في حالَةِ شوقي عن طريق عُنْوان: "تيار قديم"[2]، وفي حالَةِ البارودي عن طريق عُنْوان: "عناصر قديمة"[3]؛ لِيُؤَكِّدَ بهذا الصَّنِيعِ أن البَعْثَ الأَدَبِيَّ الذي قامُوا به لَمْ يَتَأَسَّسْ مطلقا بقَطْعِ الصِّلَةِ عن الماضِي وإنَّما على تَمْتِينِها، أو على ما يمكن أن نسميه «رَتْقَ الفَتْقِ» بإعادَةِ تَوظِيفِ التراث.

- مَدْرَسَةُ الجِيلِ الجَدِيدِ برُؤوسِها الثَّلاثَةِ: العقادِ وعبد الرحمن شُكري (ت: 1958م) وإبراهيم عبد القَادر المازِنِيِّ (ت: 1949م)، فإنَّ تَكْيِيفَها الخَاصَّ للشِّعرِ على أنَّه "حَدِيثُ نَفْسٍ"، وإنْكارَها ما عنْدَ مَدْرَسَةِ النَّهضَةِ من إسْرافٍ في

---

(1) انظر: شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص324- 326، وانظر أيضا له: الأدب العربي المعاصر؛ في مصر، ط10، ص41- 57، والبارودي رائد الشعر الحديث، ص35- 45.

(2) انظر: شوقي ضيف: شوقي شاعر العصر الحديث، ص72- 84.

(3) انظر: شوقي ضيف: البارودي رائد الشعر الحديث، ص140- 154.

التَّقليدِ؛ لم يَقِفْ حائِلا دون تَعَميقِها الصِّلَةَ بالآدابِ القَديمَةِ ودَعْوَتِها المُلِحَّةِ إلى ذلك في أَدَبِيَّاتِها المُخْتَلِفَةِ، وإنْ كانوا حرِيصِينَ على تَوضِيحِ أَنَّهُم لا يَقْصِدون الصِّلَةَ التي تَبدُو آثارُها في المُحاكاةِ والمُعارَضاتِ، وإنَّما التي تَبْدُو في الظِّلالِ والشِّياتِ[1].

- مَدْرَسَةُ شُعَراءِ المَهاجَرِ؛ جَنُوبِيِّه وشَمالِيِّه، ففي الجَنُوبِ الْتِحامٌ مع شِعْرِ مَدْرَسَةِ النَّهْضَةِ في عَناصِرِه التَّقْلِيدِيَّةِ وحِسِّهِ بِمَخاطِرِ الاحْتِلالِ الغاشِمِ، على نَحْوِ ما عُرِف عند الشَّاعِرِ القَرَوِيِّ (ت: 1984م) وإلياس فرحات (ت: 1976م)، وفي الشَّمالِ فَإنهُمْ، على ما أَصَابَ شِعرَهم من نَزَعَاتٍ تَجْدِيدِيَّةٍ واسِعَةٍ، ما فَتِئُوا يَسْتَلْهِمُون شُعَراءَنا القُدَماءَ، ويَثُورُونَ ثَوْراتٍ عَنِيفَةً على المَدَنِيَّةِ الغَرِبيَّةِ، ويَحِنُّونَ إلى أَوطانِهم حَنِينًا مُلْتَاعًا، على نَحْوِ ما هو مَعْرُوفٌ عن جُبْران خليل جبران (ت: 1931م)[2].

- مَدْرَسَةُ النَّزْعَةِ الفَرْدِيَّةِ، ويَقْصِدُ بهم إلى أَمْثالِ: إبراهيم ناجي (ت: 1953م) وعلي محمود طه (ت: 1949م)، من الذين عُنُوا بالإفْصاحِ عن مَشاعِرِهم الخاصَّةِ، ولم يُعْنَوا بالمشاعِرِ الغَيرِيَّةِ إلا قَليلا؛ ونفهم من ناقِدِنا أنَّ رُومانْسِيَّتَهم التي غرقوا في ظلالها لا تُعَدُّ شُذُوذًا، إذ لَهُم في مَنْحاهُم الفَرْدِيِّ سَلَفٌ، إن صَحَّ هذا التَّعْبِيرُ، كما أَنَّهم عَمَّقُوا صِلَتَهم بالتُّراثِ، رَغْمَ قِلَّةِ قِراءَتِهم المُباشِرَةِ فيه، عن طَرِيقِ اتِّخاذِهم من شُعَراءِ مَدْرَسَةِ النَّهْضَةِ أَئِمَّةً

(1) انظر: شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص326، وللمزيد حول هذه المدرسة ينظر: شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر؛ في مصر، ط10، ص58- 69، ومع العقاد (سلسلة: اقرأ)، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1988م، ص96- 120.

(2) انظر: شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص326، 327، وراجعه: ص291- 294.

يَقْتَدُون بهم، فقدْ كان خَليل مطران مَثَلا لِوِجْدانِيَّات الأَوَّلِ كما كان شوقي مثلا لِمُوسيقَى الآخَرِ[1].

مَدفُوعَةً بالغايَةِ نَفْسِها تَتَعَرَّضُ الصَّفَحاتُ لِمُعَوِّقاتٍ لم يَتِمَّ عَرْضُها في مَقالَتِه الفائِتَةِ عن وُحْدَةِ التُّراثِ؛ لاتِّصَالِها بالشِّعرِ المُعاصِرِ خَاصَّةً، فيَتَوقَّفُ سَرِيعًا عند تَجْرِبَتَين، الأُولَى: تَجْرِبَةُ «الشِّعْرِ المُرْسَلِ»[2] والأُخْرَى:

(1) انظر: شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص327، 328، وانظر أيضا له: الأدب العربي المعاصر؛ في مصر، ط10، ص70- 74.

(2) الشعر المرسل كما مر بنا لا يلتزم قافية موحدة، بل يخالف بين البيت والذي يليه في حرف الروي، في حين يلتزم غالبا وزنًا شعريًا خليليًا واحدًا، وقد كان من رُوَّاد النَّظْمِ على هذا الشكل الحداثِيِّ كل من الزَّهاوِي (ت: 1936م) في العراق وعبد الرحمن شكري في مصر، وقد كان العقاد في أول الأمر من أنصار هذه الحركة، لا لمجرد ترحيبه بشعر شكري، بل لأنه هو الذي قَدَّم ديوانه المشتمل على هذه التجارب في عام 1913م؛ تقديمًا قوامه التقريظ، كما قدم ديوان المازني في عام 1914م، مقرِّرًا فيه أن تجديد الإطار الموسيقي، بالتخلِّي عن وحدة القافية، من شأنه أن يتيح للشاعر مساحةً أكثرَ اتساعا ليستوعب فيها الموضوعات المتشعبة، ويَمْهَد الطريق أمام الشِّعْر القَصَصِيِّ والتمثيلِيِّ والرِّوائِيِّ، انظر: العقاد: مطالعات في الكتب والحياة، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1987م، ص278- 281 (وهي الصفحات التي أعاد فيها نشر مقدمته لديوان المازني)، وأيضا لأنه قدم كتاب: "الغربال" لنعيمة 1923م، وفيه دَعْوةٌ صريحةٌ للتمرد على النمط الموسيقي التقليدي، دون أن يسجل عليه ملاحظات، سوى ملاحظة تتعلق بالصحة اللغوية في الشعر، ويراه مصيبا في سعيه لأن يكون الشعر شعر حياة لا شعر زحافات وعلل، انظر: ميخائيل نعيمة، الغربال، نوفل، بيروت، ط15، 1991م، ص5- 12 (وهي صفحات مقدمة العقاد للكتاب)، 107- 126، وربما يكون أهم من خَلَفَ الزهاوي وشكري في إرسال القوافي، هو أحمدُ زكي أبو شادي (ت: 1955م) مؤسسُ جماعة أبولُّلو؛ إذ لم يكتف بالنظم في هذا القالب بل راح ينافحُ عن فَنِّيَّتِه وجَدْواه، انظر على سبيل التمثيل: أحمد زكي أبو شادي: الشفق الباكي (ديوان شعري)، المطبعة السلفية، القاهرة، 1926م، ص1240، وأيضا: مجلة أبوللو، القاهرة، عدد نوفمبر 1932م، ص231؛ حيث دعوته إلى التحرر من الأوزان والقوافي، في سياق حفاوته الشديدة بقصيدة منشورة لخليل شيبوب تنتمي إلى الشِّعْر المطْلَق بحسب وصف ناظمها، غير أن

=

تَجْرِبَةُ الجِيلِ المُنْدَمِجِ في نَزْعةٍ غَرْبيَّةٍ. فيما يَخُصُّ تَجْرِبَةَ الشِّعْرِ المُرْسَلِ الذي يَلْغِي القافِيَةَ ويُحَطِّمُها تَحْطِيمًا، على حَدِّ وَصْفِه، يَقُولُ: "رفضها الشعراء ولم يستجيبوا إليها إلا قليلا، لنبوها عن أسماعنا وأذواقنا، وبذلك لم تعش طويلا"[1]، وفيما يَخُصُّ تَجْرِبَةَ الجِيلِ المُنْفَصِلِ عن التُّراثِ الشِّعْرِيِّ باندِماجِه في نَزْعةٍ غَرْبيَّةٍ- تَعْلُو «نَبْرَةُ الانْتِقاصِ»؛ بِدايَةً من قَوْلِه: "نفرا من شعرائنا المعاصرين.."[2]، وانْتِهاءً بِحُكْمِه عَلَيهِم: "وهم بلا ريب شذوذ على عرفنا الشعري.."[3]، وصَنِيعُ الناقدِ هنا لا يَسْتَرْعِي انْتِباهَنا؛ نَظَرًا لأنَّه لا يَتَّخِذُ إجْراءاتٍ جَدِيدَةً أو آلياتٍ مُغَايرَةً، بل يَسِيرُ سِيرَتَه التي اتَّخَذَها هناك وتَعَرَّفْنا عَلَيها أثناء حديثنا عن تَجاوُزِه المُعَوِّقَاتِ واسْتِيعابِها؛ أما الذي يَسْتَوقِفُنا حقا فهو اخْتِلافُ إجْراءاتِه إزاءَ المُعَوِّقاتِ نَفْسِها التي سَبَقَ أنْ عَرَضَ لها، الشَّيءُ الذي سَتَهْتَمُّ العَدَسَةُ الخَامِسَةُ ببيانِه.

=هذه الدعوات لم تنحسرْ إلا عن تجاربَ ضئيلةٍ، لم تُتَّخَذ منارات تجديد، بل نَكص العقاد نفسُه عن ترحيبه؛ حين صَرَّح في افتتاحية عدد من مجلة الرسالة، إثر مقالات كتبها دريني خشبة (ت: 1964هـ) في المجلة عينها، أنه لا يَطْرَب للشعر المرسل، وأن مسألة القافية فيما يتصور قد حُلَّت بالمقطوعات المتساوية أو القصائد المزدَوجة المسمطة، انظر: العقاد: في الشعر العربي (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 15 نوفمبر 1943م، ص901، وقد كانت مقالات دريني تدعو إلى محاكاة الغَرْبِ في هذا الفن، حتى يَنْفَكَّ عنا قِصَر وقُصور الشعر العربي وحرمانُنا من الملحَمَة والدُّراما المنْظُومَة، انظر: دريني خشبة: الشعر الحر والشعر المرسل (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 24 أكتوبر 1943، ص840- 842، والشعر المرسل وشعراؤنا الذين حاولوه (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 8 نوفمبر 1943م، ص889- 892، وإن يكن كل هذا قد شق الطريق أمام اعتماد التفعيلة أساسا للنظم؛ فإنه لم يتعدَّه إلى تبرير وجود الشعر المتحرِّر من كل قيد.

(1) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص329.

(2) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص323، والتشديد من عندي.

(3) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص323، والتشديد من عندي.

- 2/ 5 -

الثابتُ والمتغيِّر

في مَقامِ تَأَمُّلِ مَقالِ "حاضِرِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ مُتَّصِلٌ بِماضِيه" ومُلاحَظَةِ الصِّلاتِ القائِمَةِ بَينه وبَين مَقَالِ "وُحْدَةِ التُّراث" ورَصْدِ الثَّابِتِ والـمُتَغَيِّرِ- يستوقفنا اخْتِلافُ إجْراءاتِه إزاءَ الـمُعَوِّقاتِ نَفْسِها التي عَرَضَ لها هناك، يَتَّضِحُ هذا أَثْناءَ حَدِيثِه عن «**الشِّعْرِ الحُرِّ**»، فقدْ رأيْنَا هناك كَيفَ كان الحَدِيثُ عن الـمُقَوِّماتِ التُّراثِيَّةِ التي لا يَزالُ يَحْتَفِظُ بها هذا الشِّعْرُ، أما هنا فالحَدِيثُ عن مَواطِنِ الخَلَلِ التي يُحْدِثُها في الـمُقَوِّماتِ الـمُوسِيقِيَّةِ للشِّعْرِ العَرَبِيِّ، فيُقَرِّرُ أَنَّه "مِن الصعب أن ندخل الكثرة الكثيرة من أمثلة هذا الشعر الحر في دوائر شعرنا العربي بالـمعنى الذي يتعارف عليه أصحاب هذه اللغة وأهل هذا اللسان.. وهو ما جعلنا ندعو.. إلى ما يجب على شعرائه من تلافي نواقص الإيقاع فيه والصياغة"[1]، وبِهذه **الـمُزاوَجَةِ** بيْن اللَّهْجَةِ القاسِيَةِ في الحُكْمِ على الشِّعرِ الحُرِّ والإلْحاحِ الرَّفِيقِ في النُّصْحِ لأَصْحابِه يُعالِجُ النَّاقِدُ القَضِيَّةَ؛ لِيَخْرُجَ من أَزْمَةِ الـمُعَوِّقاتِ التي تَفْصِلُنا عن التُّراثِ وتُعرْقِلُ وُحْدَتَه، ولِكَيْ لا يُفْهَمَ أَنَّه قد لَفَظَ الشِّعْرَ الحُرَّ خارِجَ نِطاقِ الوُحْدة التي تُظَلِّلُ التُّراثَ الشِّعْرِيَّ فقد يَنْبَغِي تَأَمُّلُ طَبِيعَةِ دَورِه في كِلا السِّياقَينِ، فهو هناك مُنْشَغِلٌ برَسْمِ صُورَتِها الصَّافِيَةِ، فاكْتَفَى بالإشارَةِ إلى نِقَاطِ التَّماسِّ، فَغَلَبَ الوَصْفُ والإخْبارُ، أما هنا فهو «ناقِدٌ» قَبْلَ أيِّ شَيءٍ؛ بالـمَعْنَى الذي يَسُوقُه إلى الإعْرابِ عن رِضاهُ أو

---

(1) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص330.

سَخَطِهِ، ويَدْفَعُ به نَحْوَ تَجاوُزِ التَّوصيفِ إلى التَّقييمِ والتَّقويمِ، ولذا كانَتْ هذه اللَّهْجَةُ وكان هذا النُّصْحُ.

على أنَّ تَكْوينَ صُورَةٍ دَقِيقَةٍ عن مَوقِفِ النَّاقِدِ من قَضِيَّةِ الشِّعْرِ الحُرِّ يَتَطَلَّبُ أن تَتَّسِعَ مِساحَةُ المادَّةِ أكْثَرَ لِنَسْتَعْرِضَ أهمَّ مُكَوِّناتِه. إنَّ المُلاحَظَةَ الأَوَّلِيَّةَ التي يُمْكِنُ أنْ تَتَوَلَّدَ لَدَينا حِينَئِذٍ، هي أنَّ مَوقِفَه تَتَجاذَبُه **تَيَّارَاتٌ مُتَقَابِلَةٌ**، فدائِمًا نَلْتَقِي أَحْكَامًا قاسِيَةً إلى جِوارِ نَصائِحَ رَفِيقَةٍ، يَجْتَمِعانِ كَثِيرًا في الخِطابِ الواحِدِ، كما يَفْتَرِقانِ أَحْيانًا، وبِقِياسِ دَرَجاتِ كَثافَةِ حُضُور كُلٍّ مِنْهُما في نِتَاجِه، حالَةَ أَخْضَعْنَا هذا النِتاجَ للتَّرْتِيبِ التَّارِيخِيِّ، ربَّما كان من حَقِّنا الاجْتِهادُ في رَسْمِ «**مُخَطَّطٍ افْتِراضِيٍّ**» تَتَوارَدُ فيه الآَراءُ على نَحْوٍ «تَطَوُّرِيٍّ»؛ ففي البِدايَةِ كان **الامْتِعاضُ** شُعُورًا سائِدًا إِزاءَ التَّضْحِيَةِ بالمَبْنَى في سَبِيلِ المَعْنَى، وكان التَّحْذِيرُ مِن مَغَبَّةِ إِهْمالِ التَّقْفِيَةِ؛ لأَنَّه سَيُؤولُ بالصِّياغَةِ إلى أن تَكونَ نَثْرًا مَوزُونًا لا شِعْرًا، وكان الوَصْفُ المُنْبَثِقُ عن التَّنَبُّؤِ بِمُسْتَقبَلِ التَّجْرِبَةِ هو أَنَّها قَصِيرَةُ العُمْرِ[1]، لكن يَظْهَرُ أنه عادَ يُقلِّبُ الأمرَ مُسْتَجِيبًا لِقَناعَةٍ بأنَّ التَّجْدِيدَ قِيمَةٌ حَضارِيَّةٌ ومُقَوِّمٌ لاسْتِمْرارِ الآدابِ الحَيَّةِ؛ فتَراءتْ له **طَرِيقٌ وَسَطٌ**، تُحافِظُ على الشَّكْلِ التُّراثِيِّ وتَنْشَرِحُ بالجَدِيدِ، بِتَوفِيرِها قِيَمًا مُوسِيقِيَّةً تَعْوِيضِيَّةً عن القافِيَةِ التي أَسْقَطَها نِظامُ التَّفْعِيلاتِ، تُسْعِفُه نَماذِجُ سالِفَةٌ، نَظَمَ عليها الشعراء المجدِّدون وتَقَبَّلَتْها الأُذُنُ العَرَبِيَّةُ، من مُزْدَوَجٍ ومُسَمَّطٍ ومُوَشَّحٍ، وطَبِيعِيٌّ ألا تَنْمَحِي اللَّهْجَةُ القَاسِيَةُ في هذا الطَّوْرِ؛ إذ لا

---

(1) على سبيل التمثيل؛ انظر: شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر؛ في مصر (1850-1950م)، دار المعارف (الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية)، القاهرة، ط1، 1957م، ص66، 67، وفصول في الشعر ونقده، ص53.

يَزالُ يُضْمِرُ رَفْضًا ضِمْنِيًّا للشَّكلِ الحالِيِّ، بل أَكْثَرُ من هذا، يَتَنَبَّأُ بفَنائِه إن هُو لم يُعَدِّلِ الـمَسارَ التَّجْدِيدِيَّ الذي يَسْلُكُه(1).

وتَحْتَ إغْراءٍ مِن اسْتِجابَةِ بَعْضِ الشُّعَراءِ لِندائِه، أو لِنِداءِ غَيْرِه من النُّقَّادِ، واسْتِلْهامِهم القافِيَةَ في شِعْرِهم وإشاعَتِهم الشِّعْرَ ذا القافِيَةِ الـمُنَوَّعَةِ، انْدَفَعَ النَّاقِدُ، فيما نَظُنُّ، إلى إلْحاقِ تَعْدِيلاتٍ أُخرَى على مَوقِفِه، وإنْ كُنَّا سَنَرَى أَنَّها سَتَظَلُّ مُسْتَنِدَةً لِفِكرَةِ احتِذاءِ نَماذِجِ التَّجْدِيدِ الـمَورُوثَةِ؛ إذْ يَسْتَدْرِجُ أَنْصارَ هذه الحَركَةِ إلى حِجاجٍ عَقْلِيٍّ هادِئٍ، مُرْشِدًا إيَّاهُم إلى مَواطِنِ القُصُورِ الإيقاعِيِّ، ومُقْتَرِحًا سُبُلا لِتَلافِيها، وآخِذًا- وهذا شَيْءٌ يَستَحِقُّ التَّنَبُّه- على أَيدِي الشُّيُوخِ الذين اتَّهَمُوا تَجْدِيدَ الشَّبابِ أو تَنَدَّرُوا به، فَمِنْ حقِّ الشَّبابِ، كما يَرَى، أن يُنْصَحُوا في رِفْقٍ لِيَتَمَكَّنَ شِعْرُهم من الحَياةِ الخِصْبَةِ(2)، وتَحِينُ له الفُرْصَةُ فيما بَعْدُ لِتَعْضِيدِ هذه الأُطْرُوحَاتِ «التَّنْظِيرِيَّةِ»، إن صحَّ الوَصْفُ، بنَماذِجَ «تَطْبِيقِيَّةٍ»، فيَكتُبُ مَقَالا عن صَلاح عبد الصبور (ت: 1981م) بعْدَ وفاتِه(3)، ويَقَعُ منه تَصَرُّفُ الشَّاعِرِ الواعِي في الإطارِ الـمُوسِيقِيِّ

(1) انظر: شوقي ضيف: في النقد الأدبي، ص108- 109، وفصول في الشعر ونقده، ص330، ومعي، 2/ 86، وفي هذا الأخير نجد بعض ملابسات مناقشاته بعضَ الشبَّان الذين ينظمون الشعرَ الحُرَّ ويتبنون الدفاع عنه أثناء زيارته دمشق.

(2) انظر: نواقص الإيقاع في الشعر الحر (دراسة)، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، عدد يناير 1969م، ص73- 92، وفصول في الشعر ونقده، ص301- 320، ومعي، 2/ 104، 105، وهو يَذْكُر في هذا الأخير أن أصل هذه الدراسة كان محاضرةً ألقاها في جامعة بيروت العربية، تلبيةً لدعوتها إياه، أيام كان معارًا للأردن، حتى يلقي محاضرة فيها يتخير هو موضوعَها.

(3) انظر: شوقي ضيف: صلاح عبد الصبور؛ رائد الشعر الحر الجديد، مجلة فصول، القاهرة، عدد أكتوبر 1981م، ص31- 36.

التَّقْليدِيٌّ مَوقِعًا حَسَنًا، وتَنْبَغِي الإشارَةُ إلى أن نَظْرَتَه الـمُتَشائِمَةَ لِمُسْتَقْبَلِ الشِّعْرِ الحُرِّ في هذا الطَّوْرِ والذي قَبْلَه قد تَبَدَّلَتْ تَمامًا إلى نَظْرَةٍ مِلْؤُها التَّفاؤلُ بِمَبْعَثِ شاعِرٍ فَذٍّ سَيَسْتَدْرِكُ ما فاتَ هذا الشِّعْرَ، لِيَصِلَ بيْنَه وبين يَنابِيعِ مُوسيقَى الشِّعْرِ الـمورُوثةِ العَذْبَةِ.

لقد كان الناقِدُ حَسَنَ الظَّنِّ أكثَرَ من اللازِمِ، فلا الفَجْوَةُ ضَاقَتْ بيْنَهما ولا بُعِثَ ذَلِكُم الشَّاعِرُ الفَذُّ الـمُنْتَظَرُ، وإنَّما ازْدادَ الشَّرْخُ واتَّسَعَتْ الهُوَّة بالنَّظْمِ على شَكْلٍ جَدِيدٍ سُمِّيَ «قَصيدَةَ النَّثْرِ»، وتَحْتَ تَأْثِيرِ هذا، فيما يَلُوح لنا، انْعَتَقَ ضيفٌ أخِيرًا من طُمُوحاتِه النائِيَةِ الـمُخَدِّرَةِ، ليُنَدِّدَ بِتِلْك التَّجارِبِ التي تُرِيدُ للشِّعْرِ أن يَبْدَأَ من الصِّفْرِ أو مِن فَراغٍ في مَسِيرَةِ التَّجْدِيدِ، بِحَسْب قوله، ويُعرِّضُ بالحَداثةِ أو ما أَسْمَاه التَّطَرُّفَ في التَّجْدِيدِ، ويَلْفِظُ قَصِيدَةَ النَّثْرِ تَمامًا خَارِجَ نِطاقِ ما يُمْكِنُ إلْحاقُه بِفُنونِ الشِّعْرِ(1)، ورُبَّما يَكون من أَقْوَى الوَثائِقِ التي تُجَسِّدُ شُعُورَ هذه الـمَرْحَلَةِ، هو ذلك الحِوارُ الذي نُشِرَ تَحْتَ عنوان: "الحداثة رِدَّة فكرية تلاشَتْ وذهبَتْ رِيحُها"؛ إذ بالرَّغْمِ من انْتِباهِنا إلى أَنَّ العُنْوانَ غالِبًا ما يكونُ من اصْطِناعِ الـمِجَلَّةِ أو الصَّحَافِيِّ الذي أَجْرَى الحِوارَ، عن طريقِ اقْتِناصِ عِبارَةٍ مُدَوِّيَةٍ ذات صَخَبٍ، بِغَضِّ النَّظَرِ عن قُوَّةِ علاقَتِها العُضْوِيَّةِ بِجَوْهَرِ الكلامِ الـمَنْشُورِ- فإنَّ الـمَضامِينَ التي بَثَّها داخِلَه تُؤَسِّسُ إزاء الحَداثَةِ مَوْقِفَ الرَّفْضِ والاسْتِهْجانِ، يقول ناقِدُنا: "أما عن الحداثة كما أطلقوا عليها فلا هي حداثة ولا دماثة بل هي ردة فكرية وثقافية. والحمد لله أن هذه الدعوى الغربية الشاذة أوشكت أن تتلاشى وتذهب

(1) انظر: شوقي ضيف: محاضرات مجمعية، ص127- 148.

ريحها"[1]!، وواضِحٌ أَنَّ حديثه هنا ليس يحمل استِهْجانًا مُجَرَّدًا، بل يُساقُ فوقَ ذلك مَساقَ التَّنَدُّرِ والسخرية.

على أن هذا لا يَعْني، في رَأْينا، ارْتِهانَ هذا الطَّوْرِ **بِمَوْقِفِه المُتَحَيِّزِ ضِدَّ الحَداثَةِ**، أو على وَجْهِ الدِّقَّةِ بِإِعْلانِه الصَّرِيحِ عَنْه؛ إذ يُمْكِنُ أن نَشْهَدَ إِرْهاصاتِه مُنْذُ أَعادَ نَشْرَ مَقالِ صلاح عبد الصبور، إذ تَسْقُطُ من عُنْوانِه لَفْظَةُ "رائد"، لِيصيرَ على النَّحوِ الآتي: "صلاح عبد الصبور والشِّعْرِ الحُرِّ الجَديدِ"، وتُحَجَّمُ صِفَةُ الرِّيادَةِ داخِلَ المَقالِ نَفْسِه بِحَصْرِها دَاخِلَ القُطْرِ المصْرِيِّ وحده[2]، بَعدما كَانت رِيادَتُه مُطلقَةً شامِلَةً في المَقالِ الأَصْلِي، وكأنَّه بهذه الإجراءات يَعْكِسُ **تَباشِيرَ نُكُوصٍ** عن الانْدِفاعِ الذي تَسبَّبَتْ فيه الآمالُ المُخايلَةُ، وأقصد تلك التي كانت تَعْتَقِدُ في الْتِقاءِ قَيثارَتَي الشِّعْرِ الجَدِيدِ والشِّعْرِ القَدِيمِ في أَلْحانِهِمَا وإِيقاعاتِهِما عَمَّا قَرِيبٍ، لِيُواجِهَ أَخيرًا واقِعَه الفِعْلِيَّ الآخِذَ في المُخاصَمَةِ لا الصُّلْحِ؛ وإذا كانت المُلاحَظَةُ الأَوَّلِيَّةُ التي سَجَّلْناها مَفادُها تَجاذُبُ التَّيَّاراتِ المُتَبايِنَةِ لِمَوقِفِ النَّاقِدِ، فقدْ أَنْتَجَ التَّقَصِّي مُلاحَظَةً أَكْثَرَ عُمْقًا مَفادُها أنَّ الثَّابِتَ في كلِّ هذا، وبالرَّغمِ منه، إنما هو الانْطِلاقُ من تَصَوُّرِه عن **«وُحْدَةِ التُّراث»**.

---

(1) شوقي ضيف: [حوار] منشور تحت عنوان: حوار مع الدكتور شوقي ضيف؛ الحداثة ردة فكرية تلاشت وذهبت ريحها، مجلة الأدب الإسلامي، الرياض، المجلد السابع، العدد الثامن والعشرون، 1421هـ [2000م]، ص59؛ (نقلا- كما في هامش المجلة الفائتة ص58- عن مجلة الدعوة السعودية، عدد 20 أبريل 2000م).

(2) انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة، ص216، 221.

- 6 /2 -

أصداءٌ وخُلاصَةٌ

بهذا المَفهُومِ الذي تَبنَّاه ضيفٌ عن وُحْدَةِ التُّراثِ ارْتَبطَتْ مُمارَساتٌ نَقْدِيَّةٌ كثيرةٌ بوَصْفِها آثارًا له، وعلى أسسه التي أرساها استطاع الناقد حَسْمَ آرائه إزاءَ قَضايا مُلِحَّةٍ، ظَلَّ يُنافِحُ عنها طَوالَ مسيرته، من مِثْلِ: رأيه في قَوالِبِ الكِتاباتِ التُّراثِيَّةِ التي خَلَّفها أَسْلافُنا، والشِّعْرِ الحُرِّ وضَرُورةِ تَلافِي قُصُورِه المُوسيقِيِّ، كما مَرَّ بِنا، والنَّزَعاتِ الشِّعْرِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ وحدود الإِفادةِ مِنْها، وهي آراءُ أَسْهَمَتْ، حالَ تَشْكِيلِها هي وقَرِيناتِها مَنْظُومَةً مُتَساوِقَةً، في تَحْدِيدِ معالم مَواقِفِه النَّقْدِيَّةِ والفِكْرِيَّةِ من قضايا: التُّراثِ والمُعاصَرَةِ والتَّجْدِيدِ والوافِدِ، ومَعَ هذا لَمْ نُرِدْ فيما مَضَى من صَفَحاتٍ أن نَعرِضَ لأيٍّ منها عَرْضًا مُنْفَصِلا عن عَمَلِيَّة استِشْرافِ التَّصَوُّرِ ذاتِه، حتى لا تَقَعَ من السِّياقِ مَوْقِعَ الصَّدى فَحَسْبُ من الصَّوْتِ، وإنما عرَضْنا لها أَثْناءَ أداءِ هذه العَمَلِيَّةِ؛ لِتَنْعَكِسَ رُؤيَتُنا الخَاصَّةُ لها بِوَصْفِها مُقَوِّمًا من مُقَوِّماتِ اكْتِمالِه، وبِعِبارَةٍ أخرى شارحة: لقد أَسْلَمَتْ هذه الآراءُ المُنْفَرِدَةُ بِتَراكُمِها إلى التَّصَوُّرِ، في الوَقْتِ الذي كان التَّصَوُّرُ، في مَرْحَلةٍ ما بَعْدَ اكْتِمالِه، مُنْتِجًا لِكثيرٍ منها، أي أَنَّها كانَتْ مُتَداخِلَةً مع أَنْسِجَتِه مُسْتَعْصِيَةً على الفِصامِ.

وإذا كان قد آنَ لنا أن نَتَوقَّفَ ولو يَسِيرًا عِنْدَ نَمُوذَجٍ يَنْهَضُ بالإِبانَةِ عن المَدَى الواسِعِ الذي بَلَغَتْه هذه الأَصْداءُ، فمِنَ الطَّبِيعِيِّ، تأسيسًا على الرُّؤيَةِ الفائِتَةِ، أن نَتَحاشَى التَّرْكِيزَ على الآراءِ والمَواقِفِ المُجَرَّدَةِ، ونُحاوِلَ أن نُسَلِّطَ الضَّوْءَ على واحِدٍ من كُتُبه، لِيَكُنْ هنا كِتابَ: **دِراساتٍ في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ**

الـمُعاصِرِ[1]، الذي يُؤكِّدُ التَّأمُّلُ في وَحَدَاتِه أنَّ التَّصوُّرَ كان مُتحَكِّمًا ومُهَيمِنًا إلى دَرَجَةٍ كَبيرةٍ أثناءَ تَشْكِيلِها؛ فمن حيثُ الـمادَّة؛ يَلْقَانَا شُعراءُ من بِلادٍ شَتَّى: مِصرَ والعِراقِ وتُونُسَ ولُبْنانَ وسُورِيَّةَ بِالإضافَةِ إلى الـمَهاجَرِ الأَمْرِيكِيِّ، إنَّ هذا الانْتِقَاءَ ليس عَفْوِيًّا فيما يَظْهَرُ، كما لم تَفرِضْه غَايَةُ اسْتِيعابِ الجُزْئِيَّاتِ، بِدَلِيلِ أنَّ أَسْماءَ كَثِيرِينَ تَغِيبُ عنه، وإنَّما فَرَضَتْه نَظْرَةُ النَّاقِدِ التي بثَّها في تَصَوُّرِه، من أنَّ شُعراءَ العَرَبِيَّةِ لا يَشعُرُون فيما بيْنَهم بِتِلك «الحَواجِزِ الوَهمِيَّةِ» التي تُسَمَّى حُدُودًا جُغْرافِيَّةً، حَقًّا يَصِحُّ وضْعُها فوق خَرائِطَ وَرَقِيَّةٍ، لكن سَيَبْقَى التَّلاقِي بَيْنَهم رُوحِيًا وفَنِّيًا هو عُنْوانُ العَلاقَةِ، وهو أمْرٌ يَزْدَادُ وُضُوحًا عنْدَ حَدِيثِه على شُعراءِ الـمَهاجَرِ، بِدَايَةً من العُنوانِ: "ملامح شرقية في شعر الـمهاجَر الأمريكي"[2]، ومُرُورًا، على سبيل التمثيل، بنَعْتِه الحنينَ إلى الوَطَنِ- وهو بحَسْبه امتِدادٌ للرُّوحِ العَرَبِيَّةِ البَدَوِيَّةِ- مِفْتاحًا لفَهْمِ مَورُوثِهم الشِّعْرِيِّ، فبه يَتَراءَى جُنُوحُهم للطَّبِيعَةِ والـحُزْنُ الـمُمِضُّ، وهُما طابَعانِ للشِّعْرِ الـمَشْرِقِيِّ[3]، وانْتِهاءً بِحُكْمِه الذَّاهِبِ إلى أنَّ شاعِرَهم "لا يزال يسبح بين لجج شعره في زوارق شرقية عربية"[4].

---

(1) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام 1953م، في مكتبة الخانجي بالقاهرة، وأعيدت طباعته في عام 1959م، وإلى هيئتها سيعود الباحث؛ نظرا لاحتوائها على إضافات مهمة، فقد زاد عدد فصولها من عشرة فصول إلى خمسة عشر فصلا، أو بالأحرى زاد عدد الشعراء خمسة.

(2) شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، 1979م، ط7، ص245.

(3) انظر: شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي الـمعاصر، ص256- 274.

(4) شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي الـمعاصر، ص288.

في هذا الجانِبِ يَتَجَلّي الكِتابُ طَامِحًا لإنْتاجِ صُورَةٍ لا يَتورَّطُ بِريشَتِه مُطْلَقًا في إبْرازِ حُدُودِ لَبِناتِها، بَلْ دَائمًا انْسِيابٌ وانْسِرابٌ رَغْمَ ما يَنْتابُ الأَلْوانُ من تَدَرُّجاتٍ وتَقَلُّبَاتٍ ؛ لِتَبدُوَ الوَحَداتُ مُستَوعِبَةً اللَّوحَةَ بِمِساحاتِها كُلِّها دون تفاصُلٍ، وهو أمرٌ رُبَّما نَكُونُ قد لاحَظْناه بِدَرَجَةٍ ما أثناءَ التَّعَرُّضِ لِلنَّماذِجِ القَبْلِيَّةِ، فقد رأينا كيفَ صارَ شوقي وحافظ وخليل مطران مُمَثِّلِين مَدْرَسَةً واحِدَةً، مع أنَّ الأَخِيرَ لم يَكُنْ مِصْرِيًّا بالأَصالَةِ، ومَعَ أَنَّهُ، وهذا أَهَمُّ، لم يَكُنْ مُسايرًا لهما في الـمَضْمُونِ والأُسْلوبِ، لاتِّساعِ مِساحَةِ التَّجْدِيدِ لديْه ؛ حَتَّى لَيَكادُ أن يكون صاحِبَ مَذْهَبٍ مُسْتَقِلٍّ، ويُضِيفُ الناقِدُ إلى هؤلاء الثلاثةِ شعراء آخرين من أمثالِ: سليمان البستاني (ت: 1925م) وشكيب أرسلان (ت: 1946م) في لُبْنانَ، وخليل مردم (ت: 1959م) وشفيق جبري (ت: 1980م) في سُورِيَّة، ومحمد الشاذلي ومحمد النخلي (ت: 1924م) في الـمَغْرِبِ[1]، وكأنه في ذلك يَنْطَلِقُ من أن الـمَدْرَسَةَ الفَنِّيَّةَ فِكْرَةٌ لا تَعْرِفُ وَطَنًا سِوَى رَأْسِ من يَنْتَمِي إليها.

بِقَدْرِ هذا الطُّمُوحِ في استِيعابِ **الـمَكانِ**، راحَ الكِتابُ يُحاوِلُ أن يُبْرِزَ وَحَداتِ الصُّورَةِ مُتَجَاوِزَةً **الزَّمانَ** هو الآخَرَ، فمِن حيثُ مَنْهَجِيَّةِ التَّناوُلِ ؛ تَلْقانا مُمارَساتٌ تُؤَكِّدُ بثَباتِها النِّسْبِيِّ على ذلك، إذ تَتِمُّ مُقارَبَةُ نِتاجِهم أو شَخْصِيَّاتِهم بوَساطَةِ الارْتِكازِ على أَقْوَى الـملامِحِ بُرُوزًا وأَقْدَرِها، من وِجْهَةِ نَظَرِه، على الكَشْفِ في آنٍ. على سَبِيلِ التَّمْثِيلِ ؛ تَسْتَوقِفُه الـمادَّةُ التَّصْوِيرِيَّةُ

(1) انظر: شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر ؛ في مصر، ط*1*، ص*31*- *39*، وفصول في الشعر ونقده، *285*- *289*، *324*، *325*.

عنْدَ أبي رِيشة(ت: 1990هـ)[1]، أما علي محمود طه فألفاظُه الخَلابةُ بمُوسيقاها وشِحناتِها العاطِفِيَّةِ هي الشَّيءُ المثِيرُ للتَّأمُّلِ[2]، على حينِ يَنشَغِلُ ببَيانِ كَيفِيَّةِ تَوظِيفِ الزهاوي (ت: 1936هـ) العِلمَ في شِعْرِه[3]، ويَعنِينا هنا أنَّ هذه الجَوانِبَ، التي كان الكِتابُ يَبْتَغِي الكَشْفَ عنها، كان يَسْبِقُها غالِبًا حَدِيثٌ مُسْتَفِيضٌ عن جُذُورِها وأُصُولِها التُّراثِيَّةِ، حَتَّى مع تلك التي تبدُو مُغْرِقَةً في عَصْرِيَّتِها، فالكَشْفُ عن التَّأمُّلاتِ النَّفْسِيَّةِ عند ميخائيل نعيمة (ت: 1988م)، الذي يَنْطَلِقُ من أنَّها كانت ثَمَرَةً للانْفِتاحِ على البُحُوثِ السَّيكُولُوجِيَّةِ الحَدِيثَةِ، يَضْطَرُّ إلى التَّعْرِيجِ على الصُّوفِيَّةِ بشِقَّيها الرُوحِيِّ والفَلْسَفِيِّ، ويَظَلُّ يَسْتَحْضِرُ قَصائِدَ ابنِ الفارِضِ (ت: 632هـ) وابنِ سِينا (ت: 428هـ) وابنِ الشِّبْلِ (ت: 474هـ) وابنِ العَرَبِيِّ (ت: 638هـ)[4]، كما يُشِيرُ إلى المُتَنَبِّي وأَبِي العَلاءِ، لِيُؤكِّدَ أنَّ النَّفْسَ وما يَمُوجُ بها كانت دائِمًا مَحِلَّ تَأمُّلاتِهم ومُلْهِمَةَ خَواطِرِهم[5]، وكأنَّ الهَدَفَ من البحثِ لم يكن

---

(1) انظر: شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص229- 244.

(2) انظر: شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص195- 211.

(3) انظر: شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص71- 86.

(4) هكذا جاءَ اسمُ الشاعر في الكتاب: "ابن العربي"، في حين تَشِيعُ الإشارة إليه في الكُتُبِ الَّتي تَرْجَمَت له على النَّحْوِ الآتِي: "ابنِ عَرَبي"، انظر على سبيل التمثيل: ابن كثير: البداية والنهاية، دار المعرفة، اعتَنَى بها: عبد الرحمن اللادقي ومحمد غازي بيضون، بيروت، 1998م، 13/ 184، وبهذه الصورة الأخيرة يجيء أثناء ترجمته في سلسلة تاريخ الأدب، إذ يقول عنه ضيف: "هو أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن عربي الطائي"، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 8/ 363- 367، بَيْدَ أن الناقد لم يعتمد صورةً واحدةً، فقد تجتمعان في الكتاب الواحد، انظر على سبيل التمثيل: شوقي ضيف، 5/ 49، 188، 566، وكأنه كان لا يرى بصواب إحداهما.

(5) انظر: شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص212- 216.

الاتِّصالَ بشِعْرِ الشَّاعِرِ بحُضُورِه المُنْعَزِلِ، وإنَّما بحُضُورِه المُتَمَدِّدِ ذِي العَلاقَاتِ المُتَشابِكَةِ الضَّارِبَةِ بجُذُورِها في أَعْماقِ التَّارِيخِ؛ لِيُجَلِّيَ صِدْقَ تَصَوُّرِه عن الأُدَباءِ وآدابِهِم، ذلك الَّذِي أَفْصَحَ عَنْه بقوله: "الأديب لا ينبت فجأة من تلقاء نفسه، بل هو كالشجرة تضرب جذورها في أعماق بعيدة من تربة صالحة ثم تأخذ في النمو والتكون.. إن الأدب كبقية فروع النشاط الإنساني يبنى الحاضر فيه على أساس الماضي وينتفع فيه الخالف بتراث السالف؛ فيتكون من ذلك كلٌّ متصلٌ.."[1].

إنَّ شَخْصِيَّةَ الشِّعْرِ عند ناقِدِنا، حَسْبَ هذا التَّصَوُّرِ ووَفْقًا لِتِلْكَ المُمارَساتِ، تَغْدُو غَيْرَ مُؤطَّرَةٍ، بالمَعْنَى الذي يَجْعَلُها لا تَسْتَجِيبُ لِوَصْفِ القَدِيمِ أو الجَدِيدِ، كما لا تَخْضَعُ للتَّقْسِيمِ الإقْلِيمِيِّ السَّاذَجِ، فلَئِنْ كان يَفْصِلُنا عن زَمَنِ إِنْتَاجِه قُرُونٌ مُتَطاوِلَةٌ فإننا لا نَزالُ نَشْعُرُ بِحَداثَتِه لِحَياتِه فِينا زَمَنَ تَلَقِّيهِ، وإنْ كانت تُقْصِينا عن بِيئَتِه مَفاوِزُ فإنَّ سَفَراتِه العابِرَةَ تَكادُ تَتَزامَنُ مع وِلادَتِه، وهذا الذي عُنِينا باستِخْلاصِه ربَّما يَلْتَقِي مَعَ ما بَلْوَرَه النَّاقِدُ في مُقدِّمَةِ الكِتَابِ نَفْسِه، حين يقول: "وقد حاولت ألا أقتطعها من جذورها القديمة في شعرنا العربي الموروث، فإنها تبدو حينئذ بتراء اجتثت من أصولها اجتثاثا، ومن المعروف في تاريخ الآداب أن عصرا من عصورها في أمة من الأمم لا يمكن أن ينفصم عن العصور التي سبقته، وكأن هناك تيارا ثابتا خلف العصور المتعاقبة، يعمل في القديم ولا يزال يعمل في الجديد.. ومن المحقق أن شعراءنا تعمقوا في الآداب الغربية واستمدوا منها في بعض صور من شعرهم،

(1) شوقي ضيف: في النقد الأدبي، ص176.

ولكن من المحقق أيضا أنهم لم يفنوا أنفسهم فيها، بل ظلت لهم شخصيتهم العربية المستقلة، وهي شخصية تؤكد حاضرها بالاتصال بماضيها والتطور به تطورا يلائم عصرها.."[1].

هذا الفَهمُ الذي كوَّنّاه عن شَخْصيةِ الشِّعرِ العَرَبي في عُصُورِه؛ بِسَعْيه إلى أنْ يكونَ شامِلا، يُمكنُ أن يُسْهِمَ في إنْتاجِ فَهْم خَاصٍّ عن حَداثَتِه أو تُراثِيَّتِه، ليس فَحَسْبُ من جهة تَأْثِيرِ القَدِيمِ فِينَا أو جهة اتِّصالِنَا الحيِّ به، وإنَّما من جِهَةِ رَحْبَةِ الآفاقِ، وأقْصِدُ تلك التي سَتَجعَلُ من «المِقْياسِ الزَّمَنِيِّ» شَيئًا غيْرَ كافٍ لِتَحْدِيدِ المَلامِحِ المُمَيِّزَةِ لكلِّ نِتَاجٍ على حِدَةٍ، فلا يُمكنُ القَولُ إنَّ «الحَداثَة» مُرافِقَةٌ لِمُنْتَجاتِ اللَّحْظَةِ الآنِيَّة، هكذا في ظَنٍّ لا يَخْلُو من مُجازَفَةٍ، ولا إن «التُّراثِيَّة» رَهِينَةُ حِقْبَةٍ فائِتَةٍ بِعَينِها دُون غيْرِها، فَتَقادُمُ الزَّمَنِ، وهو عَامِلٌ خَارِجِيٌّ لا يَنْفَكُّ عن المَوجُوداتِ كلِّها، كَفِيلٌ بِوَسْمِ النِتاجِ الشِّعْرِيِّ بِمِيسَمِ التُّراثِ لِمُجرَّدِ رَحِيلِ صَاحِبِه، مع أنَّه قدْ يَكُونُ نِتاجًا مُتَفَنِّنًا في الخُرُوجِ عن التَّقالِيدِ مُوغِلا في التَّحْدِيثِ، وإذا استَقرَّتْ هذه الحَقائِقُ في أذْهانِنَا، بِحَقٍّ، كان من الضَّرُورِيِّ الاستِبْدالُ بنَظْرَةٍ ضَيِّقَةِ الأُفُقِ عن مَفْهُومِ المُعاصَرَة وَضَعَتْها مَوْضِعَ النِّدِّيَّةِ والتعاند مع مَفْهُومِ التُّراثِ، نَظْرَةً تَضْمَن لنا الوُضوحَ والنَّفاذَ إلى العُمْقِ، فتَتَجَلَّى لنا دائمًا عناصِرُ القديم في أَحْشاءِ الجَديدِ كما تَتَراءى لنا عَناصِرُ الجَديدِ مُوَرِّقَةً في حَنايَا القديم، ونُدْرِكُ أنه بِجِوارِ الأزْمِنَةِ التي تَحْتَوينا أَزْمِنَةٌ أَكْثَرُ تَمَدُّدًا بِحَياتِها بنا وفينا، تَمامًا كما أنه بِجِوارِ الأمْكِنَةِ التي نَسْكنُ فيها أُخْرَى تَسْكُنُنا.

---

(1) شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص6؛ باختصار.

كانَتْ هذه مُحاوَلَةً لِلْكَشْفِ عن تَصَوُّرِ ضيفٍ الأثير: «وُحْدَةِ التُّراثِ» واخْتِيارِ صِيَاغَتِه لها، تَكاتَفَتْ في سبيلِ ذلِك سِتُّ عَدَسَاتٍ للقيامِ بِمَهَمَّاتٍ: تَحْدِيدِ الخُطوطِ العَرِيضَةِ، وإظْهارِ المُعَوِّقاتِ وتَحْلِيلِ إجْراءاتِ الناقِدِ إزاءَها، ورَصْدِ الثَّغَراتِ، والبَحْثِ عن وُجودِه القَبْلِيِّ، وقِياسِ الثَّابِتِ على مُسْتَوى التَّصَوُّرِ والمُتَغَيِّرِ على مُسْتَوى الآراءِ النَّقْدِيَّةِ، والتوقُّفِ عند نَموذَجٍ يَنْهَضُ بِبَيانِ المَدَى الذي بَلَغَتْه أَصْداؤُه، وأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّه يَحِقُّ الآنَ الاجْتِهادُ في وَضْعِ بَعْضِ عِباراتٍ **تُبَلْوِر عَناصِرَ مَفْهُومِ هذا المُصْطَلح**[1]. إنَّ الوُحْدَةَ في التراث تَعْنِي، بِحَسْبِ ناقِدِنا، أنَّه كان دائِمًا يَصْدُر عن مَعِينٍ واحِدٍ؛ القرآنِ الكَرِيمِ بِلُغَتِه العالِيَةِ النَّمُوذَجِيَّةِ، مؤسِّسًا بذلك عَلاقَةً عُضْوِيَّةً بين الماضِي والحاضِرِ، بالمَعْنَى الذي يَجِدُ به الماضِي في الحاضِرِ قَرارًا مَكِينًا يَحْيا في حَناياه مِنْ جَدِيدٍ، ولا يَسْتَطِيعُ الحاضِرُ الإفْلاتَ من إشْعاعاتِ الماضِي وتَمَثُّلِه إذا أَرادَ البَقاءَ والاسْتِمْرارَ، ويمثِّلِ ما كانَتْ تَجْرِي في أَنْحاء التراث جَمِيعِها؛ المُنْتَجِ، كانت تَجْرِي في عروق الأَسْلافِ؛ المُنْتِجِين، يَشْعُرُون بها في نَشاطاتِهم الإِنْسانِيَّةِ كُلِّها، وهي مِنْ أَجْلِ ذلك أَصْلٌ لا يُؤَثِّرُ فيه شُذُوذٌ هُنا أو هُناك، أو ما قد يَبْدو بِالنَّظْرَةِ السَّطْحِيَّةِ من تَدابُرٍ بين المَشْرِق والمَغْرِبِ، ويَنْبَغِي أن

---

(1) بجانب ما تم الكشف عنه في هذا الفصل، يمكن هنا أن نُحيلَ على دراسة عبد الحكيم راضي التي حاولت أن تبيِّن العلاقة بين فهمه مسلَّمَةَ وحدة التراث وانفتاحه على المعارف المتنوعة، وتأثير هذا على مفهوم تاريخ الأدب لديه والتكامل المعرفي والمنهجي الذي سعى لتحقيقه في مسيرته، وإن كنا نلحظ أن منْجَز هذه الدراسة يعود إلى محاولة إيجاد الرابط العُضْوِي بين انشغالاته البحثية، لكن دون أن نَلْقَى كلمةَ الفَصْلِ حولَ التَّصَوُّر ذاتِه أو أصدائه، انظر: عبد الحكيم راضي: تكامل المعرفة النظرية والتطبيق في نتاج شوقي ضيف (دراسة)، مجلة تراثيات، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، يوليو 2005م، ص151- 166.

يُشْفَعَ الإِثْباتُ أَثْناءَ إضاءَتِنا بِالنَّفْيِ ، فهي لا تَعْنِي الاسْتِنْساخَ لِنَماذِجَ سابِقَةٍ ؛ إذ دائِمًا اتِّكاءٌ على قَدِيمٍ للنُّفوذِ إلى جَدِيدٍ، ولا تُعادِلُ الجُمُودَ عند قَوالِبَ بِعَيْنِها، بِدَلِيلِ قَبُولِ التَّجْديدِ ما دامَ يَحْتَفِظُ بالمُقَوِّماتِ والخَصائِصِ التُّراثِيَّةِ ويَرْبِطُه بها سَبَبٌ، ويبدو أنها لا تَشْتَرِطُ مَنْسُوبًا مُحَدَّدًا مِن تِلْكَ الخصائصِ لِتَقْبَلَ التَّجْدِيدَ، بل يَكْفِي فَحَسْبُ أن يَحْتَفِظَ بِوَمِيضٍ منها لِيَنْضَمَّ إلى قافِلَةِ أَجْزاءِ التراثِ المُتَقَلِّبِ في ظِلالِها، كما أنها ليست انْغِلاقًا على الذَّاتِ، لأَنَّها تَحْتَفِي بالوافِدِ وتُصْغِي إليه إذا كان مُتلائِمًا مع الذَّوْقِ العَرَبِيِّ ؛ بِحَيْثُ يَتَراءَى في شَكْلِه الجَدِيدِ كأنَّه صِناعَةٌ عَرَبِيَّةٌ خالِصَةٌ.

- 3 -

أولئكَ أسْلافِي[1]

"وإن من ينقل النظر في المكتبة العربية وبين دفاتها، ليجدن فيها كثرة غامرة من كتب النقد والنقاد، وغاية ما في الأمر أن أحدا منا لم يستغرقه هذا الجانب الطريف من الدراسة". شوقي ضيف: في الأدب والنقد، ص116.

(1) يتأسس هذا الفصل على البحث الذي نشرته بعنوان: "شوقي ضيف ومشروع التعريف بنقاد العرب القدماء"، في كتاب المؤتمر الدولي العاشر لكلية دار العلوم بالفيوم، أبريل 2008م.

- 1 /3 -

الجُذورُ والبِداياتُ الأولى

الإقْبالُ عَلى مَشْروعِ التَّعْريفِ بِنُقَّادِ العَرَبِ القُدَماءِ له ما يُبرِّرُه في سِياقِ مُقارَبَةِ الوَجْهِ النَّقْدِيِّ المُنْزَوِي، مِنْ حَيْثُ إنَّه «المَشْرُوعُ الرَّئِيسُ» الذِي انْشَغَلَ به ضيفٌ فِي مَسِيرَتِهِ العِلْمِيَّةِ إزاءَ النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ؛ وبِعِبارَةٍ شارِحَةٍ إنَّهُ يَمْتَدُّ زَمَنِيًّا عَلى نَحوٍ يَجْعَلُهُ حَقْلا خِصْبًا صالِحًا لِتَتَبُّعِ أَصْداءِ المُتَغَيِّراتِ المُحِيطَةِ بِالمَنْظُورِ النَّقْدِيِّ، وَيَتَّسِعُ مَكانِيًّا لِيَمتَزِجَ بِمَشْروعاتٍ أُخْرَى تَسِمُه بِمِيسَمِهَا وتُسْهِمُ في تَشَكُّلِه وصِياغَتِهِ، ومِنْ حَيْثُ نُهُوضِه بِتَجْسِيدِ وَعْيِ النَّاقِدِ بالدَّورِ الذِي يُؤَدِّيهِ التَّعرِيفُ فِي عَمَلِيَّةِ مَخاضِ «المَنْهَجِ» وتَراسُلِ مُفرَداتِه؛ وَمِنْ حَيْثُ كَوْنِه يَشِفُّ، وَهو أَلْصَقُ بِعُنْوَانِ الفَصْلِ، عَنْ سَعْيِ الذَّاتِ العَرَبِيَّةِ النَّاقِدَةِ إِلَى تَدشِينِ المَلاذِ الَّذِي تَعْتَصِم به هُوِيَّتُها التُّراثِيَّةُ أَمامَ طُوفانِ المَناهِجِ الغَرْبِيَّةِ الحَدِيثَةِ. ولَعَلَّ أَوَّلَ مَا يَنْبَغِي أنْ يَشْغَلَنَا فِي هَذا المَقامِ هو الإِجابَةُ عن سُؤَالٍ مُؤَدَّاهُ: **مَتى بَدَأَ التَّفْكِيرُ فِي هَذا المَشْرُوعِ؟** وَبِسَبَبِ غِيابِ النُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ فِي هَذا الشَّأنِ، فلنْ تَكونَ الإجابةُ بِتَحْدِيدِ الوَقْتِ الذِي بَدَأَ فِيهِ التَّفْكِيرُ عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ، وإنَّمَا على وَجهِ التَّقرِيبِ؛ بِوَساطَةِ التَّأَمُّلِ فِي بعضِ النُّصُوصِ والاستِنْباطِ مِنْها، يَجِيءُ على رَأسِها ذلك النص الذي يَذْكُرُ فيهِ ضيفٌ أنَّه شَرَعَ أثناءَ عَمَلِه مُحررًا بِمَجْمَعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي قِراءَةِ كُتُبِ النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ وتَدْوِينِ المُلاحَظاتِ النَّقْدِيَّةِ لها فِي جُذاذاتٍ وَرَقِيَّةٍ؛ مُبْتَدِأً بكُتُبِ الجَاحِظِ ومُنْتَهِيًا بكُتُبِ ابنِ الأثِيرِ[1]، ونَحْنُ نَعْرِفُ أنه ظَلَّ

(1) انظر: شوقي ضيف: معي، 1 / 121.

في عَمَلِه هذا الـمُدَّةَ الزَّمَنِيَّةَ الواقِعَةَ بَينَ عَامَيْ 1935م و1936م؛ إذ مِن الـمُتَوَقَّعِ أنَّ آمالا ظَلَّتْ تَلُوحُ له في هَذه الأَجْواءِ كُلَّما تَرَكَ كِتابًا لآخَرَ، بِالبَدْءِ في الكِتابَةِ عن هَذا الكِتَابِ أو هذا النَّاقِدِ، لاسِيَّما وقدْ كان اخْتَطَّ شَيئًا مِن مُستَقْبَلِهِ بِوَصفِه كاتِبًا، مُنذُ مَقالاتِه النَّقدِيَّةِ الَّتِي نَشَرَها فِي مِجَلَّةِ الرِّسالَةِ في عام 1934م، بَلْ لا يَبْعُدُ أنْ تَكُونَ هذهِ الآمالُ هي الدَّافِعَ لِمُواصَلَةِ القِراءَةِ وتَدْوِينِ الـمُلاحَظاتِ، لِتَغدُوَ هذهِ الـمَرْحَلَةُ «الـمُناخَ الزَّمَنِيَّ» الذِي يَتَلاءَمُ ونَشْأَةَ التَّفْكِيرِ في هَذا الـمَشْرُوعِ.

إذا سَلِمَ لنا هَذا الفَرْضُ، بِصُورَةٍ مَبْدَئِيَّةٍ، جازَ النَّظَرُ إلَى هَذهِ «الخُطْوَةِ» عَلَى أنَّها إِفْرازٌ لإِدْراكِ النَّاقِدِ وظِيفَتَهَا وعَلاقَتَهَا التَّأسِيسِيَّةَ بِخُطُواتِ الـمشرُوعِ القايِلَةِ، يُعَضِّدُ مِن هَذا نَصٌّ آخَرُ، يَقُولُ فِيهِ أَثْناءَ حَدِيثِهِ عَنْ أُسْتاذِهِ أحمد أمين: "وكان دائما يوصي الفتى ورفاقه أن يعنوا بتسجيل معلوماتهم في جذاذات وأن يتعودوا في بواكير حياتهم أن يلتقطوا من الكتب التي يقرءونها خير ما فيها ويدونوه في هذه الجذاذات أو الوريقات حتى إذا احتاجوا إليه في المستقبل وجدوه مَدَّ أيديهم وتحت أبصارهم ..ولم يعرف الفتى قيمة هذه الوصية إلا بعد أن عني بالبحث وعرف بوضوح أنه فاته الكثير بسبب إهماله هذه الطريقة واتّكاله الخاطئ على الذاكرة .."[1]، والذِي فاتَ ضيفًا طَبَعًا كان شَيئًا آخَرَ غَيرَ الذِي نَتَحَدَّثُ عَنْهُ، لأنَّهُ بِالفِعْلِ قدْ قامَ بِه عَلى أَتَمِّ وَجْهٍ؛ مُطَبِّقًا وَصِيَّةَ أُسْتاذِه، ودَلالَةُ النَّصِّ الَّتِي نُرِيدُ أنْ نَلْفِتَ إِلَيهَا تَكْمُنُ فِي إِشارَتِه الواضِحَةِ إِلَى **مُستَهْدَفاتِ عَمَلِيَّةِ التَّدْوِينِ وصُنْعِ الجُذاذاتِ**، وأنَّه لمْ يَكُنْ يَقصِدُ

---

(1) شوقي ضيف: معي، 1/ 107، 108.

بِهَا إِلَى مُجَرَّدِ «الاسْتِذْكارِ»، وإِنَّما إِلَى مَا قد يَنْشَأُ مِن حاجاتٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ، أَظُنُّ أَنَّنَا لا نَحْتاجُ فِي إِلْحاقِ حاجَةِ البَحْثِ والتَّأْلِيفِ بِها إِلَى عَنَتٍ، وفِي هذا مَا يَجْعَلُنَا نَطْمَئِنُّ أَكثَرَ إِلَى نَظْرَتِنَا السَّابِقَةِ[1].

أَيًا ما كان أَمْرُ هَذه الـمَرْحَلَةِ الـمُبَكِّرَةِ مِن حَياةِ ضيفٍ العِلْمِيَّةِ (1935-1936م)، فإِنَّ وَضْعَ «اللَّبِنَةِ الأُولَى» لِهذا الـمَشْرُوعِ لمْ يَتَأَخَّرْ كَثِيرًا عَنهَا، إِذْ نَجِدُه يَنْشَغِلُ مَا بَينَ عامَيْ 1937م و1938م بِإِنْجازِ رِسالَةِ الماجِستيرِ: "النَّقْدِ الأَدَبِيِّ فِي كِتابِ الأَغانِي"، الَّتِي تَوَقَّفْنا عِندَ بَعْضِ القَضايَا الـمُتَّصِلَةِ بِهَا فِي الفَصْلِ الأَوَّلِ، وَيَهُمُّنَا هُنَا تَسْجِيلُ أَنَّهَا عُنِيَتْ بالـمَشْهدِ النَّقْدِيِّ العَرَبِيِّ القَدِيمِ الـمَرْسُومَةِ مَلامِحُهُ فِي كِتابِ الأَغانِي، عُمْدَتُها فِي ذَلكَ مَا كان الْتَقَطَهُ أَبُو الفَرَجِ الأَصفَهَانِيُّ مِن آراءَ نَقْدِيَّةٍ دائرَةٍ حَولَ الصِّناعَةِ الشِّعْرِيَّةِ، سَواءٌ أَكانتْ هَذِهِ الآراءُ آراءَ صاحِبِ الكِتابِ نَفْسِهِ أَمْ كانَتْ آراءَ غَيرِهِ مِن النُّقَّادِ، وبِهذا الوَصْفِ يَصِحُّ أَنْ تُصْبِحَ الرِّسالَةُ بِدايَةَ مَشْرُوعِ التَّعريفِ بالنُّقَّادِ العَرَبِ وكُتُبِهم، لَولا بَقاؤُها إِلَى الآنَ فِي تَعْدادِ الرَّسائِلِ الجامِعِيَّةِ الـمَخْطُوطَةِ؛ إِذْ يَسْلُبُهَا هَذا الأَمْرُ تلكَ الـمَكانَةَ، أَوْ يَجْعَلُها بِالأَحْرَى بِدايَةً مع «إِيقافِ التَّفْعِيلِ»، وكَأَنَّمَا تَزَحْزَحَتْ هَذِهِ الرِّسالَةُ عَنْها لِتَشْغَلَها الـمَقالاتُ الَّتِي كَتَبَها بَعْدُ عَنْ النُّقَّادِ العَرَبِ فِي الـمِجَلاتِ الأَدَبِيَّةِ الـمُخْتَلِفَةِ، وهَذا يَعنِي باخْتِصارٍ أَنَّ البِدايَةَ

---

(1) لعله يتضح أننا لا نَنْطلق هنا من الربط الحتميِّ بين هذه الخطوة وما قام به ناقدُنا فيما بعد، وإنما من تأملها في ذاتها وما يصاحبها عادةً من آمالٍ تراود الباحثَ، خاصةً في سنيِّه الأولى، مشكِّلةً واقعًا يشبه إلى حد كبير أحلامَ اليقظة، صحيحٌ أنه اعترف بتأليفه كتابا عن النقد وكتب مقالات عن نقاد العرب المهمين من هذه الجذاذات، غير أن هذا الاعتراف لم يتضمن أي دلالة تجعل خطوتَه خطوةً محددةً سلفًا وفقَ إستراتيجية بحثية، وهو الأمر الذي جعلنا ننطلق من خارجه لا من داخله.

الحَقِيقِيَّةَ لِهذا المَشرُوعِ تُمثِّلها تِلْك المَقالاتُ لا رِسالَةُ الماجِسْتِيرِ، لكنْ تَنْبَغِي الإشارَةُ أَخِيرًا إلَى أنَّ أبا الفَرَجِ وكِتابَهُ الأغانِي بَينَمَا حُرِمَا مِن تَصَدُّر قائِمَةِ مَشرُوعِ التَّعْرِيفِ بِنُقَّادِ العَرَبِ وكُتُبِهِم، فَإنَّ مَقالَيِن مُبَكِّرَين كَتَبَهُما ضيفٌ قدْ يُعَوِّضانِ بَعضَ هذا، وأقصِدُ إلَى مَقالَي: "أَبُو الفَرَجِ النَّاقِد" (يَنَاير 1944م)، و"الرِّوايَة الأَدَبِيَّة فِي الأغاني" (فِبْرَاير 1944م).

لمْ يَتَوانَ ضيفٌ فِي مُتابَعَةِ هَذا المَشْرُوعِ واستِكْمالِ لَبِناتِه، ويَسْتَوقِفُنَا فِي هَذا السِّياقِ عَمَلانِ قامَ بِهِما؛ لِما كان لِكُلٍّ واحِدٍ مِنْهُما مِن فَضْلٍ كَبِيرٍ فِي إتْمامِ خُطُواتِ هَذا المَشْرُوعِ، وإِحداثِ مَا يُمكِنُ أَنْ نَصِفَهُ بِأَنَّهُ «**نُقْلَةٌ نَوعِيَّةٌ**» فِي سِيرَتِهِ، الأَوَّلُ: **كِتابُ "النَّقْدِ"** (1954م) الذِي ضَمَّنَهُ بَحثًا تَحْلِيلِيًّا لِكَثِيرٍ مِن النُّقَّادِ العَرَبِ القُدَماءِ وكُتُبِهِم، مِن أَمثَالِ: ابنِ سَلامِ الجُمَحِيِّ (ت: 231هـ) والجاحِظِ وابنِ المُعْتَزِّ وقُدامَةَ والآمِدِيِّ وعَلِيِّ بن عَبدِ العَزِيزِ الجرجانيِّ وابنِ الأَثِيرِ..، يَسْبِقُ كُلَّ ذَلكَ حَدِيثٌ عَنِ النَّقْدِ فِي أَطْوارِهِ الأُولَى، أَيْ فِي الجاهِلِيَّةِ وصَدْرِ الإِسْلامِ، ويَلْحَقُ بِهِ حَدِيثٌ عَنْ جُمُودِه مَعَ جُمُودِ الحَياةِ العَقْلِيَّةِ والفَنِّيَّةِ، ورَغْمَ أَنَّ بَعضَ هؤُلاءِ النُّقَّادِ، كالآمِدِيِّ مَثَلا[1]، كَانَ قَدْ عَرَضَ لَهُمْ ناقِدُنَا مِن قَبلُ فِي مَقالاتِهِ المُشارِ إلَيها آنِفًا، فَإنَّ لِلكِتابِ قِيمَةً عَظِيمَةً تُستَمدُّ مِن أَنَّه المُحاوَلَةُ الأُولَى التِي يَتَحَقَّقُ فِيهَا المُجاوَرَةُ والتَّضامُّ؛ الأَمرُ الذِي أَتاحَ، مِن نَاحِيَةٍ، مَجالا لِلمُوازَنَةِ وتَحَسُّسِ المُتَشابِهِ والمُتَخالِفِ ومُلاحَظَةِ

---

(1) انظر: شوقي ضيف: النقد، ص78- 89، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1984م، وكان ضيف من قبل قد كتب مقالين عن الآمدي في مجلة الثقافة تحت عنوان: "الموازنة بين أبي تمام والبحتري"، في عددي: 11يولية 1944م، ص12- 15، 1أغسطس 1944م، ص14- 17، وأعاد نشرهما في كتاب: في الأدب والنقد، ص137- 148، بعنوان: "الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي".

الثَّابِتِ والـمُتَغَيِّرِ، وسَمَحَ، مِن ناحِيَةٍ أُخرَى، بِالنَّظَرِ إِلَى التُّراثِ النَّقْدِيِّ العَرَبِيِّ نَظْرَةً شُمُولِيَّةً كُلِّيَّةً.

أمَّا العَمَلُ الثَّانِي فَهُوَ: كِتابُ "**البَلاغَةِ تَطَوُّر وتارِيخ**" (1965م) الَّذِي يَعْرِضُ فِيهِ ضيفٌ تارِيخَ البَلاغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي أَطْوارِها ذاتِ الـمُلْحقاتِ الآتِيَةِ: النَّشْأةِ والنُّمُوِّ والازْدِهارِ والجُمُودِ، ويُلْحِقُه ذَلكَ إِلَى التُّراثِ البَلاغِيِّ؛ يُحلِّلُ مَا فِيهِ مِن قَضايا ويُعرِّفُ بِأَصْحابِه وجُهُودِهم، عَلى نَحْوٍ يَجْعَلُ مِن حالته حالَةً مختلفةً عن كِتابِ النَّقْدِ مِن حَيثُ الكَمِّ والكَيفِ؛ فَهُوَ يَعْرِضُ لِنُقَّادٍ لم يَتَناوَلْهُم مِن قَبْلُ مِثلِ ابنِ طَبَاطَبَا العَلَوِيِّ (ت: 322هـ)، كَمَا يُطِيلُ النَّفَسَ ويُعمِّقُ البَحْثَ فِي بَعْضِ الكُتُبِ التِي سَبَقَ العَرضُ لَها، ويَبْدُو أنَّ ناقِدَنا نَفْسَه كَانَ يَشْعُرُ بِذَلكَ؛ إِذْ نَراهُ كَثِيرًا أَثْناءَ حَدِيثِه عنْ كِتابٍ نَقْدِيٍّ فِي مُؤَلَّفاتِه اللاحِقَةِ يُحِيلُ عَلى كِتابِ البَلاغَةِ دُونَ النَّقدِ، سَواءٌ أَكان هَذا الكِتابُ مُعَرَّفًا به فِيهِ وَحْدَه أَمْ فِي كِلَيْهِما، مِن مِثلِ صَنِيعِه مَعَ كُتُبِ: البَيانِ والتَّبيُّنِ لِلجاحِظِ، وعِيارِ الشِّعْرِ لابنِ طَباطَبَا العلوي، ونَقْدِ الشِّعْرِ لِقُدامَةَ بن جعفر[1]، الأَمرُ الذِي يُصَوِّرُ الـمدَى الذِي بَلَغَهُ إِحْساسُه الشَّخْصِيُّ بِأَثرِ هَذا الكِتابِ الخَطِيرِ فِي تَطَوُّرِ الـمَشْرُوعِ ونُمُوِّه.

لَكِنْ هُنا قدْ يَنْشَأُ سُؤالٌ عنْ **حَيْثِيَّاتِ إِدْرَاجِنا هَذا الكِتابَ**، الذِي يُحيلُ عُنْوانُه عَلى التُّراثِ البَلاغِيِّ، فِي سِياقِ الحَدِيثِ عنْ مَشْرُوعِ التَّعرِيفِ بِنُقَّادِ العَرَبِ القُدَماءِ، والإِجابَةُ لا تَحتاجُ إِلا إِلَى تَأَمُّلٍ هادِئٍ فِي مَنْطِقِ الكِتابِ نَفْسِهِ وطَبِيعَةِ الـمادَّةِ الَّتِي يُعالِجُهَا؛ لِنَتَمَكَّنَ مِن التَّنَبُّهِ إِلَى أَمْرَينِ؛ **الأَوَّلِ**: أَنَّ مُعظَمَ

(1) انظر على سبيل المثال: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، *4/ 154- 157*.

الكُتُبِ البَلاغِيَّةِ القَدِيمَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْرِضُ لِلبَلاغَةِ عَرَضَتْ لِلنَّقْدِ فِي آنٍ، وَلَعَلَّ مِن أَكثرِ المَظاهِرِ فِي الكِتابِ نَفْسِه وُضُوحًا عَلى ذَلِكَ أَنْ النَّاقِدَ ظَلَّ يَتَحاشَى قَدْرَ طاقَتِهِ الحَدِيثَ عَمَّا أَسْماهُ: «النَّقدَ الخالِصَ»، ونَضْرِبُ لِذَلكَ مَثَلا مَا كانَ مِنْه أَثْناءَ حديثه عن الفَصْلِ الثَّالِثِ مِنْ كِتابِ نَقْدِ الشِّعرِ لِقُدامَةَ، وتعليلِه لِعَدَمِ تَفْصِيلِهِ فِيهِ بِأَنَّهُ يَتَّصِلُ بِالنَّقْدِ الخالِصِ، مِن حَيثُ تناوُلِه عُيوبَ الشِّعرِ ووُجُوهَ رَداءَتِهِ[1]، حَتَّى إذا أَتَى عَلَى كُتُبِ: عِيارِ الشِّعْرِ، والمُوازَنَةِ بين أبي تمام والبحتري، والوَسَاطَةِ بين المتنبي وخصومه، لمْ يَجِدْ بُدًّا مِن أَنْ يَتَناولَها تَحتَ عُنوانِ: "دراسات نقدية على أسس بلاغية"، ويُصَدِّرُ الحَدِيثَ عنْهم بِقَولِهِ: "امتزجت كتب النقد بالمباحث البلاغية، إذ دارت في جملتها على البحث في معاني الشعراء وألفاظهم ومهارتهم في استخدام فنون البيان والبديع"[2]؛ مُبَرِّرًا بذلك وَقْفَتَه لَدَيْها في ظَرْفِه الخَاصِّ.

أَمَّا الأَمْرُ **الآخَرُ** فَهُوَ أَنَّ مُعْظَمَ البَلاغِيِّينَ كَانُوا نُقَّادًا فِي الوَقتِ ذاتِهِ، يُؤَكِّدُ هَذا عَلَى مُستَوَى الكِتابِ أَنَّنا نُقابِلُ فِيهِ الشَّخْصِيَّاتِ نَفسَها التِي قامَ عَلَيها كِتابُ النَّقدِ، وعَلَى مُستَوَى نِتاجِ النَّاقِدِ أَنَّنا نُقابِلُ بَلاغِيِّينَ عَرَضَ لَهُم فِي هَذا الكِتابِ ثُمَّ عادَ فَأَدْرَجَ الحَدِيثَ عنْهم مَعَ النُّقَّادِ كَما صَنَعَ، على سبيل التمثيل، مَعَ صَفِيِّ الدِّينِ الحِلِّيِّ (ت: 750هـ) صاحِبِ البَدِيعِيَّةِ المَشْهُورَةِ التِي نَظَمَها عَلَى غِرارِ بُرْدَةِ البُوصِيرِيِّ فِي مَدِيحِ النَّبِيِّ ﷺ، مُضَمِّنًا كُلَّ بَيتٍ فِيهَا مُحَسِّنًا بَدِيعِيًّا، وهو أيضا صاحِبُ شَرحِهَا المُسَمَّى: "النَّتائِجَ الإِلَهِيَّةَ فِي شَرحِ

(1) انظر: شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص91.

(2) شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص122، وحول قضية امتزاج مباحث علمي النقد والبلاغة؛ انظر أيضا: النقد، ص101، وتاريخ الأدب العربي، 4/ 153.

الكافِيَةِ البَدِيعِيَّةِ"، ولأَجْلِ هَذا تَمَّ الحَدِيثُ عَنْه مَعَ جَماعَةِ البَلاغِيِّينَ[1]، ولأنه، من جهة أخرى، صاحِبُ كِتابِ: "العاطِلِ الحالِي" الذِي يَعرِضُ فِيهِ فُنونَ: الزَّجَلِ والـمَوَالِيا والقُوما والكَانْ كانْ[2]، مِنْ الشِّعرِ العَامِّيِّ، مُفَصِّلا القولَ في نَشْأَتِها وأَوْزانِها وقَوافِيها، كَما يَتَناولُ بَعْضَ شِعْرِ ابنِ سَناءِ الـمُلْكِ

(1) انظر: شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص360- 365، ، وانظر أيضا له: تاريخ الأدب العربي، 5/ 304، 305.

(2) عن هذه الـمصطلحات وما تحيل عليه من أشكال فنية، يمكن أن نعطي تقارير مختصرة، فالزَّجَل، ومعنى لفظته في اللغة التَّطْرِيبُ، فَنٌّ شعري اخترعه الأندلسيون في مقابل الموشحة؛ إذ يُنْظَم غالبًا بلُغَةٍ عامِّيَّةٍ في حين تنظم الـموَشَّحَة بالفُصحى، وبلغ أشده عند ابن قُزْمان الأندلسي، وشاع من حينها في الأقطار العربية، أما الـمواليا ففنٌّ شعري قد يكون مُعَرَّبًا وقد يكون مَلْحُونًا، ويقال: إن أول من اخترعه هم أهل واسِطٍ في العراق، ناسِجِين إياه على بَحْرِ البسيط، تتكرر أربعَ مَرَّات بقافيةٍ واحدةٍ، أما الكان وكان فَفَنٌّ شعري اخترعه البغداديُّون، كان يُعْنَى أول أمره، كما يبدو من اسمه، بِنَظْم الحكايات والقصص الغابِرَة، ويتكون من أدْوارٍ، كلُّ دور يتكوَّن من أربعة شطور، تشترك الثانيةُ والرابعةُ منها في القافية الـموحَّدة التي تَحْوِي حرفَ عِلَّة قبل حرفِ الرَّوِيِّ، ويتميز بطول الشَّطر الأول على الثاني في كل بيت، أما القُوما ففن شعري اخترعه أيضا البغداديون، مشتقِّين اسمَه من قولهم: "قوما للسحور"؛ لأنه كان يتغنَّى أولا إيقاظَهم لذلك، وقد اتخذ له وزنان؛ الأول: يشتق من البسيط، على صورة أربعة شطور، يتفق الأولُ والثاني والرابعُ في القافية ويختلف الثالثُ، والآخر: على صورةِ ثلاثةِ أقفالٍ مختلفة الوَزْنِ متفِقةِ القافية، وتتزايد في طولها تَرَاتُبِيًّا، وبصورة مُجْمَلَةٍ فقد كان القرنُ السادِسُ الهجري هو الـمناخَ الزَّمَنِيَّ الذي سَلَكَتْ فيه هذه الفنون سبيل التَّمَيُّزِ والبُروزِ. للمزيد حول هذه الفنون ونشأتها وتطورها وانتسابها إلى الأقاليم العربية؛ انظر: ابن سعيد الأندلسي: الـمقتطف من أزاهر الطرف، تحقيق: سيد حنفي حسنين، الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة الذخائر)، القاهرة، 2004م، ص239- 266، وصفي الدين الحلي: العاطل الحالي والـمرخص الغالي في الأزجال والـموالي، تحقيق: حسين نصار، الهيئة الـمصرية العامة للكتاب القاهرة، 1981م، ص5، 6، 105- 108، 115، 127، 128، وسيد حنفي حسنين: الجديد في مقتطف ابن سعيد، مجلة الـمعهد الـمصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1986، مجلد 23، ص51- 58.

بِالنَّقْدِ، فقد وجَدْناهُ مُنْخَرِطًا بَعدَ ذلك فِي جَماعَةِ النُّقَّادِ فِي سِلْسِلَةِ تارِيخ الأَدَبِ[1]، هَذا فَضْلا عَن العَلاقَةِ التِي تَوَطَّدَتْ بَينَهُمَا أَثنَاءَ اعْتِمادِ ناقِدِنَا- فِي مُحَاوَلَتِه إِثباتَ عُرُوبَةِ الموَشَّحاتِ وأَوزانِهَا، ودَحْضَ آراءِ المُسْتَشْرِقِينَ القائِلِينَ بِنَشْأَتِها تَحتَ تَأْثِيرِ مُحاكاةِ الفُنُونِ الأَورُوبِّيَّةِ- عَلَى بَعْضِ نُصُوصٍ فَرِيدَةٍ ومُهِمَّةٍ أودَعَها صَفِيُّ الدِّينِ كِتابَه: "العاطِل الحَالِي"[2]، لِيتأكد لَنا أَخِيرًا أن كِتابَ "البَلاغَةِ تَطَوُّر وتارِيخ" كان مُسْهِمًا بِشَكْلٍ قَوِيٍّ ومُباشِرٍ فِي المَشْرُوعِ الذي نستجلي خُطُواتِه الأولى وأركانَه المؤسِّسَةَ.

(1) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 5 / 304، 305، انظر: صفي الدين الحلي: العاطل الحالي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي، ص15، 17، 22، 34، 64، وشوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 8/135، 167- 171.

(2) انظر: صفي الدين الحلي: العاطل الحالي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي، ص15، 17، 22، 34، 64، وشوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 8/135، 167- 171.

- 2 /3 -

في حضانة سلسلة تاريخ الأدب

فِي عام 1973م يَتَّخِذُ هَذا الـمَشْرُوعُ مَنْحًى جَدِيدًا ؛ ذَلكَ أنَّ سِلْسِلَةَ تارِيخِ الأَدَبِ تَبْدَأُ ، مُنذُ الجُزْءِ الرَّابعِ : العَصْرِ العَبَّاسِيِّ الثَّانِي ، فِي تَخْصِيصِ بعضِ صَفَحاتٍ لِلْحَدِيثِ عَنْ «عِلْمِ النَّقْدِ» ، وما يَسْتَدْعِيه من حديثٍ عن النُّقَّادِ وكُتُبِهِم ، وبَينَما تَظَلُّ السِّلْسِلَةُ تَقُومُ بِهَذا الدَّورِ طَوالَ هَذِه الـمَرْحَلَةِ الـمُتَأَخِّرَةِ مِن حَيَاةِ النَّاقِدِ (1973- 1995م) ، فَإنَّ الـمَقَالاتِ والكُتُبَ الَّتِي كانَتْ تُعرِّفُ بِنُقَّادِ العَرَبِ القُدَماءِ وجُهُودِهِمْ تَتَوَقَّفُ عن الأداءِ ، الأَمْرُ الذِي بَوَّأَ السِّلسِلَةَ مَنْزِلَةَ «**اللِّسانِ النَّاطِقِ**» باسْمِ الـمَشْرُوعِ مُدَّةً كَبِيرَةً وأَهَّلَهَا مِن ثَمَّ لِبَلْوَرَةِ الصِّيغَةِ النِّهائِيَّة له ، وأَظُنُّ أنَّ فِي هذا مِن حَيْثُ هُو مَا يَسْتَحِثُّنا لِلتَّوَقُّفِ عِندَها ، وحَقًّا سَتُؤكِّدُ لنا الـمُلاحَظاتُ الـمُتَمَخِّضَةُ عنْ ذَلكَ ، التِي سَنَسُوقُها الآنَ ، صِدْقَ حَدْسِنا :

- **تُعَرِّفُ السِّلْسِلَةُ بِتِسْعَةٍ وأَرْبَعِينَ ناقِدًا** عِندَ تَعَرُّضِها إِلى عِلْمِ النَّقْدِ ، تَبْدَأُ بِبِشْرِ بن الـمُعْتَمِرِ (ت: 210هـ) وتَنْتَهِي بِيُوسُفَ البَدِيعِيِّ (ت: 1073هـ) ، وهُو عَدَدٌ ضَخْمٌ يَعكِسُ مَا تَتَمَتَّعُ به السِّلْسِلَةُ مِن استِيعابٍ مُتَأَنٍّ لِنُقَّادِ العَرَبِ عَلَى مَرِّ العُصُورِ واخْتِلافِ الأَقْطارِ ، تَمَّ ذَلكَ فِي إِطارٍ زَمَنِيٍّ (232- 334هـ) أَثْناءَ بَحْثِ الحَيَاةِ العَقْلِيَّةِ فِي الجُزْءِ الرَّابعِ مِنها : العَصْرِ العَبَّاسِيِّ الثَّانِي ، دُونَ النَّظَرِ إِلَى اخْتِلافِ بِيئاتِ النُّقادِ الـمَكانِيَّةِ ، وفِي إِطارٍ إِقْلِيمِيٍّ أَثْناءَ بَحْثِ الثَّقافَةِ فِي بَقِيَّةِ أَجْزائِها ؛ لِيُفسِحَ أَمامَ قِيامِها بِتَتَبُّعِ النُّقَّادِ وتُراثِهِم ، الخَاصِّ بِهَذِهِ البُقْعَةِ أو تِلك ، ومِنْ أَجْلِ هَذَا خَلا الحَدِيثُ فِي بَعضِ الأَقالِيمِ مِثْلِ لِيبْيَا والـمَغْرِبِ الأَقْصَى ومُورِيتانْيَا والسُّودانِ مِن التَّعَرُّضِ لِعِلْمِ النَّقدِ ، وخَلا في أُخرَى مِثْلِ

صِقِلِّيَّةَ[1] مِنْ ذِكْرِ نُقَّادٍ يُمَثِّلُونَه، وهَذا يَعْنِي أنَّ ناقِدَنا كانَ يَمْنَحُ الإقْلِيمَ بِمَا شَهِدَتْ أَرْضُه مِن تُراثٍ حُرِّيَّةَ الإفْصاحِ عَن ذاتِهِ، بِالمَعْنَى الذِي يَجْعَلُ مِن تَحْلِيلِ عَنَاصِرِ الحُضُورِ أو الغِيابِ فِي خارِطَتِه الَّتِي يَرْسُمُها سَبِيلا للوُصُولِ إلى نَظِيراتِها المَشْهُودَةِ عَلَى أَرْضِ الواقِعِ، ولَعَلَّه يُعَضِّدُ هذه الدِّلالَةَ أَنَّهُ أَثْناءَ الحَدِيثِ عَن عِلْمِ النَّقْدِ فِي إقْلِيمِ الشَّامِ[2] غَايَرَ مِن طَرِيقَتِه فِي التَّعَرُّضِ لِلمُؤَلِّفِينَ والكُتُبِ؛ إذْ نَجِدُه يَتَوقَّفُ لِلمَرَّةِ الأُولَى عِندَ حَلْقَةٍ مِن الحَلَقاتِ الأَدَبِيَّةِ والنَّقْدِيَّةِ، وأَقصِدُ حَلْقَةَ حَلَبٍ الَّتِي تَكَوَّنَتْ حَولَ سَيفِ الدَّوْلَةِ، وَيَتَوَقَّفُ عِندْ أَثَرِ المُتَنَبِّي فِي إذْكَاءِ رُوحِ النَّقْدِ فِيها، ومَا تَوَفَّرَ فِي شِعْرِه مِن إشْكَالاتٍ تَسَبَّبَتْ فِي إثارَةِ غُبارٍ نَقْدِيٍّ لُغَوِيٍّ، عَلَى حَدِّ تَعبِيرِه، مِن جِهَةِ الحُضُورِ، ويَظْهَرُ أَنَّ الدَّافِعَ لِمَسْلَكِ ناقِدِنَا هُنا ما كانَ سَجَّلَهُ عَلَى هذا الإقْلِيمِ مِن أَنَّهُ تَأَخَّرَ فِي صِناعَةِ كُتُبِ البَلاغَةِ والنَّقْدِ مِن الوِجْهَةِ النَّظَرِيَّةِ، كما يُعَضِّدُها كذلك ما نَلْحَظُه مِنْ أَنَّ واحِدِيَّةَ المَوضُوعِ أَحْيانًا كانت هِي الَّتِي تُوَجِّهُ «بُوصْلَةَ العَرْضِ»؛ بِاتِّخاذِه نُقْطَةً مَركَزِيَّةً مُحاوِلا قَدْرَ الطَّاقَةِ اسْتِقْصاءَ مَا دَارَ حَولَها مِنْ مَباحِثَ ودِراساتٍ، قَدْ تَكُونُ هَذِه النُّقطَةُ قَضِيَّةً شَغَلَتِ النَّقْدَ العَرَبِيَّ القَدِيمَ مِثْلَ قضِيَّةِ «السَّرِقاتِ الشِّعْرِيَّةِ»[3]، وقد تكون شاعِرًا كَبِيرًا حَظِيَ بِغَيرِ قَلِيلٍ مِن اهْتِمامِ النُّقَّادِ مِثلَ أبي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي[4].

(1) قامت الحركة النقدية في جزيرة صقلية حول كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، الذي نزلها قبيل وفاته، ولذا تم التعرض لعلم النقد دون أن يكون ثم نقاد يمثلون الإقليم، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 9/ 363.

(2) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 6/ 90، 91.

(3) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 7/ 124، 125، وأيضا: 5/ 303، 304.

(4) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 5/ 544- 547.

- **بِمَفْهُومِ الـمُخالَفَةِ لِهَذا القَيدِ الَّذِي وَضَعْناهُ فِي الفقرة الفائتة**: "عِندَ تَعَرُّضِها لِعِلْمِ النَّقدِ"؛ يَتَبادَرُ إِلَى الذِّهنِ أَنَّ نُقَّادًا آخَرِينَ قَدْ تَمَّ التَّعْرِيفُ بِهِمْ فِي غَيرِ هذا الـمَوْضِعِ، وهُو فَهْمٌ صَحِيحٌ مَا أَيَّدَتْه الشَّواهِدُ والبَراهِينُ، أيْ إِذَا كُنَّا نَسِيرُ فِي الاسْتِدْلالِ بِطَرِيقَةٍ عَكْسِيَّةٍ مُرْتَدَّةٍ، وَوَفْقًا لِهَذا السَّيْرِ عَبرَ الـمَواضِعِ الأُخْرَى فِي السِّلْسِلَةِ سيكون بِمُكنَتِنَا أَنْ نَعُودَ بِهَؤُلاءِ النُّقَّادِ إِلَى ثَلاثِ طَوائِفَ، فَضَّلْنَا فِي الوَقتِ نَفْسِه أَنْ تَحْمِلَ أَوصافُهم، الَّتِي مَنَحْناهُمْ إِيَّاها، تَحدِيدَ مَواقِعِهِمْ فِي بَقِيَّةِ نِتاجِ ضيفٍ العِلْمِيِّ:

1. **نُقَّادٌ لمْ يَسبِقْ التَّعرِيفُ بِهِمْ مِن قَبْلُ، وهُم حاضِرُونَ بِوَصْفِهِمْ نُقَّادًا**، ونُمَثِّلُ لَهُم بأبِي العَبَّاسِ النَّاشِئِ الأَكْبَرِ (ت: 293هـ) الشَّاعِرِ الـمَعْرُوفِ، وقَدْ تَرْجَمَ له ضيفٌ مَعَ الشُّعَراءِ[1]، وأَشارَ فِي تَرْجَمَتِه إِلَى أَنَّهُ كان ناقِدًا بِمِثْلِ ما كان شاعِرًا، يَقُولُ ضيفٌ: "وله كتاب في تفضيل الشعر مما يدل على أنه لم يكن شاعرا ولا عالـما فقط بل كان أيضا ناقدا.."، وَيَنْقُلُ بَعْدَ ذَلكَ عَنْ أَبِي حَيَّانَ التَّوحِيدِيِّ (توفي أوائل القرن الخامس) نَصًّا يُسَجِّلُ فِيهِ إِعْجابَه بِنَقْدِ النَّاشِئِ، ونَصًّا آخَرَ نَقَلَهُ التَّوحِيدِيُّ عَنْ النَّاشِئِ يَذْكُرُ فِيهِ دَواعِي قَولِ الشِّعرِ، ثُمَّ يُعَقِّبُ ضيفٌ عَلَيهِ قَائِلا: "والقطعة تلم في دقة بالبواعث النفسية لنظم الشعر"، ثُمَّ عادَ ناقِدُنَا مَرَّةً أُخرَى لِيُسَجِّلَ ظَنَّه فِي تَأَثُّرِ الـمِصْرِيِّينَ بِعِلمِ النَّاشِئِ وشِعْرِه ونَقْدِه؛ حِينَ رَآهُ يَنْزِلُ بِدِيارِهِمْ وَيُؤْثِرُ الـمُقامَ فِيهِمْ حَتَّى وَفاتِه[2]، وَصَنِيعُ ضيفٍ مَعَ أَبِي العَبَّاسِ وكِتابِهِ لا

(1) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 4 / 493، 494.

(2) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 7 / 169.

يَخْتَلِفُ عَمَّا كان يَصْنَعُه هُناك مَعَ النُّقَّادِ، بَلْ لا نُبارِحُ الحَقَّ إذا قَرَّرْنا أنَّه كان أَوفَرَ حَظًّا مِن كَثِيرٍ مِن النُّقَّادِ الَّذِينَ لَمْ يَعرِضْ لَهُمْ إلا لِمامًا، كَما سَنُوَضِّحُ ذلك بَعْدَ قَلِيلٍ.

2. **نُقَّادٌ تَمَّ التَّعريفُ بِهِمْ مِن قَبْلُ، وهُم حاضِرُونَ لا بِوَصْفِهِمْ نُقَّادًا وَإِنَّمَا يَنْدَرِجُونَ تَحْتَ فِئاتٍ أُخْرَى**، وعَلَى رَأْسِ هَؤلاءِ أَبو الفَرَجِ الأَصْفَهانِيُّ، الَّذِي عَرَضَ لَه النَّاقِدُ قَبْلَ ذلك فِي رِسالَةِ الماجِستِيرِ وبَعضِ المَقالاتِ وكِتابِ البَحْثِ الأَدَبِيِّ بِوَصْفِهِ نَاقِدًا، وقد مَرَّ بنا في الفَصْلِ الأوَّلِ ما يُجَلِّي مكانتَه، وكُنَّا لِذَلكَ نَتَوَقَّعُ أَنْ يَذْكُرَهُ مَعَ النُّقَّادِ فِي الجُزْءِ الخَاصِّ بِإيرانَ، لَكِنَّه يَغِيبُ عَنْ قائِمَةِ النُّقَّادِ ويُدْرَجُ ذِكْرُه مَعَ المُؤَرِّخِينَ فِي الإقْلِيمِ نَفْسِهِ، ورُبَّمَا يَكُونُ النَّصُّ الوَحِيدُ الذِي يُشِيرُ إِلَى القِيمَةِ النَّقدِيَّةِ لِكِتابِ الأَصْفَهانِيِّ أَثْناءَ التَّعَرُّضِ لَه، هُوَ قَولَ ناقِدِنَا: "..وبذلك يطلعنا على كل ما يتصل بالشاعر من نشأة ومن علاقات اجتماعية ومن آراء لمعاصريه أو للنقاد فيه"[1]، وبَعدَ هَذِهِ الإِشارَةِ العاجِلَةِ لا نَجِدُ أَيَّ ذِكْرٍ لما كان سَجَّلَهُ مِن قَبلُ عَلَيه[2]، مِن مِثْلِ لُجُوئِه إِلَى المَقايِيسِ الفَنِّيَّةِ لا الأَخْلاقِيَّةِ فِي الحُكْمِ عَلَى الأَشْعارِ، ونَظْرَتِه إِلَى بِيئَةِ الشَّاعِرِ ووَسَطِهِ أَثْناءَ التَّعْلِيلِ لِلشُّهْرَةِ والخُمُولِ، وقَبُولِه الأَذْواقَ الحَدِيثَةَ، وتَبَنِّيهِ رَأْيًا مُؤَدَّاهُ أَنَّ الشَّاعِرَ

(1) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 5/ 560.

(2) لقد استجلبنا هذه الملاحظات التي سجلها ضيف على أبي الفرج من مواطن شتى، انظر على سبيل التمثيل: أبو الفرج الناقد (مقال سابق)، ص17- 19، والرواية الأدبية في الأغاني (مقال سابق)، ص9- 10، والبحث الأدبي، ص81، 82، 163- 165، وفي الأدب والنقد، ص128- 136. وراجع أيضا كذلك: البحث الحالي، ص73- 82.

الـمُمْتازَ لا يُقَاسُ بِهَفَواتِه، ومُحاوَلَتِه التَّحقُّقَ مِن نِسْبَةِ الأَبْياتِ لِقَائِلِيهَا، مُسْتَعِينًا بِالنَّقْدِ الخَارِجِيِّ تارَةً وبِالنَّقْدِ الدَّاخِلِيِّ تارَةً أُخْرَى.. إلَى غَيرِ ذَلكَ مِن أُمورٍ لا نَظْفَرُ بِأيٍّ إِشارَةٍ لَها عَلَى الإِطْلاقِ هُنا.

3. **نُقَّادٌ لمْ يُعَرِّف بِهِمْ مِن قَبْلُ ولَيسُوا حاضِرِينَ بِوَصْفِهِمْ نُقَّادًا، غَيرَ أَنَّنا نَرَى إِلحاقَهِمْ بِقافِلَةِ النُّقَّادِ؛** لِشَراكَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي الخَصائِصِ الَّتِي تُؤَهِّلُهِمْ لِهَذِه الـمَنْزِلَةِ، مِن وِجْهَةِ نَظَرِ ناقِدِنَا نَفْسِه، ونُمَثِّلُ لِهَؤُلاءِ بِالخَطِيبِ التِّبْرِيزِيِّ (ت: 502هـ)[1]، إِذْ يَعْرِضُ نَشاطاتِه اللُّغَوِيَّةَ فِي التَّأْلِيفِ والتَّدْرِيسِ، ويتوقف عند شُرُوحِه الشِّعرَ، مُقَرِّرًا أَنَّه: "من أكثر شُرَّاح الشعر آثارا.."، ونَشْهَدُ صِدْقَ هَذا القَولِ عِندَما نَقِفُ عَلَى تَنَوُّعِ إِنْتاجِ الرَّجُلِ وضَخامَتِه؛ فَنُقابِلُ شُرُوحَه الـمَجْمُوعَاتِ الشِّعرِيَّةَ الآتية: الـمُفَضَّلِيَّاتِ، والـمُعَلَّقاتِ العَشْرَ، وحَمَاسَةَ أَبِي تَمَّامٍ، ونُقَابِلُ شُرُوحَه دِيوانَي: أَبِي تَمَّامٍ، وسَقْطِ الزَّنْدِ لأَبِي العَلاءِ، ونُقابِلُ شُرُوحَه قَصائِدَ: لامِيَّةِ العَرَبِ لِلشَّنْفَرَى، وبَانَتْ سُعَادُ لِكَعْبِ بنِ زُهَيرٍ، ومَقْصُورَةِ ابنِ دُرَيدٍ، وإِذا انتَقَلْنَا إِلَى قائِمَةِ النُّقَّادِ الَّذِينَ عَرَّفَ بِهِمْ ناقِدُنَا وَجَدْنا أَمثَالَ: ابنِ جِنِّي (ت: 392هـ) وأَبِي العَلاءِ الـمعَرِّي والوَاحِدِيِّ (ت: 468هـ)، ومَعرُوفٌ أَنَّ صِلَةَ هَؤُلاءِ بِحَقْلِ النَّقْدِ إِنَّمَا قَامَتْ وتَعَمَّقَتْ لِقِيامِهِم بِشُرُوحِ الدَّواوِينِ الشِّعْرِيَّةِ؛ شَرَحَ ابنُ جِنِّي دِيوانَ الـمُتَنَبِّي شَرْحَينِ؛ صَغِيرًا مُخْتَصَرًا وكَبِيرًا مُطَوَّلا، وعَلَى أَساسِهِما بُنِيَتْ شُرُوحُ الدِّيوانِ فِيما بَعْدُ، وشَرَحَ أَبُو العَلاءِ دَواوِينَ: أَبِي تَمَّامٍ وَأَسْمَاهُ ذِكْرَى حَبِيبٍ، و البُحْتُرِيِّ وأَسْمَاهُ عَبَثَ الوَلِيدِ، والـمُتَنَبِّي

---

(1) انظر الحديث عن الخطيب التبريزي في: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 5 / 293، 538، 6 / 84، 85، 7 / 111.

شَرْحًا كَبِيرًا أَسْمَاهُ مُعْجِزَ أَحْمَدَ وآخَرَ مُتَوَسِّطًا أسمَاهُ اللامِعَ العَزِيزِيَّ، وبِالـمِثْلِ شَرَحَ دَوَاوِينَه الَّتي أَلَّفَها هُو، فَشَرَحَ سَقْطَ الزَّنْدِ شَرحًا أسمَاهُ ضَوءَ السَّقطِ، واللُّزُومِيَّاتِ شَرْحًا لَمْ يَصِلْ إِلَينَا، وشَرَحَ الوَاحِدِيُّ دِيوَانَ الـمتَنَبِّي ورَتَّبَ القَصائِدَ فِي الدِّيوانِ تَرْتِيبًا تَارِيخِيًّا أَفَادَ مِنهُ كُلُّ مَن كَتَبَ عن أَبِي الطَّيِّبِ، ومَعرُوفٌ كَذَلكَ أَنَّ هَذِه الجُهُودَ تَنتَمِي، فِي أَغْلَبِهَا، إلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يُسَمَّى «النَّقْدَ اللُّغَوِيَّ»، وَهَذَا هُو السَّبَبُ في أَنَّ ضَيفًا قَدْ عَرَضَها أَثنَاءَ حَدِيثِهِ عَنْ الجُهُودِ اللُّغَوِيَّةِ، ورَغْمَ هذا كان لِهَؤُلاءِ نَصِيبٌ فِي الذِّكرِ ضِمْنَ قافِلَةِ النُّقَّادِ[1]، وبِهَذَا الـمَسْلَكِ إِذَنْ نَرَى أنه مِنَ الـمُمْكِنِ إلحَاقُ التِّبْرِيزِيِّ وَمَنْ هُم عَلَى شاكِلَتِه بِهَا، خَاصَّةً إِذَا عَلِمْنَا أَنَّه كَانَ تِلْمِيذًا للمَعَرِّي وعَنْ مَعِينِه كَانَ يَصْدُر، وَلَعَلَّه يُسَانِدُنَا فِي هَذِهِ العَمَلِيَّةِ، مِن حافَةٍ أُخْرى، نَظْرَةُ ضيفٍ إلَى طرائقِ القدماءِ في شَرْحِ الشِّعْرِ وتَفْسِيرِه بوصفها مَنْهجًا مِن مَنَاهِجِ نَقْدِ النُّصُوصِ[2].

- عَلى الرَّغْمِ مِن تَطْوِيعِ ضيفٍ السِّلسِلَةَ وَفْقَ مُتَطَلَّباتِ الـمادَّةِ العِلْمِيَّةِ، فَإِنَّه فِي هَذِه الصَّفَحاتِ الَّتي خَصَّصَها لِعِلْمِ النَّقدِ **يَبْدُو غَيرَ مُنْشَغِلٍ إلا بِأَصْحابِ التُّراثِ النَّقْدِيِّ «الـمَكْتُوبِ»**، وَأَظُنُّ أَنَّنا سنَفْهَمُ الآنَ لِماذا غابَتْ أَسْماءُ كَثِيرَةٌ كَانَ تَوَقَّفَ عِندَها فِي كِتابَي: **النَّقدِ**، والبَلاغَةِ تطور وتارِيخ، لاسِيَّمَا مَا يَتَّصِلُ مِنها بِقضية نَقدِ الصُّنَّاعِ صَنْعَتَهُم، وأَقْصِدُ نَقْدَ الشُّعَراءِ أَشْعارَهُم، لأنه كان قد

(1) حول حديث ناقدنا عن ابن جني وأبي العلاء المعري والواحدي؛ ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، (6/ 84، 90)، (6/ 84- 86، 91، 166- 178)، (5/ 538، 546، 547)، على ترتيب المواطن المحصورة بين الأقواس.

(2) سنتوقف عند هذه القضية في الفصل القادم.

رَأى في مُلاحَظاتِهم الـمَنْثُورَةِ حَوْلَ الشِّعْرِ البُذُورَ الأُولى لِشَجَرَةِ النَّقْدِ العَرَبِيِّ، وأنَّه تَحْتَ تَأْثِيرِ الثَّقافاتِ والـمَعارِفِ الـمُخْتَلِفَةِ أَخَذَتْ هذه الـمُلاحَظاتُ في التَّطَوُّرِ، حَتَّى بَلَغَت غَايَتَها بِتَحْلِيلِها وَوَضْعِ الدِّراساتِ[1]، وهذا يَعْنِي أَنَّ هذه الـمَقُولاتِ النَّقْدِيَّةَ لَمْ تَكُنْ مُسْتَقِرَّةً مِنْ قَبْلُ إلا في ذاكِرَةِ الجَماعَةِ، تُطْرَحُ في نَدَواتِهِم الشِّعْرِيَّةِ ومجالسهم، أو على أَفْضَلِ حالٍ تَتَوَزَّعُها قصائدُ الشُّعَراءِ ودَواوِينُهِم؛ غَيرَ أَنَّ التَّغاضِي عن هؤلاء الشُّعَراءِ النُّقَّادِ قَدْ يُعَوِّضُه وُجُودُ تَرْجَماتٍ لهم في الكِتابِ ذاتِه، ورُبَّما نَظْفَرُ فِي بَعضِها هُنا أو هُناكَ بِإشارَةٍ إِلَى الـملاحَظاتِ النَّقدِيَّةِ الَّتِي خَلَّفَهَا الشَّاعِرُ مَحِلُّ التَّرْجَمَةِ، كَمَا أَنَّ بَعْضًا مِمَّنْ لَه تَرْجَماتٌ مَعَ الشُّعَراءِ مِثْلَ ابنِ نُباتَةَ (ت: 768هـ)[2] أَوْ مَعَ الكُتَّابِ مِثْلَ القَلْقَشَنْدِيِّ (ت: 821هـ) كَانَ ضيفٌ قَدْ عَرَضَ لَهُمْ مِن قَبلُ مَعَ جَماعَةِ النُّقَّادِ[3]، وإِنْ يكن من شيء يستوقفنا بعد ذلك فِي هذا الصدد؛ فهُوَ ما يُمكِنُ أَنْ يُثِيرَه اهْتِمامُ ضيفٍ بِالتُّراثِ الـمكتُوبِ أثناءَ مُعالَجَتِه مَوضُوعَ الثَّقافَةِ مِنْ تَساؤُلٍ، قَدْ يَنْهَضُ بِالإِجابَةِ عَلَيهِ غَيرُ هذا البَحْثِ، حَولَ مَفْهُومِ «الثَّقافَةِ»

---

(1) حول هذا المعنى انظر: شوقي ضيف: النقد، ص21- 28، 31- 35، 41- 45، والبلاغة تطور وتاريخ، ص9- 28. ونُشير هنا إلى أن ملاحظة انشغال الناقد فحسب بأصحاب التراث النقدي المكتوب- كانت بأعيننا ونحن نُحصي النقادَ البالغَ عددهم تسعة وأربعين ناقدا؛ فقمنا استنادا إليها بإدراج ابن جني معهم، مع أن ترجمته كانت بين اللغويين أوفى منها هنا، إذ جاء ذكره هنا عَرَضا، لكنه على أية حال ذُكِر مقرونا بشرحيه الكبير والصغير لديوان الـمتنبي، ومن ثم رأينا من حقه ألا يفوته العد. انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 6/ 84، 90.

(2) حول ابن نباتة؛ انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 7/ 127، 210- 217.

(3) حول القلقشندي؛ انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 7/ 127، 128، 451- 455.

وَأبْعادِهِ لَدَيهِ، وهَلْ يَتَّسِعُ لِيَشمَلَ الـمَعارِفَ «الشِّفاهِيَّةَ»[1]، أَوْ يَتَقَلَّص ويَنْزَوِي لِيُظَلِّلَ فَحَسْب مَا نُقِشَ فَوقَ الأَلْواحِ؟

- مِن الواضِحِ لِلقارِئِ أَنَّ النَّاقِدَ لم يَتَّبِعْ نَمَطًا واحِدًا في تَناوُلِ كُتُبِ النُّقَّادِ الَّذِينَ عَرَّفَ بِهم؛ مِنْ حَيثُ البَحْثِ التَّحْلِيلِيِّ لِلقَضايا والعَرْضِ الـمبَيِّنِ عَن الـمَوضُوعاتِ والتَّسجِيلِ للمُلاحَظاتِ، ويَئُولُ الأَمرُ إِلَى إِظْهارِنا عَلَى مَجْمُوعَتَينِ مِن الكُتُبِ، يُمْكِنُ العَرضُ لَهُمَا بِاخْتِصارٍ فيما يأتي:

1. كُتُبٌ كانَتْ تُذْكَرُ قَضاياها بِإِجْمالٍ دُونَ تَحْلِيلٍ ودون إِشارَةٍ مُبَيِّنَةٍ عَنْ مَوضُوعاتِها، ويمكن أن نسوق للتمثيل على هذه الـحِزْمَةِ كُتُبًا مثل[2]: "الانْتِصارِ الـمُنْبِي عَن فَضْلِ الـمُتَنَبِّي" لِلمُتَيَّمِ (توفي نَحْوَ 400هـ)، و"الـمَقاماتِ اللُّزُومِيَّةِ" للسَّرَقُسْطِيِّ (ت: 538هـ)[3]، و"رَيْحانِ الأَلْبابِ ورَيعانِ الشَّبَابِ" للمَواعِينِيِّ (ت: 564هـ)، و"الفَلَكِ الدَّائِرِ عَلَى الـمَثَلِ

(28) معروف أن دراسات علم اللغة والأنثروبولوجي، بإثارتها مسائلَ البداوة والتمدن والترقي وماهية الأجناس البشرية، قد ألحت على تحديد النمط الثقافي المميز، تبعا للجنس والديانة وظروف الـمعيشة التي تتوفر في شعب دون آخر، للمزيد حول الفروق الكائنة بين طرائق الشعوب في اختزان ثقافاتها وتناقل مفرداتها؛ انظر: والترج.أونج: الشفاهية والكتابية، ترجمة: حسن البنا عز الدين، مراجعة: محمد عصفور، سلسلة عالـم الـمعرفة، الكويت، عدد182، فبراير1994م، مواطن متعددة.

(1) للوقوف على الطريقة الـمتبعة في التعريف بهذه الـمجموعة انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، (5/ 544)، (8/ 104)، (8/ 101، 104)، (5/ 304)، على ترتيب هذه الـمواطن الـمحصورة بين الأقواس.

(2) ننبه على أن نسبته التي جاءت أثناء التعريف به في سلسلة تاريخ الأدب هي "الإشتركوني" لا "السرقسطي"؛ وذلك نسبة إلى إشتركونه: حصن من حصون تطيلة، وقد فضّلنا أن نذكر الـمقامات هنا في متن الكتاب على النحو الذي اشتهرت به في الأوساط العلمية.

السَّائِرِ" لابنِ أَبِي الحَدِيدِ (ت: 656هـ)، حَتَّى إِنَّ حَدِيثَ ناقِدِنا عَنْ بَعْضِهَا لَمْ يَكُنْ يَتَعَدَّى نِصْفَ سَطْرٍ.

2. **كُتُبٌ أُخرَى تَحظَى بِنَظْرَةٍ مِن النَّاقِدِ أَكْثَرَ عُمْقًا**؛ تُحَلِّلُ قَضاياها، ويُسَجِّلُ عَلَيهَا الملاحَظاتِ، وقدْ تُبْحَثُ مِن حَيثُ تَأَثُّرِها وتَأثِيرِها، ويمثلها كُتُبٌ مثل[1]: "المُمْتِع فِي عِلْمِ الشِّعْرِ وعَمَلِه" للنَّهْشَلِيِّ (ت: 403هـ)، و"العُمْدَةِ فِي صِناعَةِ الشِّعرِ ونَقْدِه" لابنِ رَشِيقٍ (ت: 456هـ)، و"مِنهاجِ البُلَغَاءِ وسِرَاجِ الأُدَباءِ" لِحازِمِ القَرْطاجَنِّيِّ (ت: 684هـ)، وبَينَما كَانَ الحَدِيثُ عَن المجْمُوعَةِ الأُولَى يَقصُرُ جِدًّا على النحو الذي أشرنا إليه، فَإِنَّه يَمتَدُّ هُنا لِيَبْلُغَ أَحْيانًا ثَلاثَ صَفَحاتٍ.

وبِتَأَمُّلِ طَبِيعَةِ الكُتُبِ المُنْدَرِجَةِ تَحْتَ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ، وبِالنَّظَرِ إِلَيها بِوَصْفِها عَيِّناتٍ، رُبَّمَا نَتَمَكَّنُ مِن **الاجتِهادِ فِي التِماسِ المَعاييرِ** الَّتِي كانَتْ تَتَحَكَّمُ فِي نَمَطِ العَرْضِ والتَّعْرِيفِ، وعَلَى نَحْوٍ مُختَصَرٍ نَحْنُ صانِعُونَ ذلك بِوَساطَةِ صِياغَةِ أَسْئِلَةٍ[2] نَفْتَرِضُ أَنَّ النَّاقِدَ كانَ بِالإِجابَةِ عَلَيها يُحَدِّدُ طَرِيقَتَه،

(1) للوقوف على الطريقة المتبعة في التعريف بهذه المجموعة؛ انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، (*10 / 94- 96*)، (*9 / 187، 188*)، (*8 / 104- 106*)، على ترتيب هذه المواطن المحصورة بين الأقواس.

(2) في حالة مقامات السرقسطي، يمكن أن تكون ترجمة ضيف لمؤلِّفها وعرضه المقامتين اللتين تشتملان على بعض نظراته النقدية سببا في إجمال القول عليها هنا، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، *8 / 524*، غير أننا لا نستطيع أن نعمِّمَ القول على مجموعة الكتب التي ينتمي إليها؛ بسبب وجود ترجمات لبعض شعراء أو كتَّاب وعرضٍ لكتبهم في فصول لاحقة دون أن يمنع هذا من الإسهاب أثناء عرض جهودهم النقدية، كما الشأن مثلا مع القاضي الفاضل، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، *7 / 125*، *126*، *410- 415*، وهذا يعني أنه ليس معيارا عاما متحكما.

هَذِه الأَسْئِلَةُ هِي: هَلْ لِلكِتابِ أَهَمِّيَّةٌ فِي مَسِيرَةِ النَّقْدِ العَرَبِيِّ أَوْ لا؟ وهَلْ تَتَّصِفُ آراؤُه بِالجِدَّةِ أَوْ أَنَّهُ تَكْرَارٌ لآراءِ سابِقِيهِ؟ وهَلْ هُو كِتابٌ فِي النَّقْدِ أَوْ أَنَّ النَّقْدَ يَأْتِي فِيهِ عَرَضًا؟ وهَلْ حظي بالانْتِشارِ والذُّيُوعِ فِي الأَقالِيمِ العَرَبِيَّةِ أَوْ لا؟ وهَلْ يَنْفَرِدُ الكِتابُ بِتَمْثِيلِ إِقْلِيمِه أَو يَشْرَكُه فِي ذَلكَ غَيرُه؟ وهَلْ تَعَرَّضَ النَّاقِدُ للكِتابِ فِي مُؤَلَّفاتِه الأُخْرَى أَوْ أَنَّه يَعْرِضُ له لِلمَرَّةِ الأُولَى؟ وهَلْ وَصَلَ إِلَينا أَوْ أَنَّه فِي تَعْدَادِ الكُتُبِ المَفْقُودَةِ؟ وقدْ يَرِدُ عَلَى هذا السُّؤالِ الأَخِيرِ أَنَّ كِتابَ النَّهْشَلِيِّ مَفْقُودٌ كَمِثْلِ كِتابِ المُتَيَّمِ، لأنَّ النُّسْخَةَ المَنْشُورَةَ لِلمُمْتِعِ لَيسَتْ نُسْخَةً كامِلَةً له، بَلْ هِي مُختاراتٌ لواحِدٍ من الأُدَباءِ[1]، وأَنَّ النَّاقِدَ مَعَ هَذَا لَمْ يُسَوِّ بَينَهُمَا فِي اهتِمامِه، ولِفَضِّ الإشْكالِ يَجِبُ التَّنَبُّهُ إِلَى أَنَّ ضيفًا قَدْ استَطاعَ بالاعْتِمادِ عَلَى هَذِهِ النُّسخَةِ المَنْشُورَةِ، وبَعضِ نُصُوصِه الَّتِي كان احْتَفَظَ بِها ابنُ رَشِيقٍ فِي عُمْدَتِه، بِالإضافَةِ إِلَى بَعْضِ تَعْلِيقاتٍ مِنْ المُحَقِّقِ (منجي الكعبي)- أَنَّ يُكَوِّنَ رُؤيَةً عَنْه تَقتَرِبُ مِن الوُضُوحِ وتَتَمَخَّضُ عَنْ الإِيضَاحِ، وهُو أَمْرٌ تَعَذَّرَ تَحْصِيلُه مَعَ كِتابِ المُتَيَّمِ الَّذِي انْقَطَعَتْ بِنُصُوصِه الصِّلَةُ، فَأَتى الحَدِيثُ عنه مِن ثَمَّ مُبْتَسَرًا جِدًّا.

- **يَلْتَحِمُ عِلْمُ النَّقْدِ فِي أَجْزاءِ السِّلْسِلَةِ بِعُلومٍ أُخْرَى**؛ إذ يَأْتِي الحَدِيثُ عَنْهُ في سِياقِ بَحْثِ الحَياةِ العَقْلِيَّةِ أو الثَّقافِيَّةِ لِلأُمَّةِ؛ الأمرُ الذي يُحَقِّقُ المُجاوَرَةَ والتَّضامَّ، وحقًّا لقد حَرَصَ النَّاقِدُ على إِدْراجِ حَدِيثِه عَنْ عِلْمِ النَّقْدِ مع حَدِيثِه عن عُلُومِ اللُّغَةِ والنَّحْوِ والصَّرْفِ والعَروضِ والبَلاغَةِ، لَكِنْ يَنْبَغي ألا نَنْسى

---

(1) انظر: محمود شاكر القطان: مقدمة التحقيق للكتاب: اختيار الممتع في علم الشعر وعمله، للنهشلي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م، ص5- 7، 30- 39.

أنَّه كان يَتناوَلُه في المِنْطَقَةِ نَفْسِها التي تَسْتَعْرِضُ عُلُومَ الفَلْسَفَةِ والتَّاريخ والتَّفْسيرِ والحَديثِ..، وهَذا يَعْنِي أنَّ «التَّضامَّ» قَد تَمَّ هُنا عَلَى صُورَةٍ تُغايِرُ مَا كانَ عَليه فِي كِتابَي: النَّقْدِ والبَلاغةِ تَطورٌ وتارِيخٌ، فَبَينَما كان هُناكَ يَعْنِي انْتِظامَ النُّقَّادِ أو البَلاغِيِّينَ فِي عِقْدٍ واحِدٍ؛ يَمْهَدُ أَمامَ المُقارَنَةِ ومُلاحَظَةِ الثَّابِتِ والمُتَغَيِّرِ ويَدْعَمُ النَّظْرَةَ الشامِلَةَ، فَإنَّه هُنا يَعْني فِي المَرْتَبَةِ الأُولَى الاسْتِجابَةَ لِما بينَ العُلُومِ المُخْتَلِفَةِ مِنْ وَشائِجَ مَتِينَةٍ. إنَّ القِيمَةَ التي نُرِيدُ أَنْ نَلفِتَ إِليها فِي عَمَلٍ ضيفٍ، هِي أَنَّه استَطاعَ التَّقَدُّمَ خُطْوَةً في الطَّرِيقِ الَّذِي نَرْنُو إليه في الدَّرسِ التَّارِيخِي لِلنَّقْدِ العَرَبِيِّ، من حَيثُ نَبْذِه النَّظْرَةَ الضَّيِّقَةَ إلى التُّراثِ النَّقْدِيِّ القائِمَةَ على أَساسِ أَنَّه كُتْلَةٌ مُنْعَزِلَةٌ مُنغَلِقَةٌ عَلى ذاتِها، تِلكَ النَّظْرَةُ التي كَانتْ سَبَبًا في قِيامِ مَا يُمكِنُ وَصْفُه بِأَنَّه «انْقِطاعٌ مَعْرِفِيٌّ» بَينَه وبَينَ أَجْزاءِ التُّراثِ الإنْسانِيِّ، مَعَ أَنَّه يَنْسَرِبُ فِيها وتَنْسَرِبُ فِيهِ، كَمَا كانتْ سَبَبًا فِي عَدَمِ التَّنَبُّه إِلَى ضَرُورَةِ قِراءةِ هَذا التُّراثِ النَّقدِيِّ داخِلَ سِياقاتِه الثَّقافِيَّةِ المُتَشابِكَةِ، ونَكْتَفِي لِلتَّدْلِيلِ على مَنْجاةِ السِّلْسِلَةِ مِنْ ذَلكَ بِتَسْجِيلِ مَا نُلاحِظُه مِنْ تَنامِي شَخْصِيَّاتِ المُؤَلِّفِينَ فِيها عَبْرَ خَطِّ سَيرِ العُلُومِ المُخْتَلِفَةِ، واحْتِلالِهِم مَواقِعَ مُتَعَدِّدَةً عَلى هَذِه الخَرِيطَةِ، فَالنَّحْوِيُّ هُو البَلاغِيُّ هُو المُفَسِّرُ هُو النَّاقِدُ..، والتَّوجُّه إلى أَيِّ وَاحِدٍ مِنهُم بِبَحْثِ نَشاطٍ مِن نَشَاطاتِه لا يُمْكِنُ الخُلُوصُ مِنهُ إلى رُؤْيَةٍ كُلِّيَّةٍ كامِلَةٍ إلا بِاستِحْضارِنَا بَقِيَّةَ النَّشاطاتِ الصَّادِرَةِ عَنْهُ مِن جَانِبٍ، وتَأَمُّلِنا لَها مُجْتَمِعَةً بِعَينٍ تَتَّسِعُ رُؤيَتُها لِتَشْمَلَ السِّياقاتِ التَّارِيخِيَّةَ والفِكْرِيَّةَ والاجْتِماعِيَّةَ المُسْتَقْبِلَةَ له مِن جَانبٍ آخَرَ، فالجاحِظُ دائِمًا يُقْرَنُ بِاعْتِزالِه، والمُبَرِّدُ (ت: 285هـ) بِنَزْعَتِه اللُّغَوِيَّةِ، وقُدامَةُ بنَزْعَتِه الفَلْسَفِيَّةِ...، والجَدِيدُ لَيسَ هُو اقْتِرانَ هَؤُلاءِ النُّقَّادِ بِهَذِهِ المُلْحَقاتِ والنعوت، وإِنَّما هُو أَنَّ لِها نَصِيبًا

فِي البَحْثِ؛ يَسْتَقِلُّ حِينًا ويَمْتَزِجُ حِينًا آخَرَ؛ لِيُتَمِّمَ الصُّورَةَ التي يَبْتَغي ناقِدُنَا أنْ يَرْسُمَها عَنْ الثَّقافَةِ بِشَكْلٍ عَامٍّ، وبِعِبارَةٍ مُرَكَّزَةٍ تُلَخِّصُ مَا مَضَى: إنَّ الصُّورَةَ المُنْتَجَةَ عن النُّقَّادِ بَاتَتْ تُبْرِزُ أبْعادَ التَّداخُلِ والتَّلاحُمِ لا بَيْنَ النَّقدِ الأَدَبِيِّ والبَلاغَةِ، كما سَبَقَ أَنْ سَجَّلْنا ما لاحَظَ ناقِدُنَا، بَلْ كَذَلكَ بَيْنَ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ والعُلُومِ جَمِيعِها[1].

(1) في هذا المقام يمكن أن نشير إلى موقفه من بعض الظواهر النقدية، التي كان يضطر من أجل تفسيرها إلى التقاط المشهد الحضاري للعصر كله، ونمثل لهذا بموقفه من الحركة التجديدية المسرفة، سواء حين نقابلها بوصفها واحدة من إفرازات مُناخٍ فكريٍّ ملوَّث بجراثيم الشعوبية، أو حين نقابل الشعوبية أثناء الاستعانة بها بوصفها أداة من أدوات تثبيتها في البنيات الثقافية للمجتمع، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 3/74- 79، 4/97- 100، 151.

- 3 /3 -

بينَ التَّجاربِ الأولى وسلسلةِ تاريخِ الأدبِ

ربُّما يُظَنُّ أَنَّ سِلسِلَةَ تاريخِ الأَدَبِ لَيسَ بِوُسْعِها إلا أَنْ تَقُومَ بِالتَّلخِيصِ أو التَّكْثِيفِ، خاصَّةً فِي حَقِّ مَا قَدْ تَمَّ عَرْضُه مِن قَبْلُ، وهُو ظَنٌّ قَدْ يَصِحُّ فِي مواطِنَ كَثِيرَةٍ، لَكِنْ يَصْطَدِمُ التَّعْمِيمُ مَع مَا يَكْشِفُ عَنهُ التَّأَمُّلُ العَمِيقُ؛ إِذْ نُقابِلُ جَدِيدًا لَعَلَّ أَهَمَّ ما يُمثِّلُه هُو **تَغيُّرُ أَحْكامِ النَّاقِدِ وآرائِه عَلى بَعْضِ النُّقَّادِ ومَصادِرِهِمْ النَّقْدِيَّةِ**، كما الشَّأنُ مع ابنِ رَشِيقٍ القَيرَوانِيِّ وكِتابِه: "العُمْدَةِ في صِناعَةِ الشِّعْرِ ونَقْدِه". إن قارِئَ ما كَتَبَ ضيفٌ عن ابن رشيقٍ وعُمْدَتِه في غيرِ هذا المَوضِعِ[1] تَرْتَسِمُ في ذِهْنِه **صُورَةٌ لها عُنْصُرانِ**؛ الأَوَّلُ: عَقْلُ الناقِدِ الذي لا

(1) للوقوف على هذه النصوص التي سننقلها؛ انظر: شوقي ضيف: النقد، ص118- 122، والبلاغة تطور وتاريخ، ص146، 147، وفي الأدب والنقد، ص121- 127، وقد اعتمدنا على ثلاثتها في عرض الصورة التي رسمها الناقد قديما عن ابن رشيق وكتابه، وقد يشكُل كونُ تاريخ نشر الأخير منها عامَ 1999م؛ لأن هذا يجعله أقرب إلى السلسلة لا إلى الكتابين الآخرين، لكن يزول الإشكال بمعرفة أن الصفحات التي نشرت في الأخير كانت في الأصل مقالا نشره الناقد في أربعينيات القرن الفائت؛ انظر: شوقي ضيف: ابن رشيق، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 9مايو 1944م، ص18- 20، ونحن لا ننفي وجود تعديلات قد أصابت المقال، غير أنها لم تحدث إلا بصورة طفيفة في بعض عبارات لا تمس الجوهر، وربما يدل على ذلك، من جانب آخر، كونه يخلو من ذكر الملاحظات التي كان ضيف قد سجلها على ابن رشيق وكتابه، في مرحلة ما بين النشرتين: الأولى والثانية، من مثل تأثره بالنهشلي في ترتيب الأبواب، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 10/ 94، وتأثيره هو فيمن خلفه، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 8/ 101، 103، وهذا يعني فيما نرى أن الناقد أعاد نشره دون مراعاة ما استجد من معرفة، وهي أمور جعلتنا نضمه إلى كتابي: النقد والبلاغة؛ بوصفه ممثلا النظرة القديمة، لا إلى سلسلة تاريخ الأدب.

يَعْرِفُ الرَّبْطَ ولا التَّفْكِيرَ العَمِيقَ ولا فَلْسَفَةَ الأُمُورِ، وإنما هو **«العَقْلُ النَّقْلِيُّ»** الذي يُعْنَى بِنَسْخِ النصوصِ وروايَةِ ما فِي الكُتُبِ، والآخَرُ: كِتابُهُ الذي يَخْلُو مِن كُلِّ مَيزَةٍ سِوَى التَّلْخِيصِ أو لِنَقُلْ **«الاخْتِزالَ»**. لقد أَدَّتْ بَساطَةُ تَفْكِيرِ ابن رَشِيقٍ، من وِجْهَةِ نَظَرِ ناقِدِنا، إلى نُدْرَةِ النَّظَراتِ التحْلِيلِيَّةِ العَمِيقَةِ في كِتابِه، بل يَقُولُ عنه في لَهْجَةٍ ساخِرَةٍ: "ونحن نطلب إليه عنتا إذا أردنا منه أن يطيل النظر في آرائه أو يتعمق عرض أفكاره"!، وفي أثناء التَّعْرِيفِ به يَتَتَبَّعُ مَواطِنَ الإخْفاقِ التي كان السَّبَبُ فيها عَدَمَ التَّعَمُّقِ، فهو مثلا "لم يستطع.. أن يميز الفروق الدقيقة التي كانت تفرق بين البحتري وأبي تمام"، "وكأن ما كتبه الآمدي عنهما في الموازنة ذهب سدى"!، كما أَنَّهُ حَصَرَ الخِلافَ بين القُدَماءِ والمُحْدَثِين في أن الأخيرِينَ كانُوا يُكْثِرونَ من البَدِيعِ وتَلاوِينِه، ويَسْتَظْهِرُ ناقِدُنا مِنْ عَدَمِ ذِكْرِه التلاوينَ الفَلْسَفِيَّةَ أنه "لم يكن يفهم شيئا عن هذه التلاوين والتحاسين"!، فَضْلا عن عَدَمِ تعمُّقِه في حَقائِقِ الأُمُورِ واعْتِمادِه عَلى النَّظَراتِ الطَّائِرَةِ التي تَفْتَقِرُ إلى التَّمَهُّلِ والأَناةِ، وهي نَتِيجَةٌ ظَلَّتْ شاخِصَةً طَوَالَ تَعْرِيفِهِ به، أَمارَةُ ذلك أَنَّنا لا نَظْفَرُ بِتَعْلِيقٍ صائِبٍ لابْنِ رَشِيقٍ إلا مُرْدَفًا باحْتِرازٍ يَقولُ: "ولكن المسألة لا تعدو الملاحظة العارضة"!، أو يقولُ: "ولا شك أنه ليس حكم ابن رشيق، فهو لم يأت به من تلقاء نفسه، وإنما قرأه عند من تقدموه"، وعَلى هَذا النَّحوِ يُحَاوِلُ النَّاقِدُ جُهْدَه إِقناعَنَا بِحُكْمِه القائِلِ: "ليس في كتاب العمدة منهج في دراسة الشعر العربي.."، ومَاذا يَبْقَى الآنَ لابنِ رَشِيقٍ بَعْدَ أنْ سُلِبَ عُمْقَ التَّفكِيرِ وسُلِبَ كِتَابُه صِفَتَي الجِدَّةِ والمَنْهَجِيَّةِ؟ يَبقَى له فِيمَا نَظُنُّ التَّلْخِيصُ والتَّبْوِيبُ والتَّنْسِيقُ، ورَغْمَ أنَّ ضَيفًا قَد فَسَّرَ ثَناءَ بَعضِ العُلماءِ على الكِتابِ بِحُسْنِ تَلْخِيصِه آراءَ سَابقِيه، فَإنَّه،

فِيمَا يَبدُو، قدْ ضَنَّ أَنْ يَسْلَمَ له الأمرُ على وَجْهِ التَّمامِ، فَسَجَّلَ نَقْدَه للأَبْوابِ وتَرْتِيبِها وتَنْسِيقِ المادَّةِ عَلى النَّحوِ الآتِي: "وحقا له بعد ذلك التبويب لكنه تبويب من نوع خاص، نوع فيه عوج ونقص.."!

إذا انْتَقَلْنا إلى السِّلْسِلَةِ؛ بِغَرَضِ اسْتِجْلاءِ الثَّابِتِ والمُتَغَيِّرِ وإقامَةِ المُوازَنَةِ، قابَلَتْنا نُصُوصٌ تُشكِّلُ في مَجمُوعِها صُورةً عن ابنِ رَشِيقٍ وكِتابِه: "العُمْدة" تَخْتَلِفُ عن تِلك الصُّورَةِ الفائِتَةِ، بل رُبَّما تُضادُّها وتَتَعانَدُ مَعَهَا؛ فالوَصْفُ الذِي يَخْلَعُه ناقِدُنا فِيهَا على ابْنِ رَشِيقٍ هو: "الشاعر والناقد الممتع"[1]، أمَّا كِتابُ العُمْدَةِ فهوَ كِتابٌ بَدِيعٌ، يَقُولُ ضيفٌ: ".. فألف ابن رشيق كتابه البديع: العمدة في صناعة الشعر ونقده"[2]، ويُعَلِّقُ على انْتشارِ الكِتابِ قائِلا: "وكان قد طار صيته لا في القيروان وحدها بل في جميع البلدان المغربية والمشرقية"[3]، وفِي أَثناءِ تَعْلِيلِه هَذا الانتِشارَ الواسِعَ للكِتابِ شَرْقًا وغَرْبًا يُسَجِّلُ أنَّ ذَلك قد كانَ "لدقة منهجه وحسن ترتيبه وتبويبه ولما يحمل من مواد طريفة تحيط بالشعر ونقده وفنون بلاغته"، وَيَصِفُ تَفْصِيلَه مَوضُوعَاتِ الشِّعْرِ بأنَّه كانَ "تفصيلا دقيقا"، ويَسْتَطْرِدُ قَائِلا: "والكتاب غني بالأفكار والآراء النقدية"، هَذا إلى جَانِبِ نَقلِه أَقوَالَ العُلمَاءِ، من مِثلِ ابنِ خَلْدُونَ[4]

(1) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 9/ 181.

(2) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 9/ 216.

(3) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 10/ 93.

(4) انظر هذه النصوص في: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 9/ 187. وللتعرف على موقف ابن خلدون المقدّر صنيع ابن رشيق في كتاب العمدة، وإلى جوار ذلك تفضيله على الكتب السابقة له وكذلك اللاحقة حتى عصره، انظر: ابن خلدون: المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة (نسخة مصورة عن دار نهضة مصر)، القاهرة، 2006م، 3/ 1164.

(ت: 808هـ)، في تَقْرِيظِ الكِتابِ وصاحِبِه، على نَحْوٍ لا يُؤَكِّدُ إلا مُوافَقَتَه إيَّاهمْ في حُكْمِهُم هذا.

يَحِقُّ لنا الآن أن نَتَساءلَ عن الأَسْبابِ التي أدَّت إلى تَغَيُّر آراءِ الناقِدِ؟ أو لِنَقُلْ بالأحْرَى **ماذا تَسْتَطِيعُ سِلْسِلَةُ تاريخِ الأَدَبِ أنْ تَصْنَعَ بِآرائِه؟** وهو سؤال يمكن الإجابة عليه، في رأينا، بِالحَدِيثِ عنْ ثلاثَةِ جَوانِبَ[1]:

- **الزَّمَنِ**: رَغْمَ أنَّ ابنَ رَشِيقٍ القَيرَوانِيَّ مِن أَبْناءِ القَرْنِ الخامِسِ الهِجْرِيِّ، فإنَّ التَّعْرِيفَ به قدْ تَأَخَّرَ إلى الجُزْءِ التَّاسِعِ مِن السِّلْسِلَةِ (1992م)[2]، وَفْقًا لِلإطارِ الإقْلِيمِيِّ الذِي تَأْخُذُ به مُنْذُ الجُزْءِ الخامِسِ، وفِي رَأينا تسَبَّبَ ذلك في تَغَيُّر آرائه، مِن حَيثُ ما سَيَتَّضِحُ بحَدِيثِنا عنْ أمْرَينِ:

1. لقدْ أَتاحَ هذا التَّأخِيرُ الاطِّلاعَ على مُؤلَّفاتِ ابنِ رَشِيقٍ التي لمْ تَكُنْ مَنْشُورَةً، وأَعْنِي تَحْدِيدًا كِتابَ: "**أُنْمُوذَجِ الزَّمانِ في شُعَراءِ القَيْرَوانِ**"، فقدْ كانَ هَذا الكِتابُ في تَعْدادِ الكُتُبِ المَفْقُودَةِ، حَتَّى اسْتَطاعَ محمدُ العروسي

(1) ربما يكون من الأسباب التي دفعته إلى إعادة النظر في رأيه، أنه وجد نفسه أمام كتاب يَتَمَدَّد جغرافيا ليبيت الثقافة النقدية لكثير من الأقاليم العربية، يشهد لهذا حضورُه القوي في السلسلة أثناء الحديث عن علمي البلاغة والنقد في أقاليم مختلفة، مثل تونس وصقلية والجزائر والمغرب الأقصى، انظر على سبيل التمثيل: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، *9/ 363*، *10/ 93*، *349*، غير أن هذا إن صَحَّ أن يكون سببا في تغيير رأي الناقد وحكمه؛ فإنما يكون سببا متعلقا بالكتاب ذاته، وحديثنا هنا عن الأسباب التي تتعلق بالسلسلة.

(2) في الجزء السابع من سلسلة تاريخ الأدب إشارة إلى ابن رشيق أثناء الحديث عن كتاب "المنصف" لابن وكيع التنيسي، وفي الجزء الثامن منها إشارة إليه أثناء الحديث عن تأثيره في أبي البقاء الرندي (ت: *684*هـ)، على أن ذلك كان شيئا عارضا وليس مقصودا لذاته، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، *7/ 332*، *8/ 103*.

وبشير البكوش جَمْعَه من بُطُونِ المَخْطُوطاتِ والمصادِرِ الأُخرَى[1]، وإذْ لمْ تَرِدْ أيُّ إشارَةٍ إلى كِتابِ الأُنْمُوذَجِ مِنْ قَبْلُ في حُكْمِ ناقِدِنا، فَإنَّنا نَميلُ إلى أنَّ اطِّلاعَه عَليهِ كانَ مُؤثِّرًا في تَغْييرِه، لاسِيَّما وهو يُسَجِّلُ أنَّه غَنِيٌّ بِالآراءِ النَّقْدِيَّةِ والأَفْكارِ الَّتي كانَ يَبُثُّهَا أثناءَ تَراجِمِ الشُّعَراءِ[2].

2. جاءَ تَعْرِيفُ ابنِ رَشِيقٍ بَعْدَ أَنْ قامَ ضيفٌ بِالتَّعريفِ لِسَبْعةٍ وأرْبَعينَ ناقِدًا، أَيْ قُبَيْلَ الانْتِهاءِ مِنَ المَشْرُوعِ الذِي احتَضَنَتْه السِّلْسِلَةُ، وواضِحٌ أنَّ قِيمَةَ الكِتابِ، أيِّ كِتابٍ، لا تَتَجَلَّى إلا بِوَضْعِه إزاءَ الكُتُبِ التي وَلَجَتْ مِنْ بابِه، وإذَا انْتَبَهْنَا إلى أَنَّ هَذه الكُتُبَ الَّتي تَمَّ التَّعرِيفُ بِها كَانتْ كُتُبًا مَشْرِقِيَّةً مِنْ جانِبٍ ومُمْتَدَّةً مِنْ القَرْنِ الثَّالثِ إلى القَرْنِ الحادِي عَشَرَ مِنْ جانِبٍ آخَرَ، تَرَجَّحَ لَنا أَنَّ النَّاقِدَ قدْ أَعادَ صِياغَةَ الحُكْمِ عَليهِ فِي ضَوْءِ **«مُوازَنَةٍ ذِهْنِيَّةٍ مُضْمَرَةٍ»**، تَقُومُ بِاسْتِدْعاءِ الطَّرَفِ الآخَرِ عَنْ حافِظَةِ السِّلسِلَةِ، لَكنْ دُونَ أنْ يُعكِّرَ صَفْوَها «إِقْلِيمِيَّةٌ» أو «تَصَوُّرٌ تارِيخِيٌّ»، عَلى نَحْوِ مَا سَنَذْكُرُ بَعْدَ قَليلٍ في الفِقْرَةِ المُخْتَصَّةِ بِالمَنْهَجِ.

- **المادَّةِ العِلْمِيَّةِ**: تَحْتَ هذا العُنْوانِ يُمْكِنُ تَسْجِيلُ أَنَّ ناقِدَنَا أَلْفَى نَفْسَه مُضْطَرًّا إلى الاعْتِمادِ عَلى المَعارِفِ الَّتي جَمَعَها ابنُ رَشِيقٍ في مُؤَلَّفاتِه، حِينَما

---

(1) كان هذا الكتاب في تعداد الكتب المفقودة حتى كانت سنة *1986*م؛ فإذا بمحمد العروسي المطوي وزميله بشير البكوش ينشرانه على جماعة القراء، متوسلين في ذلك بتتبع نصوصه المتفرقة في بطون المصادر المختلفة؛ المخطوطة والمطبوعة، انظر: محمد العروسي وبشير البكوش: مقدمة التحقيق [لكتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان، لابن رشيق]، الدار التونسية للنشر، تونس، *1986*م، ص*20* - *42*.

(2) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، *9/ 187*، *188*.

تَحَوَّلَ في دَرْسِه الأَدَبِيِّ؛ التاريخيِّ والنَّقْدِيِّ، مِنْ الـمَشْرِقِ إلى الـمَغْرِبِ، وأَعْنِي تَحْدِيدًا مُنْذُ الجُزْءِ التَّاسِعِ (ليبيا وتونس وصقلية)، ولَعَلَّنا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُجَلِّيَ هَذه الحالة بالإشارة إلى أمرين:

1. يَضُمُّ كِتابُ الأُنْمُوذَجِ الَّذِي كَتَبَه ابنُ رَشِيقٍ عنْ شُعَراءِ القَيرَوانِ تَرْجَمَةَ مِئةِ شاعِرٍ في زَمَنِه، مَع انْتِقاءِ أَشْعارٍ تُعَدُّ في الذُّرْوَةِ مِنْ الشِّعْرِ التُّونُسِيِّ، ونُضِيفُ إلى ذَلكَ أَنَّ القُطْرَ التُّونُسِيَّ، بِحَسْبِ إِقْرارِ ناقِدِنا نَفْسِه، لمْ يَظْفَرْ بِكِتابٍ مِثْلِهِ لا قَبْلَه ولا بَعْدَه[1]، وهي أُمُورٌ تَجْعَلُ حالَةَ تَلَقِّيهِ تَخْتَلِفُ غَيْرَ قَلِيلٍ عنْ حالَةِ كِتابِ العُمْدَةِ، ذَلكَ الَّذي حَمَلَ مادَّةً مَشْرِقِيَّةً في الغالِبِ، ومِنْ ثَمَّ فلا غَرْوَ مِن أَنْ يَقُومَ بَينَ النَّاقِدِ والكِتابِ اتِّصالٌ عَمِيقٌ طَوالَ كِتابَةِ تارِيخِ الأَدَبِ في هَذا الجُزْءِ[2]، أَمارَتُه تَكْرارُ ذِكْرِه بِصُورَةٍ بارِزَةٍ- لَعَلَّه تَسَبَّبَ في تَعْدِيلِ آرائه فيه.

2. لقد كانتِ الـمُلاحظاتُ النَّقْدِيَّةُ الـمَبْثُوثَةُ في كِتابَي: الأُنموذَجِ والعُمْدَةِ بِعَيْنِ ضيفٍ وهو يَقْتَرِبُ من بلادِ الـمَغْرِبِ وآدابِها، فكان أَحْيانًا يَرْتَكِزُ عليها في عَمَلِيَّةِ تَوْزِيعِ الشُّعَراءِ على أَبْوابِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ ومَوضوعاتِه وأَغْراضِه، كما كان يَسْتَعِينُ بنَظَراتِه في تَوْجِيه بَيْتٍ شعري أو تَقْيِيمِ عَلَمٍ من أَعْلامِ القَيْرَوانِ[3]، وقد مَرَّ بنا أَنَّه اعْتَمَدَ في التَّعْرِيفِ بعبد الكريم النَّهْشَلِيِّ النَّاقِدِ على مَا احْتَفَظَ به كِتابُ العُمْدَةِ مِن آرائِه، الأَمرُ الَّذي يَعْنِي أَنَّ اتِّصالا غَيْرَ

(1) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 9/ 213.

(2) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 9/ 217، 240، 251، 256، 288.

(3) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 9/ 186، 244، 259، 269، 270.

مَعهُودٍ قدْ بَدَأَ يَتوَفَّرُ بَينَهُما ؛ لاحْتِياجِه آراءَه هُو تارَةً وآراءَ غَيْرِه الَّتي احتَفَظَ بِها تارَةً أُخْرَى.

- **المَنْهَج:** تَرَجَّحَ لَدَينا مِنْ قَبْلُ أَنَّ مُوازَنَةً ذِهْنِيَّةً مُضْمَرَةً تَحقَّقَتْ أَثناءَ تَعْرِيفِ النَّاقِدِ بابنِ رَشيقٍ، لَكِنْ دُونَ أَن تَفْرِضَ الإقليمِيَّةُ سَطْوَتَها ودُونَ أَن تَتَحكَّمَ التَّارِيخِيَّةُ في تَوْجِيهِ الرُّؤيَةِ ؛ يَعُودُ السَّبَبُ في ذَلكَ إلى أَنَّها بَدَتْ، عَلى الرَّغْمِ مِن التَّعَرُّضِ له فِي إطارٍ إقلِيمِيٍّ، مُنْشَغِلَةً به لِذاتِه، وأَقصِدُ دِراسَتَه بَعِيدًا عَن كَوْنِه ثَمَرَةَ إقلِيمِه ؛ المغْرِبِ، وأَنَّها أَيضًا لمْ تَسْتَهْدِفْ تَحْدِيدَ لَحَظاتِ تَزايُدِ المُنْحَنَى النَّقْدِيِّ أو تَنَاقُصِه، فعُصِمَت مِن أنْ تُعِيدَ إنتاجَ الأَحْكَامِ التي رَوَّجَتْ لَهَا دِراساتُه السَّابِقَةُ[1]، تِلْكَ التي يُمكنُ أنْ نَعُودَ بِها مِن حَيثُ المَنْهَجِ المُحْتَذَى إلى تَجْرِبَتَين رَئِيسَتَينَ:

1. التَّجْرِبَةُ الأُولى هي تَجْرِبَةُ مَقالِ "ابنِ رَشِيقٍ" (المَنْشُورِ عام 1944م)، ونُلاحِظُ عَليها فِي مُجْمَلِها سَيْطَرَةَ **المَنْظُورِ الإقْلِيمِيِّ**، الذي يُقِيمُ عَلاقَاتٍ حَتْمِيَّةً بَينَ النُّقَّادِ وبِيئاتِهِمُ المَكانِيَّةِ، وكأَنَّهمْ «فَصائِلُ نَباتِيَّةٌ» ؛ لِكُلِّ فَصِيلَةٍ تُرْبَةٌ أو لِنَقُلْ لِكُلِّ تُرْبَةٍ فَصِيلَةٌ، والمَقالُ يُكَرِّسُ هذا الشُّعُورَ

(1) لا ينبغي أن يُفْهَم من هذا السياق أن السلسلة تتجافى عن المنهج الطبيعي الوضعي في دراسة النصوص الأدبية، ذلك الذي جسده سان بوف *Sainte- Beuve* (ت: *1869*م) بنظريته في "التاريخ الطبيعي لفصائل الفكر" وتلميذه إيبوليت تين بقوانينه الحتمية الثلاثة ؛ العرق والوسط واللحظة، بل على العكس من ذلك ؛ الأمر الذي سيسوقنا إلى التوقف عند آثارهما البارزة في الجزء الثاني من السلسلة الراهنة، وكل ما هنالك إذن أنها لم تكن تَتَّكِئ عليه في معظم جوانب بحثها النقاد ونقدهم، بخلاف التجارب الأولى التي يتجلى فيها هذا المنظور التاريخي.

مُنذُ بِدايَتِه القائِلَةِ: "وإذا ذهبنا نبحث في البيئة التي نبت فيها الكتاب.."[1]، الشيءُ الذي يَتَراءَى مُضَيِّقًا آفاقَ القارِئِ؛ بِما يَسْتَدْعِي مِنْ أَفْكَارٍ جاهِزَةٍ عن الإقْلِيمِ مَحِلِّ الدَّرْسِ، وبِمُحاوَلَتِه أَطْرَ نِتاجِ ابن رَشِيقٍ عليهَا، ومعَ المُضِيِّ قُدُمًا في قِراءَةِ المَقالِ نَشْعرُ كَذلكَ أَنَّ الغايَةَ لمْ تَكُنْ بَحْثَ ابنِ رَشِيقٍ وكِتابِه، وإنما بَحْثُ "..العقل المغربي الذي لا يحسن تأليف الصور"[2]، على حَدِّ تَعْبِيرِ ضيفٍ، وكَأَنَّ دَوْرَه إِذَنْ في المَقالِ هو مُجَرَّدُ تَمْثِيلِ خَصائِصِ هذه العَقْلِيَّةِ البَسِيطَةِ غَيْرِ المُفَلْسِفَةِ.

2. التَّجْرِبَةُ الأُخْرَى هي تَجْرِبَةُ كِتابِ النَّقْدِ، وبَيْنَما لاحَظْنا على التَّجْرِبَةِ الأُولَى سَيْطَرَةَ المَنْظُورِ الإِقْلِيمِيِّ، فَسَوفُ نُلاحِظُ هنا تَسَلُّطَ التَّصَوُّرِ التَّارِيخِيِّ في صِياغَةِ الأَحْكامِ، مَكَّنَ لذَلكَ الفَرْضِيَّةُ الَّتي تَنْطَلِقُ مِن أَنَّ «الظَّاهِرَةَ النَّقدِيَّةَ» تَمامًا كالظَّاهِرَةِ الطَّبيعِيَّةِ؛ تَبْدَأُ مِن طَوْرِ السَّذاجَةِ وتَمُرُّ بِلَحَظاتِ الذُّرْوَةِ لِتَنْتَهِيَ بَعْدُ إلى الجَفافِ والجُمُودِ، ولأنَّ هذا الطَّوْرَ الأَخِيرَ قد بَدَأَ في النَّقْدِ الأَدَبِيِّ، بِحَسْبِ ضيفٍ، مُنذ القَرْنِ الرَّابعِ بِدَلِيلِ قولِه: "فمنذ القرن الرابع لا نجد نقدا له قيمة.."[3]، فقد كان من المُرْتَقَبِ أن يَنْسَحِبَ هذا الحُكْمُ على ابنِ رَشِيقٍ (المتوفَّى عَام 456هـ)، وَمَعْنَى هذا

(1) شوقي ضيف: في الأدب والنقد، ص121. وقد سبق أن ذكرنا الأسباب الموضوعية التي جعلتنا نعد الإحالة على الصفحات المنشورة في هذا الكتاب المنشور في عام 1999م، تحت عنوان: "كتاب العمدة لابن رشيق"، هي في الوقت ذاته إحالة على مقال ابن رشيق المنشور في عام 1944م، فلا حاجة لتكرار ذكرها هنا.

(2) شوقي ضيف: في الأدب والنقد، ص122.

(3) شوقي ضيف: النقد، ص117.

أنَّه أَتَى فَحَسْبُ لِيُمَثِّلَ القَرْنَ الخامِسَ؛ قَرْنَ الجُمُودِ، ولَعلَّ مِن الأَدِلَّةِ الـجَلِيَّةِ على ذَلكَ أَنْ يُسَاقَ انْتِماؤُه إلى هذا القَرْنِ تَعليلا لِعَدَمِ التَّعَمُّقِ في الـمُلاحَظاتِ؛ إِذْ يَقُولُ ضيفٌ مُسَرِّيًا عن القارِئِ بَعضَ مَا وَجَدَه من سَطْحِيَّة تَحْلِيلِه: "غير أننا ننسى فنحن في القرن الخامس.."[1]!

ولَعَلَّه مِن نافِلَةِ القَوْلِ هنا؛ مِنْ أَجْلِ تَبَيُّنِ الـمُطَّرِدِ في فِكْرِ ضيفٍ النَّقْدِيِّ من الـمُنْقَطِعِ، أَنْ نُشيرَ تارَةً أُخْرَى إلى نَظَرِيَّتِه عن مَذاهِبِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ الثَّلاثَةِ الَّتي تَعَاقَبَتْ على مَسِيرَتِه، وأَقْصِدُ: الصَّنْعَةَ والتَّصْنِيعَ والتَّصَنُّعَ؛ لأنَّ النَّظْرَةَ التي خَلَّفَتْها إزاءَ الشِّعْرِ تَبْدُو مُتَساوِقَةً ومُتَشابِكَةً مع تلك التي خَلَّفَتْها نَظَرِيَّاتُه الأُخرى اللاحِقَةُ، إزاءَ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ كما يَظْهَرُ لنا الآن، وإزاءَ البلاغَةِ كَما سَيَظْهَرُ لو تَأَمَّلْنا كِتَابَه: البَلاغَة تطوُّر وتاريخ.

(1) شوقي ضيف: النقد، ص120.

- 4 /3 -

في سياق التَّعريف ببيئات النَّقد

التَّعْرِيفُ بِبيئاتِ النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ مَشْروعٌ آخرُ من المَشْرُوعاتِ المُهِمَّةِ التي انْشَغَلَ بها ضيفٌ، منذ مَرْحَلَةٍ مُبَكِّرَةٍ في حَياتِه العِلْمِيَّةِ، ظَهَرَ ذلك في رِسالَةِ الماجِسْتِيرِ، إذ نَظْفَرُ فيها بِنَصٍّ يُقِيمُ عَلاقَةً بين المُعْتَزِلَةِ الذين دَعَوا إلى الحُرِّيَّةِ في التَّفْكِيرِ والأُدَباءِ الذين دَعَوا إلى الحُرِّيَّة في الفَنِّ، ويُسَجِّل ظَنَّه في أن الحَرَكَةَ العَقْلِيَّةَ الكائِنَةَ في العِراقِ والبَصْرةِ يمكن أن تُعَدَّ أوَّلَ ظاهِرَةٍ أَدَبِيَّةٍ للنقدِ الخاضِع للأفْكَارِ الفَلْسَفِيَّة على أنَّ هَذا المَشْرُوعَ لا يَعْنِينَا الآنَ إلا مِن حَيثُ كَونِه «**مَشرُوعًا مُتَداخِلا**» مَعَ مَشرُوعِ التَّعرِيفِ بِنُقَّادِ العَرَبِ القُدَماءِ، وهُو تَداخُلٌ فَرَضَتْه أهدافُ عَمَلِيَّاتِ التَّعرِيفِ وآلِيَّاتُهَا، مِن استِيفاءِ العَلاماتِ الفارِقَةِ، والتَّمْيِيزِ قَدْرَ الطَّاقَةِ بينَ الأطْرافِ المُجْتَمِعَةِ، وتَحَسُّسِ المُتَجانِسِ والمُتَنافِرِ، أَمَلا فِي تَحْقِيقِ التَّصنِيفِ الدَّقِيقِ لَهُم، وفِي هذا السِّياقِ نَلْتَقِي بِثَلاثِ بِيئاتٍ نَقْدِيَّةٍ، هي بِيئاتُ: اللُّغَوِيِّينَ، والمُتَفَلْسِفَةِ، والمُتَكَلِّمِينَ (المُعْتَزِلَةِ)، يُمكِنُ أَنْ نَعْرِضَ لَها، كَما تَتَراءى لِناقِدِنا، عَلى النَّحْوِ الآتِي:

- بِيئَةُ اللُّغَوِيِّينَ[1]: وهُم الَّذِينَ استَهوَتْهُم رِوايَةُ الشِّعرِ؛ فَشُغِفُوا كَثِيرًا بِغَرِيبِه، وكانُوا أَصْحابَ ذَوقٍ مُحافِظٍ، فَأَدَّى ذَلكَ بهم إِلَى نَتائِجَ شَتَّى؛ يَجِيءُ عَلى رَأْسِهَا أَنَّهُم ظَلُّوا يَفْرِضُونَ النَّمُوذَجَ العَرَبِيَّ القَدِيمَ عَلى أَنَّه الأَصْلُ الذِي يَحْسُنُ بالشعراء أَنْ يُحاكُوه، ويَهْتَمُّون به وَحْدَه رِوايَةً وشَرْحًا، ولا يَكادُونَ يَرفَعُونَ لِلجَدِيدِ رَأْسًا، ويُسَدِّدُونَ سِهامَهُم لِكُلِّ مَنْ خَرَجَ عنْ نَسَقِ المَورُوثِ، فَيكْتُبُونَ الكُتُبَ تارَةً في أَخْطائِهمُ اللُّغَوِيَّةِ الَّتي تَقَعُ في شِعْرِهم، وتارَةً في سَرِقاتِهمْ مِن المَعانِي الَّتي سُبِقُوا إِلَيها، ومِن ثَمَّ لمْ يَعْبَئُوا بالاطِّلاعِ على آراءِ الأُمَمِ الأَجْنَبِيَّةِ في النَّقْدِ، ولا التَّزَوُّدِ بالثَّقافاتِ الفَلْسَفِيَّةِ التي كانَتْ قَدْ أَخَذَتْ في الانْتِشارِ لعَصْرِهِمْ، مُتَصَوِّرِينَ أَنَّ في ذَلكَ حِفاظًا عَلى لُغَةِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ وتَقالِيدِه ورُسُومِه، ورُبَّما مِن أَجْلِ ذَلكَ أَتَتْ جُهودُهمْ، فِي مُعْظَمِها، مُنْصَبَّةً على المَيادِينِ المُتَّصِلَةِ بِجَمْعِ لُغَةِ الشِّعرِ وتَوثِيقِ نِسبَتِه ورِوايتِه وتَمْييزِ المَنْحُولِ فيه مِن الصَّحِيحِ.

- بِيئَةُ المُتَفَلْسِفَةِ[2]: اتَّصَلَتْ هَذه البِيئَةُ مُنْذُ نَشْأَتِها بِالثَّقافَةِ اليُونانِيَّةِ، وكان على رَأْسِ الكُتُبِ التي اسْتَقْطَبَتْ جُهُودَ أَصْحابِها؛ تَرْجَمَةً وشَرْحًا، كِتابا أَرِسْطُو: الشِّعْرُ والخَطابَةُ، وتَمَثَّلَتِ الخُطْوَةُ اللاحِقَةُ في مُحاوَلَةِ إِخْضاعِ الشِّعْرِ

---

(1) انظر: شوقي ضيف: النقد، ص5، 6، 47- 55، والفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص60- 63، والفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص235، 236، 240- 244، والتطور والتجديد في الشعر الأموي، ص312- 324، وفي النقد الأدبي، ص30، والشعر والغناء في المدينة ومكة، ص138- 141، والبلاغة تطور وتاريخ، ص28- 32، 58- 66، 74، والبحث الأدبي، ص55، 151- 153، 160- 162، 166، وتاريخ الأدب العربي، 4/ 150- 157.

(2) انظر: شوقي ضيف: النقد، ص6، 63- 76، والبلاغة تطور وتاريخ، ص75- 102، وفي النقد الأدبي، ص30، والبحث الأدبي، ص55، وتاريخ الأدب العربي، 4/ 150- 157.

العَرَبِيِّ لِلْعَقْلِ اليُونانِيِّ الفَلْسَفِيِّ، والاحْتِكامِ إلى مَعاييرَ جَدِيدَةٍ تَتَلاءَمُ والثَّقافاتِ الغازِيَةَ في عَصْرِهم، وطَبِيعِيٌّ حِينَئِذٍ أَنْ يَحْدُثَ صِدامٌ بَينَ هذه البِيئَةِ والبِيئَةِ الأُولَى، على أنَّ الخِلافَ بَينَهما، وإنْ كَان يَبدُو في ظاهِرِه خِلافًا حَولَ القَدِيمِ والجَدِيدِ، فَإنَّ «النَّزْعَةَ الشُّعُوبِيَّةَ» كَانتْ كَامِنَةً تُذْكِي أُوارَه؛ إذْ نُلاحِظُ حِرْصَهمْ الشَّدِيدَ على تَعْرِيَةِ العَرَبِ منْ كُلِّ مَيْزَةٍ، ورَدِّهَا إلى الأُمَمِ الأُخرَى، لَكِنْ على أَيَّةِ حالٍ تَعودُ إلَيهِمْ، فيما يرى ناقدنا، مُحاوَلَةُ وَضعِ مَعاييرِ جَوْدَةِ الشِّعرِ ورَداءَتِه لأوَّلِ مَرَّةٍ في حَياةِ النَّقْدِ العَرَبِيِّ.

- **بِيئَةُ المتَكَلِّمِينَ (المعتَزِلَةُ)** (1): وكانَ شُغلُهُم تَلْقِينَ الشَّبابِ كَيفَ يُفْحِمُونَ الخُصُومَ في المُناظَراتِ والجَدَلِ، فَجَعَلَهم ذَلكَ يَبُثُّونَ إجاباتٍ حَولَ سُؤالَي: مَاذا نَقُولُ؟ وكَيفَ نَقُولُ؟ ومِنْ هُنا ارْتَبَطَتْ صِلاتُهمْ بِفُنُونِ القَولِ ومَعَاييرِ الحُكْمِ عَليها، وقَدْ رَأَتْ هَذِه البِيئَةُ ضَرُورَةَ الإفادَةِ مِنْ الثَّقافاتِ الأَجْنَبِيَّةِ لَكِنْ في احْتِياطٍ، وبِعِبارَةٍ أُخرَى: قَبُولُ الآخَرِ مَع المُحافَظَةِ على الأُصُولِ المَورُوثَةِ؛ ولِذا وَجَدْناهم يَضِيقُونَ ذَرْعًا بِالبِيئَتَينِ السَّابِقَتَينِ كِلْتَيهِمَا، فَأَخَذُوا عَلَى اللُّغَوِيِّينَ انْشِغالَهم بِالشَّواهِدِ الغَرِيبَةِ والشَّاذَّةِ، وإصْغاءَهم لِلقَدِيمِ وَحْدَه دُونَ الجَدِيدِ، الَّذي يُحْتَمَلُ عَقْلا أَنْ يَأْتِي مُسْتَحْسَنًا، كما أَخَذُوا على المتَفَلْسِفَةِ فِتْنَتَهُم بالمَعاييرِ الأَجْنَبِيَّةِ وتَسْفِيهِهِم البَيانَ العَرَبِيَّ الأَصِيلَ، وطَفِقُوا يُعلِنُونَ حَرْبًا شَعْواءَ على الشُّعُوبِيَّةِ وأَنْصارِهَا، مُمَجِّدِينَ أَثناءَها مِن شَأْنِ أُمَّةِ العَرَبِ ومَا لَها مِن قِيَمٍ جَمالِيَّةٍ راسِخَةٍ.

---

(1) انظر: شوقي ضيف: النقد، 5، 6، 55- 62، والبلاغة تطور وتاريخ، ص5، 6، 32- 58، 102- 120، والفن ومذاهبه في النثر العربي، ص6، 127- 133، وفي النقد الأدبي، ص30، والبحث الأدبي، ص55، 56، وتاريخ الأدب العربي، 4/ 98- 101، 150- 157.

إنَّ قِيمَةَ التَّمْييزِ بينَ هَذه البيئَاتِ النَّقدِيَّةِ الثَّلاثَةِ تَكْمُنُ في أنَّه يَنطَوِي على التَّمييزِ بَينَ «**اتِّجاهاتٍ نَقدِيَّةٍ**» ؛ لأنَّ كُلَّ بِيئَةٍ كانتْ تَصْبِغُ النَّقْدَ الـمُنْتَسِبَ إليها بِصِبغَتِها، حِينَ تُحاوِلُ أنْ تُشَرِّعَ له وتَضَعَ مَعاييرَه ومَقاييسَه، ولَئِنْ كان يَصِحُّ أنْ يُنْعَتَ الاتِّجاهُ الأوَّلُ بِأنَّه انْحِرافٌ إلى أقْصَى اليَمينِ، بتَنَكُّرِه لِلجَدِيدِ وللثَّقافاتِ الأَجْنَبِيَّةِ، ومُحَاوَلَتِه الحُكْمَ على النُّصُوصِ، سَواءٌ القَدِيمُ منها والحَدِيثُ، بِالـمَعاييرِ الـمَورُوثَةِ الَّتي يُحِيطُها بِهالَةٍ مِن القَداسَةِ، فَإنَّ الانْحِرافَ إلى أقْصَى اليَسارِ سيَغْدُو نَعْتَ الاتِّجاهِ الثَّانِي، بتَبَنِّيهِ مَعاييرَ لا تَمُتُّ إلى السِّيَاقَاتِ الحَاضِنَةِ للنَّصِّ مَحِلِّ الدِّراسَةِ، بَل تَنتَمِي إلى سِياقاتٍ تَصْطَدِمُ مَع خُصُوصِيَّاتِه، وبِمُحَصِّلَةِ طَرْحِ «زاوِيَتَي الانْحِرافِ» تَتَحَدَّدُ نُقْطَةُ انْطِلاقِ الاتِّجاهِ الثَّالِثِ؛ إذْ يَقُومُ بِهَضْمِ القَدِيمِ العَرَبِيِّ وتَمَثُّلِه، وبِاسْتِقْبالِ الجَدِيدِ والأَجْنَبِيِّ، لَكِنْ فِي شَيءٍ مِن الحَيطَةِ، بِحَيثُ يَتَمَكَّنُ مِن وَضْعِ قَواعِدَ جَدِيدَةٍ تَتَّفِقُ والذَّوقَ العَرَبِيَّ، وبِهذَا النَّهْجِ الـمُزاوِجِ في اسْتِيعابِه بَينَ القَدِيمِ والجَدِيدِ وأَيضًا بَينَ العَرَبِيِّ والأَجْنَبِيِّ اسْتَطاعَتْ بِيئَةُ الـمتَكَلِّمِينَ، مِن وِجْهَةِ نَظَرِ ناقِدِنَا، أَنْ تَتَوَسَّطَ بِيئَاتِ النَّقْدِ الثَّلاثَةِ[1].

---

(1) يبدو أن هذا القالب كان يَرُوقُ لضيف؛ لأنه كان كلما أراد أن يُصوِّر الاتجاهات المتوازية في أحد الميادين يقوم باستعارته وصبِّها فيه، في الحياة العقلية كما في الاجتماعية، في النقد كما في البلاغة، فدائما نقابل محافظين مسرفين في المحافظة، ومجددين مسرفين في التجديد، واتجاه ثالث يتوسط الاتجاهين السابقين؛ لا يعرف المحافظةَ بوصفها جمودا عند الموروث، ولا يعرف التجديدَ بوصفه تنكُّرا للتراث وتعبدا للأجنبي، ويمكن أن نضرب مثلا لذلك بما كتب عن الساحة النقدية في العقود الأولى من القرن العشرين؛ إذ يلقانا القالب ذاته وما صُبَّ فيه من اتجاهات ثلاثة؛ يمثل الرَّافعيُّ فيها البيئةَ المحافظة محافظة شديدة، ويمثل سلامةُ موسى البيئةَ المجددة تجديدا مسرفا، في حين كان التوسُّطُ من نصيب طه حسين وأقرانه: العقاد وهيكل والمازني، الذين استطاعوا، في رأيه، أن يوازنوا بين القديم

=

على هَذا النَّحْوِ ظَلَّ ناقِدُنَا يُوزِّعُ النُّقَّادَ على البيئاتِ الـمُخْتَلِفَةِ؛ لِيستَكْمِلَ تَصْوِيرَ الخُطُوطِ الـمُتَوازِيَةِ؛ الـمُتَجاوِرَةِ والـمُتَحاوِرَةِ، في العَصْرِ مَحِلِّ الدِّراسَةِ أو في الذَّوقِ العَرَبِي بِصِفَةٍ عامَّةٍ، ولَيسَ مِن الـمُفِيدِ هُنا، فِيمَا نَرى، أنْ نَمْلأَ صَفَحاتٍ بِذِكْرِ النُّقَّادِ وتَصنِيفاتِهم؛ إذْ يَبدُو كُلُّ أَمرٍ على مَا هو مُتَوَقَّعٌ؛ فَدَائِمًا يَنْدَرِجُ الجاحِظُ مَع الـمتَكلِّمِينَ وقُدامَةُ مع الـمتَفَلْسِفِينَ والـمُبَرِّدُ مَعَ اللُّغَوِيينَ، بل الـمُفِيدُ أَنْ نُشِيرَ أَخِيرًا إلى ما يَحُسُّه القارِئُ أحْيانًا مِن اضْطِرابٍ في الصُّورَةِ الـمُنْتَجَةِ عن بَعْضِ النُّقَّادِ، مَنْشَؤُه انْعِدامُ الفَوارِقِ تارَةً وعَدَمُ قابِلِيَّةِ الكُلِّيِّ لاحْتِواءِ أَجْزائِه تارَةً أُخرَى، وهو الأَمرُ الذِي سَنُحاوِلُ التَّدْليلَ عَليه بِوَساطَةِ التَّوَقُّفِ عِندَ ناقِدَينِ:

- ابنِ قُتَيْبَةَ (ت: 276هـ): أَحْيانًا يَتِمُّ إِدْراجُه في بِيئَةِ اللُّغَوِيِّينَ، كما في كِتابِ "البَلاغَة تَطَوُّر وتارِيخ"، تَحتَ عُنوانِ: "لغويون مختلفون"، ويُقْرَنُ إليهِ الـمُبَرِّدُ وثَعْلَبُ[(1)]، وأَحْيانًا يُدْرَجُ في بِيئَةِ الـمُتَكَلِّمِينَ، كَما في الجُزْءِ الرَّابِعِ مِن سِلسِلَةِ تَارِيخِ الأَدَبِ، ويُقْرَنُ إلى بِشْرِ بنِ الـمُعْتَمِرِ والجاحِظِ وابنِ طَباطَبَا[(2)]، في حِينِ لمْ يُصَنَّفْ في كِتَابِ النَّقْدِ؛ لأَنَّه كان غائِبًا عَنهُ، لولا إِشارَةٌ عارِضَةٌ إلى

=والجديد، وأن يتخذوا مقاييس لنقد الأدب، لا هي أوروبية خالصة ولا هي عربية خالصة، بل هي مزيج بين هذه وتلك، انظر: شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر؛ في مصر، ط1، ص164- 171، وربما كان من المهم الإشارة إلى أن هذا الكتاب، في طبعته الأولى، لم يترجم لأيٍّ من هؤلاء الذين وسمهم بالإسراف في المحافظة أو التجديد، وكأنه بهذا يجسد قناعة في أن نموا للنقد لا يتم إلا بالتوسط بين الفريقين، بخلاف الطبعة الثانية التي بدت شكليا منحازة للاتجاه المحافظ بترجمتها للرافعي، انظر: شوقي ضيف: الأدب المعاصر في مصر، ط10، ص242- 251.

(1) انظر: شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص58- 61.

(2) انظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، 4/ 154- 156، 520، 618- 623.

مُخالَفَتِه الجَاحِظَ في تَفضِيلِ اللَّفْظِ على المَعْنَى؛ إِذْ رَأى هُو، بِحَسْبِ ناقِدِنا[1]، التَّسْوِيَةَ بَينَهُمَا، ويَبدُو أَنَّ ضيفًا كان قد نَظَرَ إلى جُهُودِ ابنِ قُتيبة فَوَجَدَها تَنْتَمِي، في مُعْظَمِها، إلَى مَيدانِ اللُّغةِ، ونَظَرَ إلى عَقِيدَتِه فَإذا بِه مِن أَهلِ السُّنَّةِ، بل وَجَدَه كذلك مِن النَّاقِمِينَ على المُعْتَزِلَةِ، وكانت المُحَصِّلَةُ المُرْتَقَبَةُ لِذلِكَ أَنْ يُصنِّفَ مَع اللُّغَوِيِّينَ المُحافِظِينَ، ثُم إنه عادَ إِليهِ فَإذَا به لا يُفرِّقُ بَينَ القُدَماءِ والمُحْدَثِينِ، وإذَا به يُشارِكُ المُعْتَزِلَةَ في رَدِّ سِهامِ الشُّعُوبِيَّةِ المَسْمُومَةِ، وإذا به يَجْمَعُ بَين الثَّقافاتِ المختَلِفَةِ؛ العَرَبِيَّةِ والأَجْنَبِيَّةِ في عَصْرِه، مُجَسِّدًا شَخْصِيَّةَ عَالِمٍ مَسئُولٍ عنْ هُوِيَّةِ أُمَّتِه، وفَوقَ هَذا يَتَأَثَّرُ الجاحِظَ في بَعضِ آرائِه ويُنَاقِشُه في أُخرَى[2]، ومِن ثَمَّ كان مِن حَقِّه أَنْ يَلْحَقَ بِركْبِ المُعْتَزِلَةِ حَتَّى إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنهُم، الأَمرُ الذِي يَجْعَلُنا نَزْعُمُ أَنَّه كان مُصنَّفًا مَع اللُّغَوِيِّينَ لا لِشَيءٍ إلا لأَنَّه لَيسَ مِن المُعْتَزِلَةِ المُشتَغِلِينَ بعِلْمِ الكَلامِ، وربَّما يُؤكِّدُ هذا، مِن جانبٍ آخَرَ، أَنَّ بَعْضَ هذا الَّذِي أَهَّلَه لِلَّحاقِ بِركْبِ المُعْتَزِلَةِ كان ناقِدُنا قد تَنَبَّه إِليهِ مِنْ قَبلُ، لَكِنَّه أَصَرَّ حِينَها على أَنْ يُثبِتَ له وَصْفَ اللُّغَوِيِّ، ذَلكَ في قَولِه[3]: "وربما كان اللغوي الوحيد الذي شذ

---

(1) انظر: شوقي ضيف: النقد، ص100. وليس هنا مجال للحديث عن قضية اللفظ والمعنى والتصورات التي تبناها النقد العربي القديم، والخلافات الناشئة بين نقادنا المحدثين حول قراءة هذه التصورات في سياقاتها المتباينة.

(2) يمكن التماس الأوصاف التي نظن أنها أهَّلَت ابن قتيبة للحاق بقافلة المتكلمين المعتزلة في: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 3/ 79، 4/ 98، 99، 155، 156، 611- 623، 5/ 376.

(3) شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص74. ونريد أن نلفت الانتباه إلى أن الموضع الذي ذُكِرَ فيه هذا النص لم يكن الموضع الذي تم فيه تناول ابن قتيبة وآرائه بالبحث والتحليل، الأمر الذي قد يلمح إلى أن الكتاب لم يكن قد استوعب حتى هذا الحين المفرداتِ المائزةَ لاتجاه الناقد وذائقته.

على ذوق اللغويين هو ابن قتيبة، إذ لم يكن يتعصب للقدماء ضد المحدثين، بل كان يسوي بينهم..".

- ابنِ المُعْتَزِّ: الخَلِيفَةِ الشَّاعِرِ النَّاقدِ، وإذْ كان هَوى الشُّعَراءِ، بِحَسْبِ ما يُقرِّرُ ضيفٌ، مع التَّجْدِيدِ والإفادَةِ مِن الثَّقافاتِ الأَجْنَبِيَّةِ[1]، فقدْ كُنَّا نَتَوَقَّعُ أَنْ يُلْحَقَ بِبِيئَةِ المُتَكَلِّمِينَ؛ لَكِنَّنا أَلفَيْنا الحَدِيثَ عَنهُ يَنْعَقِدُ بِوَصْفِه مُمَثِّلا بِيئَةَ اللُّغَوِيِّينَ ومُحافَظَتَهم[2]، ونَمْضِي في قِراءَةِ النُّصُوصِ فَإذا بِنا أَمامَ إِشْكَالٍ يُثِيرُه إِعْلانُ ضيفٍ أَنَّ "ابن المعتز لم يكن من ذوق اللغويين حتى أمثال ابن قتيبة، فقد كان معتدلا في نظرته وحكمه على شاكلة الجاحظ وغيره من المتكلمين"، وها نحن قدْ رَأَيْنَا أَنّه بِأَخَرَةٍ قدْ أَدْرَجَ ابنَ قُتَيْبَةَ مَع المُتَكَلِّمِينَ، فَلِماذا إِذَنْ يَظَلُّ ابنُ المُعْتَزِّ قَابِعًا في بِيئَتِهِ؟! بَلْ لِماذا يَعُودُ ناقِدُنا فَيقُولُ عَنْهُ: "وهو يصور ذوقا محافظا معلنا في غير مواربة تعصبه للعرب.."؟! والَّذِي يَتَرَجَّحُ لي أَنَّ تَصنِيفَ ابنِ المُعْتَزِّ كان مُؤَسَّسًا، في مُعْظَمِ جَوانِبِه، على اسْتِحْضارِ أَنَّه كان مِمَّنْ واجَهُوا الزَّعْمَ القائِلَ: إنَّ المُحْدَثِينَ أَنشَئُوا فُنُونَ البَدِيعِ إنشاءً، ولَمَّا كان هَذا الزَّعْمُ يُرَوَّجُ غالِبًا مِن قِبَلِ المُتَفَلْسِفَةِ الَّذِينَ يَفْتَقِرُونَ إلى الاتِّصالِ العَمِيقِ بالأَدَبِ القَدِيمِ، أو أَصْحابِ النَّزْعَةِ الشُّعُوبِيَّةِ الَّذِين يَحْرِصُونَ على تَعْرِيَةِ العَرَبِ مِن كُلِّ مَيْزَةٍ ورَدِّهَا إلى الأُمَمِ الأُخْرَى، وهُمَا مَن كان يُشَكِّلُ وقْتَها القُطْبَ المُتَنافِرَ مع القُطْبِ اللُّغَوِيِّ- فقدْ كان مِن حَظِّ ابنِ المُعْتَزِّ أَنْ يُصَنَّفَ

---

(1) انظر على سبيل المثال: شوقي ضيف: النقد، ص6، 40- 47.

(2) انظر تناوله بوصفه ممثلا بيئة اللغويين في: شوقي ضيف: النقد، ص45، 46، والبلاغة تطور وتاريخ، ص67- 75، والبحث الأدبي، ص55، وتاريخ الأدب العربي، 4/ 151، 152.

مع اللُّغَوِيِّينَ ؛ لأنَّه تَصَدَّى للرَّدِّ عَليهِمْ ؛ مُحَاوِلا إِثْباتَ أَنَّ مذهب البَدِيعِ قَدِيمٌ وأنَّ كُلَّ ما لِلْمُحْدَثِينَ في مَيْدانِه إِنَّمَا هو الإِكْثارُ منه فَحَسبُ.

أَكْبَرُ الظَّنِ أَنَّ هَذه الوَقْفَةَ التَّأَمُّلِيَّةَ عِنْدَ هَذينِ النَّمُوذَجَينِ قدْ استَطاعتْ أنْ تُصَوِّرَ لنا ذَلكَ **الاضْطِرابَ** الذِي أَشَرْنا إِلَيهِ، وإذَا كان مِن حَقِّنَا الآنَ **التَّسَاؤُلُ عنْ أَسْبابِه**، فَيُمْكِنُ الإِشارَةُ إلى ثَلاثَةِ أَسْبابٍ مُهِمَّةٍ، **الأَوَّلِ**: التَّوَهُّمُ أَنَّه بِمَقْدُورِنا الفَصْلُ التَّامُّ الدَّقِيقُ بَين البِيئاتِ، بالـمَعْنَى الَّذِي يَجعَلُ الانْسِيابَ بَينَهم مُمْتَنِعًا «واقِعِيًّا» كمَا هو «إِجْرائِيًّا»، **والثَّانِي**: انْطِلاقُ النَّاقِدِ مِن «مَقُولاتٍ نِهائِيَّةٍ» أَثْناءَ التَّوزِيعِ والتَّصْنِيفِ، مِن مِثْلِ إنَّ الـمتَكَلِّمِينَ، وعلى رَأْسِهم الـمُعْتَزِلَةُ، هُم الذِين وَضَعُوا أُصولَ البَلاغَةِ، وهُم أيضًا الذِين تَطَوَّرُوا في مَعاييرِهم النَّقدِيَّةِ مَعَ رُوحِ العَصْرِ، بِمَا اعْتَمَدوه مِن مُزاوَجَةٍ بينَ العَرَبِيِّ والأَجْنَبِيِّ وبَينَ القَدِيم والجَدِيدِ، **والثَّالِثِ**: الرُّكُونُ إلى الاسْتِنْباطاتِ التي تُكَرِّسُ الاعْتِقادَ فِي «حَتْمِيَّةِ» العَلاقاتِ بينَ بِيئَةِ النَّاقِدِ وذَوقِهِ ؛ فَنَتَوهَّمُ أَنَّ اللُّغَوِيَّ لابُدَّ أن يَكُونَ رافِضًا الجَدِيدَ ؛ لأنَّ وظِيفَتَه هي الحِفاظُ على التُّراثِ اللُّغَوِيِّ، وأن الـمُتَفَلْسِفَ لابد أنْ يَشْرَحَ بالجَدِيدِ صَدْرًا ؛ لأنَّ وَظِيفَتَه تُلجِئُه إلى ثَقافَاتِ الأَجانبِ وعُلُومِهِمْ وآدابِهِم.

إنَّ الـمِقْدارَ الذي يَبْلُغُه بُرُوزُ هذه الـمَقُولاتِ والاسْتِنْباطاتِ هو الـمِقْدارُ نَفْسُه الذِي يَبْلُغُه تَوارِي التَّأَمُّلِ الفاحِصِ الـمُخْتَصِّ بِذَوقِ النُّقَّادِ وآرائِهِم، ولِذا كُنَّا نَرْغَبُ فِي أَنْ تُصاغَ أَلْقابُ البِيئاتِ على نَحْوٍ **يَشِفُّ دُونَ وَساطَةٍ عن ذائِقَتِها**، على أنْ تَتِمَّ الإِشارَةُ إلى الفِئاتِ التي شاعَ بَينَها هَذا الـمَنْحَى أوْ ذاكَ ؛ لأَنَّها مَسْأَلَةٌ ضَرُورِيَّةٌ كما أَسْلَفْنا، تَنْبُعُ مِن أَهَمِّيَّةِ قِراءَةِ الظَّاهِرَةِ داخِلَ سِياقاتِها الـمُتَبايِنَةِ، لَكِنْ دُونَ أَنْ يَغدُوَ ذَلكَ «الـمُؤَشِّرَ الأَوْحَدَ» في عَمَلِيَّةِ التَّوزِيعِ، وإذْ

تُساعِدُ هذه الآلِيَّةُ في تَأْدِيَةِ الأَغْراضِ نَفسِهَا التي يَطْمَحُ إلَيها هَذا المَشْرُوعُ مَع تَلافِي الاضْطِراباتِ الواقِعَةِ، فإنَّها كَذلكَ تَمْنَحُه «بَديلا مَنْهَجيًّا» عن التَّسْمِياتِ التي سَبَّبَتْ إرهاقًا، تَبَدَّى بِصُورةٍ واضِحَةٍ في البِيئةِ الثَّالثَةِ وما تَعاقَبَ عليها مِن أَسْماءَ، إذْ نُقَابِلُ: "المُتَكَلِّمِينَ" و"المُعتَزِلَةَ" و"المُتَكَلِّمِينَ خَاصَّةً المُعْتَزِلَةَ"، وكانَ يُغْنِي أنْ تُوصَفَ هَذه البِيئةُ، وَفْقًا لما يَرَى ضيفٌ، بِالمُعْتَدِلِينِ أوْ شَيءٍ مِن هَذا؛ بِحَيثُ يَسْمَحُ هذا بِاجْتِماعِ أَصْحابِ المَقالاتِ المَذْهَبِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ مَا دامتْ أَذْواقُهمْ مُتَواطِئَةً، ويَنْبَغِي بَعْدُ ألا نَعْبَأَ بتَحَقُّقِ التَّوحُّدِ المُطْلَقِ الكائِنِ بَينَ النُّقَّادِ المُنْدَرِجِينَ تَحْتَ مِظَلَّةِ ذَوقٍ واحِدٍ، ولا حتَّى بتَحَقُّقِ الفَصْلِ التَّامِّ بينَ الأَذْواقِ؛ يُسْعِفُنا في تَجاوزِ هَذه العَقَبَةِ المُتَوَهَّمَةِ اسْتِحْضارُ نَمُوذَجِ «أَلْوانِ الطَّيْفِ»، وكَيفَ أنَّ اللَّونَ يُكافِئُ لَونًا آخَرَ، مُكَثَّفًا تارَةً ومُخَفَّفًا تارَةً أُخْرَى، وكَيفَ أنَّ اللَّونَ الواحِدَ تَتَقَبَّلُ العَينُ رُؤيَتَه بِدَرَجاتِه جَمِيعِها وتَقَلُّباتِه كُلِّهَا دُونَ أنْ تَخِيلَه فِي أَيٍّ مِنها غَيرَ ذاتِه.

- 4 -

المَنْهَجُ وتَجَلِّياتُه

".. أما دراسة النصوص والكتابة في شروح الشعر وتفاسيره فقد وضعوا فيها غير قليل من القواعد والمبادئ التي ينبغي أن ننتفع بها في أعمالنا الحديثة. وأرى في النقد العربي القديم كنوزا مجهولة، تنتظر ناقدا بارعا يستكشفها ويدخلها متحف النقد الحديث..". شوقي ضيف: في الأدب والنقد، ص119.

ثَمَراتِ السِّياقِ الزَّمَنِيِّ والبِيئَةِ المَكانِيَّةِ[1]، ويَسْبِقُ ابنُ خَلدُونَ النَّاقِدَ الفَرَنْسِيَّ إيبوليت تين في الإقْرارِ بالقَوانِينِ العامَّةِ التِي تَتَحَكَّمُ في أَدَبِ وأُدَباءِ كُلِّ أُمَّةٍ، لَكِنْ مِن دُون أنْ يُعْطِيَها «حَتْمِيَّةً» ولا «جَبْرِيَّةً»[2].

لَقَدْ يَسْتَطِيعُ ما مَضَى أَنْ يُظهِرَنا عَلى الطَّابَعِ الأَساسِ لِمَفْهُومِ المَنْهَجِ لَدَى النَّاقِدِ، وأَقْصِدُ طابَعَ «المُرُونَةِ»، فالاخْتِلافُ وَحْدَه لَيسَ سَبِيلا لِلافْتِراقِ فِي الوَصْفِ كَما أنَّ الاجْتِماعَ ليس دائِمًا أَمارَةَ اتِّحادٍ. عَلى أنَّ اسْتِحضارَه لما عِندَ العَرَبِ من مَقولاتٍ ورُؤًى أثناء الحَدِيثِ عن المَناهِجِ الأُخْرى لا يَنْبَغِي تَلَقِّيه على أنَّه فَصْمٌ لها عن سِياقاتِها غيرِ المُتَجانِسَةِ، أو أنَّه عَبَثٌ بالمُفْرَداتِ لِيَصِيرَ المَنْهَجُ شيئًا آخَرَ غيرَ سِيرَتِه الأُولى، بِدَليلِ حِرْصِه على تَسْجِيلِ الفُرُوقِ الكائِنَةِ بين الأَطْرافِ المُخْتَلِفَةِ حالَ اجْتِماعِها، وهو أَمْرٌ لابُدَّ أَنَّنا قد لَمَحْناه قَبْلا، أَثْناءَ تَسْجِيلِه مُلاحَظَتَه عن طرِيقَةِ الأَبْحاثِ العَرَبِيَّةِ في تَناوُلِ الأَدَبِ، التي تُغايِرُ طرِيقَةَ المناهِجِ النَّقْدِيَّةِ الحدِيثَةِ، من حيثُ كونها لا تَعْمَدُ إلى الدِّراسَةِ العامَّةِ في الأَدَبِ والأُدَباءِ، وسَنَلْمَحُه هُنا بِإشاراتِه الصَّرِيحَةِ والضِّمْنِيَّةِ إلى عَناصِرِ الاخْتِلافِ، الَّتِي سَتَتَجلَّى أَوضَحَ ما يكونُ حينما نَتَساءَلُ: هل نَسْتَطِيعُ التَّسْوِيَةَ بين ابنِ سَعِيدٍ وأَصْحابِ «المَنْهَجِ الطَّبِيعِيِّ»، مِنْ أَجْلِ إدْراكِه المُبَكِّرِ دَورَ البِيئَةِ الجُغْرافِيَّةِ والزَّمَنِيَّةِ في إِنْباتِ الشاعِرِ بِصُورةٍ مُعَيَّنَةٍ؟ إننا لا نُجادِلُ في أنَّ «الحِسَّ التَّارِيخِيَّ» بوصْفِه أساسَ هذا المَنْهَجِ قَدْ كان حاضِرًا، لا في عَقْلِ ابنِ سَعِيدٍ وَحْدَه، بَلْ في العَقْلِيَّةِ العَرَبِيَّةِ النَّاقِدَةِ، يَتَمَثَّلُ في اعْتِمادِها

---

(1) انظر: شوقي ضيف: البحث الأدبي، ص20، 92، وفي التراث والشعر واللغة، ص59.

(2) انظر: شوقي ضيف: البحث الأدبي، ص88- 92.

جُمْلَةً من المُعْطَيات التَّاريخِيَّةِ لِمُعالَجَةِ قَضايا وَظَواهِرَ ذاتِ صِلَةٍ بالأَدَبِ، غَيْرَ أنَّ الذي يَنْبَغِي الانْتِباهُ إليه هُو أنَّ هذا الحِسَّ لم يَسْتَمِدَّ في مُعْظَمِ قِطَاعَاتِه من تَصَوُّرٍ نَظَرِيٍّ مُسْتَتِبٍّ ولَمْ يَكُنْ مُرْتَكِزًا على «خَلْفِيَّاتٍ فَلْسَفِيَّةٍ»، ولذلك ظَلَّ تعامُلُهم مع النُّصُوصِ عَبْرَ هذا الحِسِّ تِلْقائِيًّا غالِبًا. إنَّ فَحْوَى نُصوصِ ناقِدِنا يُمْكِنُها أن تقولَ مثلَ هذا الذي نُقَرِّرُ، وهنا يبْرُزُ طابَعُ المُرونَةِ بِوَصْفِه استِيعابًا لِطَرَفَيْن رَغْمَ الإِقْرارِ بِوُجودِ التَّخالُفِ بينهما.

لِلتَّأْكِيدِ على ذلك وشَرْحِه، **من جِهَةِ البَحْثِ الحالِيِّ**، يُمْكِنُ الإشارَةُ إلى **نموذَجَين**؛ الأول: نموذَجُ ابنِ سَلامٍ الجُمَحِيِّ في كتابه "طَبَقاتِ فُحُولِ الشُّعَراءِ"[1]، حِينَ يَلْجَأُ إلى المُلابَساتِ الخارِجِيَّةِ أَثْناءَ تَفْسِيرِه قِلَّةَ الشِّعْرِ أو كَثْرَتَه ووُعُورَتَه أو لِيُونَتَه، فَيَذْهَبُ، على سبيلِ التَّمْثِيلِ، إلى أنَّ قِلَّةَ الحُرُوبِ التي خاضَتْها قُرَيْشٌ كانَتْ هي السَّبَبَ في قِلَّةِ نِتَاجِهم الشِّعْرِيِّ، وأنَّ جِهَادَ المُسْلِمينَ في صَدْرِ الإِسْلامِ هو الذي أدَّى إلى انْشِغالِهِم عن الشِّعْرِ، ومِنْ ثَمَّ ضَاع أكثرُه لِشَفَهِيَّةِ رِوايَتِه آنَذاك، وأيضًا حين يَعْتَمِدُ على «التَّحْقِيبِ الزَّمَنِيِّ»؛ فهناك "الجاهِلِيِّين" و"المُخَضْرَمين" و"الإسلامِيِّين"، وربَّما بدا الأمر جَلِيًّا إذا تَأَمَّلْنا طَبَقَةَ المُخَضْرَمِينَ، فهم مُسْلِمون، لكنهم ليسوا كالإسلامِيِّين في تَكْوِينِهم، من وِجْهَةِ نَظَرِ النَّاقِدِ ذِي الحِسِّ التاريخِيِّ؛ لأَنَّهُم بِحَسْبِ تَوْصِيفِه: الذين كانُوا في الجاهِلِيَّةِ وأَدْرَكُوا الإِسْلامَ، وحين يَنْضَوِي بعضُ هؤلاء تَحْتَ عُنوان: "طبقة شعراء القرى العربية" يتأكَّد لنا أن نَظْرَتَه لم تكن تَغْفُلُ عن تَأْثِير

(1) للتوقف عند تفاصيل ما سنذكر؛ انظر: ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت، 1/ 25، 46، 215، 247.

البِيئَةِ الـمَكانِيَّةِ في الشُّعَراءِ وشِعْرِهم، أَمَّا النَّمُوذَجُ الآخَرُ فهو نموذجُ الثَّعَالِبِيِّ (ت: 429هـ) في كتابه "يتيمة الدَّهْر"[1]، إذ ينطلِقُ في دراستِه أدباءَ عَصْرِه؛ القَرْنِ الرابِعِ الـهجْرِيِّ وأوائلِ الخامِسِ، من أُسُسٍ تَعْتَمِدُ التَّوزِيعَ الإقْلِيمِيَّ الجُغْرافِيَّ لهم، فهناك جُزْءٌ لِلشامِ ومِصْرَ والـموْصِلِ، وجُزْءٌ للعِراقِ، وجُزْءٌ لأهْلِ الجِبالِ وفارِسَ وجُرْجانَ وطَبَرِسْتَانَ، وجُزْءٌ لخُراسانَ وبِلادِ ما وَراءِ النَّهْرِ، وهكذا؛ لِيعْكِسَ الوَعْيَ الـمُبَكِّرَ بالصِّلَةِ الوَطِيدَةِ التي تَجْمَعُ بين الفَنَّانِ و«الوَسَطِ» الذي يَنْشَأُ فِيه.

لَئِنْ كان كُلُّ هذا يَدْفَعُنا إلى وَصْفِ مَوقِفٍ ضيفٍ إزاءَ ما خَلَّفَهُ نقَّادُنا العَرَبُ بالوُضُوحِ والإِبانَةِ؛ فإن وَصْفَ الـمَدْخَلِ الذي اتَّخَذَه لِتبْرِيرِ مَوقِفِه سيكون على العَكْسِ من ذلك، وإن كان يَغْلِبُ على الظَّنِّ أنه قد تَوَسَّل أثْناءَ ذلك بِثَلاثَةِ طُرُقٍ؛ **الطريقُ الأوَّلُ**: قِوامُه مُقَارَبَةُ مُصْطَلَحِ «الـمَنْهَجِ» في حُضورِه «الـمُعْجَمِيِّ»، ولـمَّا كانت الـمَعاجِمُ العَرَبِيَّةُ في عَرْضِها هذه اللَّفْظَةَ تَمْنَحُنا دِلالاتٍ تَكَادُ تَدُورُ حَوْلَ: "السبِيلِ" و"الوُضوحِ" و"البَيانِ"[2]، وهي تَتَحَقَّقُ على نَحْوٍ من الأَنْحاءِ في الأبْحاثِ النَّقْدِيَّةِ العَرَبِيَّةِ القَدِيمَةِ؛ فإنَّه مِن الـمَنْطِقِيِّ الإقْرارُ بِأنَّ الـمَنْهَجَ كان حاضِرًا لا غائِبًا، أما **الطَّرِيقُ الثاني**: فَيَظْهَرُ فيه اسْتِدْعاءُ الـمُصْطلَحِ بِمَفْهُومِه التُّراثِيِّ داخِلَ حُقُولِ الـمَعْرِفَةِ الـمُخْتَلِفَةِ؛ إذ شاعَ في هذه السِّياقاتِ لا بِمَعْنًى خاصٍّ يُعَرْقِلُ اتِّساعَه وإنما بِمَعْنًى عامٍّ يبدو

(1) انظر: الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1956م، 1/ 21، 22؛ على سبيل التمثيل.

(2) راجع: ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص4554، 4555.

مُتَّكِئًا على دَلالته الـمُعْجَمِيَّةِ الأوَّلِيَّةِ دون كثيرِ انْحِرافٍ أو تَطوُّرٍ[1]، أما **الطَّرِيقُ الثالِثُ**: فتَبْرُزُ فيه أَداةُ «السَّبْرِ»[2] لِما عساه أَهَّلَ الـمَناهِجَ النَّقْدِيَّةَ لِتَظْفَرَ بِهذا الوَصْفِ، وهي عَمِلِيَّةٌ قد تَمَّ الكَشْفُ عن نَتِيجَتِها من وِجْهَةِ نَظَرِنا حين قَرَّرَ الناقد أن الـمَناهِجَ التي وُضِعَت لِلأدَبِ، قَدِيمِها وحَدِيثِها، لا تَعْدُو غايَتُها

(1) يمكن هنا، على سبيل التمثيل، أن نتوقف عند نَصَّيْن ينتميان إلى سياقاتٍ مختلفةٍ وأزْمِنَةٍ متغايِرَةٍ، في حين يكشف التعاملُ مع اللفظة أنه لم يَنْحَرِف بها دلاليا أو يُضْفِي عَلَيْها صِبْغَة اصْطِلاحِيَّة مُعَيَّنَة، الأول للجرجاني الـمشْرِقِيِّ أثناء دفاعه عن بعض تعقيدات الـمتنبي، يقول فيه: "ومتى وجدتك تحتمل للفرزدق قوله.. ولا تسلك بأبي الطيب هذا الـمسلك، وتحمله على هذا الـمنهج علمت أنك متعصب مائل، ومتحامل جائر"، انظر: علي بن عبد العزيز الجرجاني: الوساطة بين الـمتنبي وخصومه، ص*345*؛ باختصار، وهي هنا بحسبنا تُوَجَّه إلى أحدِ احتمالين، كلٌّ منهما يُؤَكِّد هذا الزعم، فإمَّا أنها- وهو أرجح نظرًا للأبيات التي حَذَفْناها اخْتِصارًا- تقصد إلى طريقَةِ الفرزْدَق في القَوْلِ وتصرُّفِه في التعبير، وكأنها حينها تَتَرادَف مع الـمذْهَب أو الاتِّجاه، وإما أن تكون قاصدَةً إلى طريقة الخَصْم في التَّعامُل مع تَعْقِيدِ كلٍّ مِن الشَّاعِرَيْن بميزانٍ ليس مُسْتَتِبَّ الوَتِيرَةِ، والنَّص الآخر لابن الأزرق المغربي (ت: *896*هـ) في ميدان السياسة الشرعية، أو بالأحْرَى علم الاجتماع السياسي، يقول فيه: "..الركن التاسع: رعاية السياسة، وللنظر فيها منهجان، أحدهما بحسب الـمعتمد منها عقلا، والآخر من جهة الـمعتبر منها شرعا.."، انظر: ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الـملك، مكتبة الأسرة، القاهرة، *2007*م، ص*140*، وهي هنا لا تعدو أن تكون بمعنى الجِهَة أو الطَّرِيقة.

(2) السَّبْر: مصطلح يشير إلى عملية تتْلُو عملية التَّقسيم أو حصرِ الجِهاتِ التي قد تَعودُ إليها العِلَّة في الحُكم والوَصْفِ، وجوهره اختبار هذه الجهات واحدةً يَتْلُوَ الأخرى، فإذا انْتَقَضَ بعضُها تعيَّن وانْحَصَرَ في الباقية، وقد جَعَلَه الغَزَّالِيُّ (ت: *505*هـ) أحدَ الـموازين الخمسة للعقليَّات التي بها يُتَوَصَّل أثناء الـمناظرة إلى إثبات حُكْمٍ أو إبطال دَعْوَى، وربما عَرَض له تحت اسم "التَّعانُد"، وهو يكافِئُ عند الـمناطقة ما يعرف باسم "القياس الشرطي الـمنفصل"، الـمتكون من مقدمة تحتوي على قضيتين متنافِرَتَيْن، أو ربما أكثر، على نحوٍ يلزم من نَفْيِ إحداهما إثبات الأخرى، وهذا هو دَوْرُ الـمقَدِّمَةِ الثَّانِية، لتنتج من ثم النتيجة، انظر: الغَزَّالي (أبو حامد): أساس القياس، تحقيق: فهد محمد السدحان، مكتبة العبيكان، الرياض، *1993*م، ص*20*- *24*، *31*.

التَّوضيحَ والتَّقْويمَ(1)، فيَبيتُ مَقْبُولا حِينئذٍ أن تُعَدَّ الطَّرِيقَةُ التي استَشْرَفَ بها نُقَّادُنا القُدَمَاءُ الشعرَ والشعراءَ مَنْهَجًا مِن المَناهجِ؛ لأنَّها تَعَامَلَتْ مَعَهما مُنْفَعِلَةً بالغاياتِ نَفسِها، وأقْصِدُ أنها كانَتْ تَرْنُو إلى التَّوْضيحِ تارَةً، أو إلى التَّقْويمِ تارَةً أُخْرى، أو لِكِلَيْهِما.

إنَّ هذه الطُّرُقَ، وإنْ تَكنْ لم تُخْتَطَّ كِتابِيًّا؛ قدْ دَفَعَ إلى الظَّنِّ في كَونِها سُلِكَتْ على الـمُسْتَوى الذِّهْنِيِّ- مَعْرِفَتُنا بعُزُوفِ النَّاقِدِ عن اعْتمَادِ طَرِيقَةِ «التَّعْرِيفِ» فِيما يَسْتَعرِضُ من مُصْطَلَحاتٍ، بلْ كذَلكَ انْتِقادُه اللاذِعُ لِلْعَقْلِيَّةِ التي تَرْكَنُ في بَحْثِها إلى هذهِ الآلِيَّةِ؛ وَاصِفًا ذلك بِأنَّه انْشِغالٌ بِفَلْسَفَةِ الحَقائِقِ قبْلَ الانْشِغالِ بالحَقائقِ نفْسِها، ومُؤكِّدًا على أنَّ الجانِبَ الذي يُمْكِنُنا الاطْمِئنَانُ إليه في البَحْثِ، حَتَّى لو كان في الـمَعْنَوِيَّاتِ، إنما هُو الجانبُ التَّجْريبيُّ، الذِي يَتَأسَّسُ على التَّحْلِيلِ ورَدِّ الأُمُورِ إلى عَناصِرِها الأَوَّلِيَّةِ البَسِيطَةِ ومَوَادِّهَا التِي يَتَأَلَّفُ مِنها، إذْ بِهَذهِ الطَّرِيقَةِ يَتِمُّ الاقْتِرابُ مِن مَاهِيَّةِ الأَشيَاءِ والتَّعْلِيلِ والرَّبْطِ بينَ الأَفْكَارِ(2)، وهُو إذْ يَعْدِلُ هُنا عنْ التَّعْرِيفِ والتَّحْلِيلِ كِلِيهِما أَثناءَ عَرْضِ الـمُصْطَلَحِ؛ فلا يُتَوقَّعُ أنْ يَكُونَ ذَلك قدْ تَمَّ أَيضًا دُونَ أنْ يَتَّصِلَ بِحُضُورِه الـمُعْجَمِيِّ أو العُرْفِيِّ أو التُّراثِيِّ؛ لِيَتجنَّبَ فَشَلا مُحققًا كان في انْتِظارِه إذا حاولَ التَّنْقِيبَ عن مَنْهَجٍ عَرَبِيٍّ قَدِيمٍ يَتَلاقَى معَ الـمَنَاهِجِ الحَدِيثَةِ في خَصائِصِها الشَّكْلِيَّةِ والـمَوضُوعِيَّةِ، ويَتَحاشَى، باطِّراحِه «الـمَشْهَدَ النِّهائِيَّ» لَها وهو يُفَتِّشُ عن مِعْيارِ ما يَصِحُّ أنْ يَكُونَ مَنهَجًا، مُغالَطَةَ مُحاكَمَةِ الـمَورُوثِ العَرَبِيِّ

(1) انظر: شوقي ضيف: البحث الأدبي، ص145، وفي النقد الأدبي، ص9، 46.

(2) انظر: شوقي ضيف: في الأدب والنقد، ص29، 30، 50، 76.

النَّقْدِيِّ إليها ؛ وباخْتِصارٍ لقد وجَدَ فيها «بَدِيلا» مُرِيحًا يَرْتَكِنُ إليه ، لِيَتَّخِذَ مِن الشَّراكَةِ الـمُتَحَقِّقَةِ فيها مُسَوِّغًا.

الحَقُّ أَنَّ هذا التَّوصِيفَ الفَائِتَ لِمَوقِفِ النَّاقِدِ مِن الـمَورُوثِ العَرَبِيِّ النَّقْدِيِّ وعَلاقَتِه بالـمَنهَجِ يَعوقُه **مُعَوِّقانِ ؛ الأَوَّلُ**: يَتولَّدُ عن تَأَمُّلِ رَأيِه الـمُنتَقِدِ انْشِغَالَ الـمَباحِثِ العَرَبِيَّةِ بالنَّظْرَةِ «الجُزْئِيَّةِ» وعَدَمِ تَخْلِيفِها نَظَرِيَّةً أو ما يُشْبِه النَّظَرِيَّةَ[1] ؛ إذْ قد يُظَنُّ أَنَّ هذا يَصْطَدِمُ مع القَولِ بِحُضُورِ الـمَنْهَجِ في مَباحِثِهم، والواقِعُ أَنَّه ظَنٌّ لا يَجِدُ سَبِيلا إلى الأَذْهَانِ إلا إذَا تَعامَلَتْ معَ حَقِيقَةِ الـمَنْهَجِ على أنها لا تَخْضَعُ لِفِكْرَةِ الأَصْلِ والفَرْعِ، بالـمَعنَى الذِي يَتَرَادَفُ به ذَهابُ البَعْضِ مع ذَهاب الكُلِّ، وإلا إذا غَفَلَتْ عن طَبِيعَةِ الـمَدْخَلِ الذِي حَقَّقَ مُرُونَةً لِلمَفهُومِ، كما مر بنا، بِحَيث يُمكِن أَنْ نَعُدَّ مُطْلَقَ السَّيرِ مَنهجًا، حَتى إذَا افتَرَضْنا، في أسْوإِ الأَحْوَالِ، أَنَّه خَالٍ مِن التَّرَابُطِ الـمُتَرَاتِبِ الجَلِيِّ بَينَ خُطُواتِه أو التَّماسُكِ بين مُفْرَداتِه، أَمَّا الـمُعَوِّقُ **الآخَرُ**: فَيَتولَّدُ عن نَفْيِه

(1) انظر: شوقي ضيف: في النقد الأدبي، ص31. وربما يذكرنا تطرُّق ضيف لمسألة النظرة الجزئية، التي تمتع بها العرب في أبحاثهم، ما مَرَّ بنا من حديث عن زعم الـمستشرق جب عَجْزَ العقلية العربية عن إدراك الكليات، بَيْدَ أن ضيفًا هنا لا يرتِّب على حديثه ما يفهم به هذا أو شيء منه، بدليلِ أنه يقرِّر، في الصفحة نفسها، أن العرب خَلَّفوا تراثًا ضَخْمًا في خصائص الكلمات والعبارات الأدبية، غير أنه يسجل عليه اتصاله بالبلاغة أكثرَ من النقد، وكذلك تركوا كثيرا من الأحكام العامة، غيرَ أنها بحسبه تجري في جُمَلٍ مُرَكَّزَةٍ قَلَّما تُحَلَّل، ويستثني عبدَ القاهر الجرجاني من سياق حكمه الفائت على طبيعة الـملاحظات، وإن كان يصنِّف جهودَه هو الآخر في ميدان البلاغة لا النقدِ الخَالِص، فالـمسألة عنده إذن لم تكن مسألة جنسٍ شرقيٍّ أو عقلٍ شرقيٍّ كما هي عند جب، وإنما كانت فيما يظهر مجردَ ملاحظةٍ مفادها أن هذه الـممارسات قد تَشَكَّلت في مُناخٍ لم يَتَوَاءَم والرُّوحَ الفلسفيَّةَ، تلك الرُّوح الـمسَلِّطَةُ على بَعْثِ النَّظَرِيَّات من رَقْدَتِها وكُمُونِها.

الصَّرِيحِ وُجُودَ مَنهجٍ في بَعضِ الكُتُبِ النَّقدِيَّةِ القَدِيمَةِ، مِثلِ قَولِه الذِي مَرَّ بنا عن كِتَابِ "العُمدَةِ" لابنِ رَشِيقٍ: "ليس في كتاب العمدة منهج في دراسة الشعر العربي.."[1]، وهو قَولٌ يجبُ أن يُفهَمَ في سِياقِه الخَاصِّ، وما تَقتَضِيه عَمَلِيَّةُ تَقيِيمِ كِتابٍ نَقديٍّ في ضَوْءِ مُوازَنَةٍ بَيْنَه وبَيْنَ كُتُبٍ سَابِقَةٍ زَعَمَ أَنَّه يَقَعُ دُونها، إذْ يَدْفعُنا هذا إلى الظَّنِّ بِتَحَقُّقِ المَنهَجِ فيها هِي على الأَقَلِّ بِصُورةٍ ما، أو أَنْ يُفهَمَ مِن نَفْيِ المَنهجِ نَفيُ النَّظْرَةِ العامَّةِ الكُلِّيَّةِ للفَنِّ، وربُّما يَدُلُّ على ذَلكَ قَولُ ضيفٍ: "..لم ينظر في صناعة الشعر ونقده نظرة عامة شاملة، وإنما هي نظرات جزئية"[2]، وَساعَتَها نَسْتَدْعِي مُعالجَتَنا السَّابقَةَ؛ نَظَرًا للتَّداخُلِ الكَائنِ بَينهمَا في هَذهِ الحَالَةِ، ويَنبغِي هنا أنْ نَظَلَّ مُتَذكِّرِين ما مَرَّ بنا في الفَصْلِ المُنْصَرِمِ مِن أَنَّه عَادَ بأَخرَةٍ فَأجْرَى تَعدِيلا عَلى حُكْمِه؛ ذلكَ حِينَ سَجَّل رأيَه فِي أَسبَابِ انتِشَارِ كِتَابِ العُمدةِ في الآفَاقِ، فكان مِنها بحسْبِ تَفْسِيراتِه دِقَّةُ المَنهَجِ الذِي اتَّبَعَه ابنُ رَشِيقٍ في تَأْلِيفِ الكِتابِ[3]، إذ يُستَسَاغُ تَأْسِيسًا على هذا قَولُنا إنَّه إذا كانَ اخْتِصاصُ هذه الصُّورةِ المُلْتَقَطَةِ به وحْدَه دَلِيلا، بمفْهُومِ المُخَالَفةِ، على تَبَايُنِ نَظْرَتِه إلى بَقِيَّةِ النُّقَّادِ الآخَرِينَ، فإنَّ تَعْدِيلَه أَحكَامَه على هذا النحو لدَلِيلٌ آخَرُ أَشَدُّ وُضوحًا وأَكْثَرُ قُوَّةً.

---

(1) شوقي ضيف: في الأدب والنقد، ص123.

(2) شوقي ضيف: النقد، ص118، وانظر أيضا له: في الأدب والنقد، ص122.

(3) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 9/ 187. وراجع: البحث الحالي، ص155- 163.

- 2 /4 -

قراءة الشعر: شرحه

مُتأمِّلُ الطَّرِيقَةِ التِي اتَّبَعَهَا النَّاقدُ أثْناءَ قِراءتِه الشِّعرَ العَرَبِيَّ يَجِدُها تَتَلاقَى، في كَثيرٍ مِن جَوانِبِها، مع ما كانَ يَقُومُ به نُقَّادُنا العَرَبُ القُدَماءُ في مَيدانِ شَرْحِ الشِّعْرِ وتَفسِيرِ مَعَانِيهِ(1)، بلْ يَجِدُها كذلكَ مُوَزَّعَةً على الصُّوَرِ الثَّلاثَةِ التي وُزِّعتْ عَليها تِلكَ الشُّرُوحُ؛ مِن شَرْحٍ مَجازِيٍّ وبَاطِنِيٍّ ولُغَوِيٍّ. يَهْتَمُّ «الشَّرْحُ المَجازِيُّ» بالمَعَانِي غيرِ الحَقِيقِيَّةِ المُضَمَّنَةِ في الشِّعرِ، التي يَلجَأُ إليها الشَّاعِرُ لِيستَكْمِلَ عَمَلِيَّاتِ نَقْلِ عَالَمِه الخاصِّ؛ الشُّعُورِيِّ والعَقْلِيِّ، عِندَما يَجِدُ نَسَقَ اللُّغَةِ المُباشِرَ أو البَسِيطَ قد ناءَ بِحَمْلِ رُؤيتِه عنْ الكَونِ والحَياةِ والإنْسانِ، وما تَحُسُّه نَفْسُه المُرْهَفَةُ إزاءَ الأَشْياءِ، حَتَّى المُتَنافِرَةِ منها، من تَجانُسٍ وتَناغُمٍ، وطَبِيعِيٌّ أنْ يَصْطَحِبَ هذا الشَّارِحُ أَثْناءَ

(1) تفرِّق بعضُ الكتب بين مُصْطَلَحَي: التفسير والشرح، من حيث إن الشَّرْحَ لا يعدو أن يكون إزالة العُجْمَةِ عن المفْرَدَة بمفردة أو أكثر، في حين ينطوي التفسير على عملياتٍ أخرى تجعله أقربَ إلى إعادة الصِّياغة والبناء، بَيْدَ أن العودة إلى الاستخدام الأصلي للَّفظتين يشير إلى التداخل بينهما بصورةٍ كبيرة، فالشَّرح هو "الكَشْف"، أما التفسير فهو "كشف المغطى"، ويغلب على لفظة التفسير أن تُوَظَّف اصطلاحا في ميدان الألفاظ من دون المعاني، وشَرْطُ لفظه أن تكون دلالتُه ظاهرة لا خفية، وغايتُه الإبانة بتعيين مدلول الشيء بما هو أكثر اتضاحا منه، وهي أمور تجعله يقترب جدًّا من مصطلح الشرح، انظر: ابن منظور: لسان العرب، ص2228، 3412، 3413، والشريف الجرجاني: التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، تحقيق: غوستاف فلوجل، 1985م، ص65، والتهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996م، تحقيق فريق عمل بإشراف: رفيق العجم، 1/491 - 494، ويظهر أن ناقدنا كان ممن يسوُّون بين اللفظين في الاستعمال، بدليلِ أنه يقرِن بينهما أثناء تصنيف الجهود العربية النقدية القديمة، وقد ارتأينا إجرائيا أن نحتذيه؛ إذ لا ضير وقتيًّا من ذلك إذا كانت البغية هي مجردَ الاقتراب من المبادئ والممارسات التي كان يتبنَّاها.

قِيامِه بِمَهَمَّتِه الكُتُبَ المَعْنِيَّةَ بِعِلْمِ البَيانِ ومَسائلِه مِن تَشبِيهٍ واستِعارةٍ وكِنايَةٍ؛ ويَذْخَرُ نِتاجُ ناقِدِنا بنَماذِجَ عَديدَةٍ تُمَثِّلُ هذا الاتِّجاهَ، ربَّما كان مِن أَوْضَحِها تلكَ المُخَصَّصَةُ لشُعَراءَ ماهِرِينَ في الجانِبِ التَّصْويرِيِّ، مِن مِثْلِ امْرِئِ القَيْسِ (تُوفِّيَ قَبْلَ الهجرَةِ بِقُرابَةِ مائة عَامٍ)، الذِي قَرَّبَ مَأْخَذَ الكَلامِ؛ فَقَيَّدَ الأوابِدَ وأَجادَ الاسْتِعارَةَ والتَّشْبِيهَ، وهو أوَّلُ مَنْ وَصَفَ المَرأَةَ بالمَها والظِّبا والبِيضِ، بِحَسْبِ نُعُوتِ القُدَماءِ المُلْصَقَةِ به[1]، وابْنِ الرُّومِيِّ (تُوفِّيَ تَقريبًا: 284هـ) المُخلِّفِ في الطَّبيعَةِ والرَّبيعِ لَوْحَاتٍ بَدِيعَةً تُضاهِي، إن لم تَبُزَّ، لَوْحَاتِ الشُّعَراءِ الأنْدَلُسِيِّين الهائِمين بِهِما، والمُبْتَكِرِ أَخْيِلَةً طَرِيفَةً تَسْتَرْفِدُ ثقافاتِ عَصْرِه العَقْلِيَّةَ، والرَّسَّامِ الكارِيكاتُورِيِّ الذي وظَّفَ بِبَراعَةٍ العُيُوبَ الجَسَدِيَّةَ والآفاتِ النَّفْسِيَّةَ في صُوَرِه الشِّعْرِيَّةِ السَّاخِرَةِ[2].

أما «الشَّرْحُ الباطِنِيُّ» فمَعْرُوفٌ أنه يَتَوَفَّرُ، كما يَبْدُو من اسْمِه، على المَعانِي الخَفِيَّةِ للألْفاظِ، ومَرْجِعُ ذلك في الغالِبِ إلى طبيعَةِ المادَّةِ ذاتِها التي يُعالِجُها؛ إذ يَكْثُرُ أن تكونَ صادِرَةً عن بِيئاتٍ تَنْطَوِي على «ثُنائِيَّاتٍ» الخَفاءِ والتَّجَلِّي؛ مِثْلِ بيئةِ الشِّيعَةِ، التي تَتَمَيَّزُ بِتَكْوِينٍ نَفْسِيٍّ مُحْتَفِلٍ بها، لعلَّ أَهَمَّ إِفْرازاتِه ما يحرِصونَ عليه في دِينِهِم من «التَّقِيَّةِ»، وهْي إظْهارُ المَرْءِ خلافَ ما

---

(1) للوقوف على هذا الجانب؛ انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط4، ص14- 17، وتاريخ الأدب العربي، 1/ 253- 257، 261- 264.

(2) للوقوف على المواطن التي تناول فيها ناقدنا هذا الجانب من صناعة ابن الرومي؛ انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط4، ص205- 214، وتاريخ الأدب العربي، 4/ 315- 317، 319- 322، 8/ 100، والشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، 1977م، ص102- 104، 122، 124.

يُبْطِنُ، ومِثْلِ بيئةِ الصُّوفِيَّةِ الذين انْغَمَسوا في لُجَجِ عالَـمٍ آخَرَ غَيْرِ الـمَعِيشِ؛ يُسَمُّونَه «عالَـمَ الحقائِقِ»؛ حتى لَتَجِدَ أَحَدَهم غائِبًا حالَ حَضْرَتِه حاضرًا حالَ غَيْبَتِه! ولذا فإن الشَّرْحَ في هذه المَواطِنِ دائمًا كان يَنْطَلِقُ من قَناعَةٍ قِوامُها أن النَّصَّ وَرَقَةٌ لها صَفْحَتان؛ إحْداهُما سَطْحِيَّةٌ هي التي يُصافِحُها النَّاسُ؛ كلُّ الناسِ، والأُخْرى- وهي طِلْبَتُه- عَميقَةٌ لا يَنْفُذُ إليها إلا الخَواصُّ، وعلى سبيل التمثيل، يُمْكِنُ أن نُحِيلَ هنا على دراسةِ النَّاقِدِ شِعْرَ ابنِ الفارِضِ الصُّوفِيِّ (ت: 632هـ)؛ فالشَّاعر، بِحَسْبِها، كان إذا ما سَمَّى لنا مَحْبُوبَتَه "نُعْمًا" يَقْصِدُ إلى "الذَّاتِ الإلهيَّةِ"، ويُرِيدُ إلى "الائْتِلافِ" إذا دَعا على نَفْسِه "بالإِتْلافِ"، بالنَّظَرِ إلى أن الإِتْلافَ سَبيلٌ مُوَصِّلَةٌ إلى مُرادِه، ويَسْتَعْمِلُ "السُّكْرَ" و"الصَّحْوَ" لا بِمَعْناهما، وإنما لِلدَّلالَةِ على ما يُعالِجُه الـمُتَصَوِّفُ من شُهُودِ «الحَضْرَةِ الإلهيَّةِ» والغِيابِ عنها[1].

لكنَّ الشَّيءَ الذي يُلْحَظُ بِوُضوحٍ هو أَنَّ هذه الصُّورَةَ من الشَّرْحِ كانتْ **خافِتَةً جدًّا في نماذِجِ الشِّعْرِ الشِّيعيِّ**، لِدَرَجَةِ الانْمِحاء أَحْيانًا، وربَّما كان يُمكِن تَفْسِيرُ ذلك بادِيَ الرَّأْيِ بالاسْتِنادِ إلى عَدَمِ تَخْصِيصِه مِساحَةً مُسْتَقِلَّةً في أَبْحاثِه ودِراساتِه لِهذا الشِّعْرِ، إلا فيما قَلَّ، واكتفائِه بالتَّعرُّضِ له في سِياقِ سِلْسِلَةِ تاريخِ الأَدَبِ، وبِلَفْظٍ آخَرَ شارِحٍ: لَقَدْ كان يَعْرِضُ إليه غالِبًا بوصْفِه امْتِدادًا للشعرِ العَرَبِيِّ العَامِّ، بِسَبَبِ تقاطُعِهما في الأَغْراضِ والفَنِّيَّاتِ؛ فكان مُرْتَقَبًا أن يَقِلَّ التَّرْكِيزُ على طبيعَةِ تَشْكِيلِه الخاصَّةِ، وإن كانت الحالاتُ القَلِيلَةُ التي

(1) حول اتخاذ شعر ابن الفارض الغزلَ العذري رمزا لفنائه الصوفي، وأيضا اتخاذه من الخمر وما يصحبها من حالات رمزا لهذا الحب؛ انظر: شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص209، 228، وتاريخ الأدب العربي، 7/ 357- 361.

اسْتَقَلَّتْ في الدَّرْسِ وظَلَّتْ رَغْمَ هذا بِمَبْعَدَةٍ عن مُنطَلَقاتِه وآلِيَّاتِه- سَتَبْقَى في حاجةٍ هي الأُخْرَى إلى تَفْسِيرٍ، الأمْرُ الذي يُمْكِنُ أن نَتَبَلَّغَه إذا عَلِمْنا أن ناقِدَنا قد وَلَجَ إِلَيْها جَمِيعًا من «الـمَدْخَلِ التاريخِيِّ»، بالـمَعْنَى الذي صَنَعَ من الشُّعَراءِ مُجَرَّدَ نَماذِجَ مشخِّصَةٍ لِلإقْليمِ الـمِصْرِيِّ وطَوابِعِه النَّفْسِيَّةِ والفَنِّيَّةِ، ومَهْما قَرَأْنا في حديثِه عن ابْنِ هانِئٍ الأَنْدَلُسِيِّ الحَفِيدِ (تُوُفِّي نحو: 555هـ) أو طلائِعِ بن رُزِّيك (ت: 556هـ) أو القاضِي الجَلِيسِ (ت: 561هـ)، وهم الثلاثة الذين خَصَّهم بِمَقالاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ[1]؛ فلن نَظْفَرَ بأَيَّةِ إشارَةٍ تُقِيمُ صِلَةً بهذا الشَّرْحِ الباطِنِيِّ، وربَّما رأيْنا إيذانًا بذلك في تَكْرَارِ جُمْلَةٍ مائِزَةٍ في عُنْواناتِها جَمِيعًا هي: "دراسات في الشعر الـمصري"، ورَأَينا دليلا ظاهِرًا عليه في إعادَةِ نَشْرِها ضِمْنَ كِتابٍ يَخْتَصُّ بالإقْلِيمِ الـمِصْرِيِّ[2].

حَقًّا يُمْكِنُ أن يَنْهَضَ في وَجْهِ ذَلِكَ أن ناقِدَنا يَتعامَلُ مع الشِّعْرِ الشِّيعِيِّ بِوَصْفِه نِتاجًا مُسْتَقِلا لِفَصِيلَةٍ لها ما يُمَيِّزُها عن غَيْرِها ويُبْرِزُ شَخْصِيَّتَها، على نَحْوِ ما سَنُبَيِّنُ فيما وراءِ الجُزْءِ الحَالِيِّ من سِلْسِلَتِنا، كما يُمْكِنُ أن يَنْهَضَ في وَجْهِه أيضًا الفُروقُ الجَوْهَرِيَّةُ التي يَبْدُو أنها وَقَرَتْ في حِسِّه بينه وبين الشِّعْرِ

(1) لمراجعة ذلك؛ انظر: شوقي ضيف: دراسات في الشعر الـمصري؛ ابن هانئ الصغير [الجزء الأول] (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 28أبريل 1952م، ص13- 16، ودراسات في الشعر الـمصري؛ ابن هانئ الصغير [الجزء الثاني] (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 5مايو 1952م، ص21- 23. ودراسات في الشعر الـمصري؛ طلائع بن رزيك (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 3مارس 1952م، ص11- 15، ودراسات في الشعر الـمصري؛ القاضي الجليس (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 19مايو 1952م، ص16- 19.

(2) لمراجعة أربعة الـمقالات في نشرتها الأخرى، انظر: شوقي ضيف: في الشعر والفكاهة في مصر، دار الـمعارف، القاهرة، 1999م، ص17- 44.

العَرَبِيِّ العامِّ؛ حَتَّى لَيَتَجَنَّبَ الحَديثَ عنه أَثْناءَ كتابه: "الفَنِّ وَمَذاهِبِه في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ"، مُبَرِّرًا غِيابَه هو والشِّعْرِ الصُّوفِيِّ عن الكتابِ بِقَوْلِه: "يلاحظ أننا أهملنا الحديث في هذا الفصل [فصل مصر والمذاهب الفنية] عن ابن الفارض وشعره الصوفي كما أهملنا البوصيري ومدائحه للنبي [ﷺ]، وكذلك أهملنا قبل ذلك الحديث عن الشعر الشيعي في العصر الفاطمي؛ لأن هذا الكتاب لا يعنى بالشعر الشيعي والصوفي، إنما يعنى بالشعر العربي العام"[(1)]، بَيْدَ أن ذلك لا يَلْبَثُ أن يَتَلاشَى حين نَكْتَشِفُ أن **هذه التَّصَوُّراتِ لم تَتَّخِذْ منها سلسلةُ تاريخ الأدبِ مُنْطَلَقاتٍ** تَدْفَعُ بها نَحْوَ تَبَنِّي آلِيَّاتٍ مُغايِرَةٍ لارْتِشافِ لُغَتِه الخاصَّةِ، لاسِيَّما في حالَةِ شعراءِ الشِّيعَةِ؛ أَسْهَمَ في هذا أنها كانت أحْيانًا تَعْرِض لِشاعرٍ منهم، في حين يُسْتَدْرَجُ الخِطابُ النَّقْدِيُّ إلى مُنْعَطَفاتٍ أُخْرى، فَيُفْرِزُ أَحْكامًا نَقْدِيَّةً تُنْسِينا ما سيق له؛ لاتِّصالِها بِفَنِّيَّاتِ شِعْرِه العَامِّ وأغْراضِه الـمُشْتَهِرَةِ تارَةً وأَخْلاقِيَّاتِه تارَةً أخرى[(2)].

لَيْسَ هذا هو كلَّ ما يُمْكِن أن يُقالَ عن **الـمُجافاةِ بين ناقِدِنا والشَّرْحِ الباطِنِيِّ**، فحَتَّى فيما يَخُصُّ **الشِّعْرَ الصُّوفِيَّ** نَجِدُ مَوْقِفَه من تَوْظِيفِ إجراءاتِه يَتَّصِفُ بالحَيْطَةِ والتَّحَفُّظِ، يَتَجلَّى هذا في تَحْذِيراتِه من التَّوَسُّعِ في صَرْفِ الأبياتِ عن ظاهِرِها، ورَمْيِه مَسْلَكَ النابُلْسِيِّ (ت: 1143هـ) «التَّأْوِيلِيِّ» في شَرْحِ أبياتِ ابنِ الفارِضِ بالـمُبالَغَةِ؛ معلّلا ذلك بِغِيابِ القَرِينَةِ التي تُسَوِّغُ له، وانْعِدامِ الصِّلَةِ بِصَنِيعِه أَحْيانًا بين الـمَعانِي الجَدِيدَةِ التي يَسْتَخْرِجُها والدِّلالَةِ

---

(1) انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط4، ص491 (هامش)؛ بتصرف.

(2) على سبيل التمثيل، وبدرجات متفاوتة في الوضوح، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 3/ 318- 326، 4/ 392- 396، 5/ 375- 378.

اللُّغَوِيَّةِ الأصْلِيَّةِ، ويَبْلُغُ الأمر مَبْلَغَ المُفاصَلَةِ حين يَقِفُ ناقِدُنا عند بيتِ ابْنِ الفارِضِ القائِلِ:

سَـــائِقَ الأَظْعَـــانِ يَطْـــوِي البِيـــدَ طَـــيّ
مُنْعِمًـــا عَـــرِّجْ عَلَـــى كُثْبَـــانِ طَـــيّ

إذ يُعرِّضُ أثناءَ تَعْلِيقِهِ عليه بِشَرْحِ النابُلْسِيِّ الذي يُحَمِّلُ النَّصَّ ما لا يَحْتَمِلُ في رَأْيِه؛ يقول ناقدنا: "وظاهر البيت أن ابن الفارض يخاطب سائق الأظعان المتجه إلى منازل طي، على حافة نجد والحجاز ليتمهل قليلا حتى يحيي من يمر بهم، استرواحا منه للحي العطر وأهله. وهو بذلك يريد أن يعبر عن حنينه المستعر في قلبه للحجاز مهبط فتوحه، أما أن الأظعان والهوادج هي الناس والسائق هو الله والكثبان هي المقامات المحمدية[1]، فأكبر الظن أن ذلك كله لم يجر شيء منه في خيال ابن الفارض، وليس معنى هذا أنه لم يكن متصوفا ولا أن شعره يخلو من الرمز.."[2].

أما «الشَّرْح اللُّغَوِي» فيُمْكِنُ تَمْيِيزُه منهم بِكَوْنِه يَعْتَمِدُ غالِبًا، أَثْناءَ تَقْرِيبِ المَعانِي الكامِنَةِ في الألْفَاظِ الشِّعْرِيَّةِ، على كُتُبِ مَعاجِمِ اللُّغَةِ أو كُتُبِ الغَرِيبِ أو كُتُبِ المُتَرادِفاتِ، أو غَيْرِها من التي حافَظَتْ على الثَّرْوَةِ اللَّفْظِيَّةِ، وبِعِبارَةٍ أُخْرَى: إنه يُعْنَى بالمَعانِي التي تَتَمَيَّزُ بالبَساطَةِ والمُباشَرَةِ والوُضوحِ،

---

(1) يقول النابلسي: "السائق هو الله تعالى، والأظعان الناس، واستعمال السوق لا القود هو لزيادة حثهم للوصول إليه، وكثبان طي كناية عن المقامات المحمدية التي عددها كرمال الكثيب..."، انظر: رشيد بن غالب: شرح ديوان ابن الفارض؛ من شرحي: الشيخ الحسن البوريني والعلامة الشيخ عبد الغني النابلسي، تصحيح: محمد الأسيوطي، المطبعة الخيرية، القاهرة، 1892م، ص17.

(2) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص210.

وليس المَقْصُودُ بِوُضوحِ المَعانِي هنا أنها مَعْرُوفَةٌ مَبْذُولَةٌ؛ بِدَلِيلِ أننا نَحْتاجُ في التَّعَرُّفِ عليها إلى وَسائِطَ؛ وإنما المَقْصُودُ مُخالَفَتُها المَعانِي المَجازِيَّةَ غَيرَ الحَقِيقِيَّةِ التي يَنْشَغِلُ بها البَلاغِيُّون وأَضْرابُهم، والمَعانِي الخَفِيَّةَ التي تَشِيعُ في بيئاتِ الشِّيعَةِ والمُتَصَوِّفَةِ، وإذا أَخَذْنا في قِراءَةِ مَوْرُوثِه، قابَلَتْنا نَماذِجُ كثيرةٌ تَتَوَخَّى خُطَى هذه الصورَةِ من الشَّرْحِ، يُمْكِن التَّمْثِيلُ لها بِصَنِيعِه مع أَبْياتِ الشَّنْفَرَى التي يَقول فيها:

وبَاضِعَةٍ حُمْرِ القِسِيِّ بَعَثْتُها
وَمَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً وَيُشَمَّتِ
خَرَجْنَا مِنَ الوَادِي الَّذي بَيْنَ مِشْعَلٍ
وبَيْنَ الجَبَا، هَيْهَات، أَنْشَأْتُ سُرْبَتِي
أُمَشِّي عَلَى الأَرْضِ التي لَنْ تَضُرُّنِي
لأَنْكِيَ قَوْمًا أو أُصَادِفَ حُمَّتِي
أُمَشِّي عَلَى أَيْنِ الغَزَاةِ وبُعْدِها
يُقَرِّبُنِي مِنْهَا رَوَاحِي وَغُدْوَتِي

إذ يقول: ".. ونراه في مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذي سلكوه، وأنهم كانوا راجلين، يقتحمون الصعاب، غير هيابين ولا وجلين.. وهو يعترف في البيت الأول بأنهم قد يرجعون خائبين أو مهزومين من غارتهم أو غزوتهم، ولكن ذلك لا يردهم عن الغزو، بل يدفعهم إليه دفعا، فهم لا يتهيبون الموت ولا وعثاء السفر"[1]، ويكتفي بهذا القَدْر في مَتْن

(1) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 1/ 380، 381؛ باختصار تمثل في حذف أبيات الشنفرى التي أثبتناها قبل هذا النص.

الكِتابِ، وإذ بَقِيَتْ بعضُ مُفْرَداتٍ ذاتِ معانٍ مُسْتَغْلَقَةٍ، أو بالأحرى يغلب على ظنِّه أنها كذلك، بحيث لا يَتِمُّ اتِّصالُ المُتَلَقِّي بالشِّعْرِ اتِّصالا مُبِينًا إلا بَعْدَ تَوضِيحِها- فإنَّ الهوامِشَ الخاصَّةَ بالأَبْياتِ تَقُومُ بهذا الدَّوْرِ على النَّحْوِ الآتِي: "باضعة: قاطعة، ويريد بها رفاقه الصعاليك. بعثتها: غزوت بها. حمر القسي، يقال إنها تحمر لقدميها وطول تعرضها للشمس. يشمت: يخيب ويفشل. مشعل والجبا: موضعان. السربة: الجماعة. أنشأت: أظهرت من مكان بعيد. لن تضرني: لن يخيفني بها شيء. أنكي العدو: أصيب منه. الحمة: المنية. أمشي: إشارة إلى غزوه على رجليه. أين: تعب"[1].

إذا ردَّدْنا النَّظَرَ في هذه الصُّوَرِ الثَّلاثةِ التي تَوَزَّعَتْ عليها كُتُبُ شُروحِ الشِّعْرِ المَوْروثةِ عند أَسْلافِنا وثَنَّيْنا بتفَحُّصِ نَظائِرِها التي قابَلْناها في كِتاباتِ ضيفٍ، تَبَيَّن لنا أَنَّه من المُبَرَّرِ تَخْصِيصُ كَلِمَةٍ تَفْصِيلِيَّةٍ للشَّرْحِ اللُّغَوِيِّ من دونها جَمِيعًا، من حيثُ إنَّه أَقْدَرُ من يَنْهَضُ بالإبانَةِ عن مَواطِنِ التلاقِي ويُبَرِّزُها أَفْضَلَ ما يكون، لأنه، من ناحِيَةٍ، يمثل جُلَّ المَوْرُوثِ التَّطْبِيقِيِّ عند أَسْلافِنا[2]، ومن ناحِيَةٍ ثانِيَةٍ، قد يَتَراءَى في نَظَرِ بَعْضِ نُقَّادِنا المُحْدَثِين سِتَارًا صَفِيقًا أمامَ «التَّذَوُّقِ الجَمالِيِّ» المَأْمُولِ؛ فَيَبِيتُ التَّلاقِي مِرْآةً تَعْكِسُ قَصْدِيَّةَ الاسْتِمْساكِ بهذا النَّهْجِ واسْتِساغَتِه له، ومن ناحِيَةٍ ثالِثَةٍ، لا يُصِيبُه على يَدِ ناقِدِنا تَطَوُّرٌ كَبِيرٌ عن صُورَتِه القَدِيمَةِ، بخلافِ حالَةِ الشَّرْحِ المَجَازِيِّ التي سَيَسْمَح النَّاقِدُ أَثْنَاءَها، كما سَنَرَى فيما بَعْدُ، بالإفادَةِ الوَاسِعَةِ من الرُّؤَى

---

(1) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 1/ 380، 381.

(2) لمراجعة حركة شروح الشعر ونموها ومسيرتها، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 5/ 293، 538، 544- 547، 6/ 84، 85، 90، 7/ 110، 111، 9/ 181، 182.

الوَافِدَةِ الحَدِيثَةِ وما يَصْحَبُها من إجْراءاتٍ، ومن ناحِيَةٍ رابِعَةٍ، أنه يَكَادُ يكون ؛ لو جَرَّبْنا الاستِنْباطَ، «المَآلَ الاضْطِراريَّ» الذي سَيَسُوقُه إليه تَحَفُّظُه أمامَ شَطَحاتِ الشَّرْحِ الباطِنِيِّ، وبِهذا نَتَجَنَّبُ مَخاطِرَ التَمَحُّكِ في إيجادِ صلاتٍ تُحَقِّقُ أغْراضَ الفَصْلِ، في الوَقْتِ الذي نُدْرِكُ سَلَفًا أنَّ الانْفِراجَ سَيَكُونُ باسِطًا سُلْطانَه على مَواطِنَ ليستْ قَلِيلَةً.

- 3 /4 -

اللَّفْظَةُ في سِياقِ الشَّرْحِ اللُّغَوِيِّ

لِنَعُدْ إلى النَّموذَجِ الشِّعْرِيِّ الذي أَنْشَدَه البَحْثُ آنِفًا لِلشَّنْفَرَى، حَتَّى نُذيعَ أنَّ اخْتِيارَه كان في الواقِعِ مُحْتَكِمًا إلى ما يَمْهَدُه لنا من مَجالِ الحَديثِ عن الطَّرِيقَتَيْنِ اللَّتَيْنِ اعْتادَ النَّاقِدُ أن يَسِيرَ عَلَيْهِما في شَرْحِهِ اللُّغَوِيِّ للأَبْياتِ؛ **الطَّرِيقَةُ الأولَى**: تَكْتَفِي بِتَسْجِيلِ مَعانِي الأَلْفاظِ ودَلالَتِها الـمُعْجَمِيَّةِ أو السِّياقِيَّةِ، تارَةً في الهامِشِ وتارَةً في الـمَتْنِ مُلْحَقَةً بالأَبْياتِ، أما **الطَّرِيقَةُ الأخرى**: فتَرْمِي إلى صِياغَةِ عِبارَةٍ أو أكثرَ يُتَرْجَمُ بها الـمَعْنى الكُلِيُّ لِلْبَيْتِ، قد تَأْتِي في مَتْنِ الكِتابِ، سابِقَةً الأبياتَ أو لاحِقَةً بِها، وقد تَأْتِي في الهامِشِ. الـمُلاحَظَةُ الـمَبْدَئِيَّة التي يُمْكِنُ أن نَتَّخِذَها مَدْخَلا لِلحَديثِ عن الطَّرِيقَةِ الأُولى هي أَنَّه لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ أَثْناءها بِذِكْرِ الـمَصْدَرِ الذي يَسْتَنِدُ إليه في تَقْرِيبِ الأَلْفاظِ، هل هو مُعْجَمٌ أو شَرْحٌ آخر أو الحَدْسُ بِوَساطَةِ السِّياقِ..؟ على أن الشَّرْحَ أَحْيانًا كان يَحْمِلُ طَوابِعَ تَدْفَعُنا إلى الظَّنِّ في اعْتِمادِهِ على مَصْدَرٍ بِعَيْنِه مِن دُونِها، ويُمْكِن التَّوَقُّفُ عند نَموذَجَيْن نَظُنُّ أَنَّه كان يَسْتَلْهِمُ فيهما مَعاجِمَ اللُّغَةِ، فَضَّلْنا في الوَقْتِ نَفْسه أن يُمَثِّلَ كلُّ واحِدٍ منهما نَمَطًا من أَنْماطِ التَّعامُلِ مع الـمُعْجَم؛ **يمثِّلُ النَّمُوذَجُ الأولُ** نَمَطًا قِوامُه «النَّسْخُ» و«النَّقْلُ»، وكان مع بَيْتِ يَزِيدِ بنِ الصَّعِقِ الذي يقول فيه:

إذا التَّـــاجِرُ الـــدَّارِيُّ جـــاءَ بِفـــارَةٍ
مِـــنَ الـمِـــسْكِ راحَـــتْ في مَفَـــارِقِهِمْ تَجْـــرِي

إذ يقول في الهامش المخصص له: "الفارة: نافجة المسك"(1)، وليس السَّبَبُ في هذا الظَّنِّ الذي أثْبَتْنَاه هنا ما نَلْمَحُه فحسب من اتِّفاقٍ بين مَنْطُوقِ الشَّرْحِ ومَنْطُوقِ ما جادَتْ به علينا المَعاجِمُ اللُّغَوِيَّةُ العَرَبِيَّةُ القَدِيمَةُ(2)، وإنما كذلك في أنَّه وَقَعَ فيما وَقَعَتْ فيه أثْناءَ تَعْرِيفِها هذه اللَّفْظَةَ، كما هو شَأْنُها أحيانًا مع غَيْرِها، من مَزْلَقِ تَعْرِيفِها بِلَفْظَةٍ لا تَفُكُّ عَنْها عِقَالَ غَرابَتِها بل على العكس تَزِيدُه إحْكَامًا، وما يَتْبَعُ ذلك من اللُّجوءِ إلى «التَّعْرِيفِ الدَّوْرِيِّ»(3)، وهو عَيْبٌ تَحَقَّقَ فيها بِدَرَجَةٍ ما، ومِنْ أشْهَرِ الأمْثِلَة الذَّائِعَةِ له قَوْلُ أبي إسحاقِ

---

(1) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط6، ص124.

(2) للتأكد من تحقق هذا الصنيع في المعاجم اللغوية القديمة، ينظر على سبيل التمثيل: الجوهري: الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984م، ص777، وابن سيده: المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1996م، 3/ 270، وابن منظور: لسان العرب، ص3334، والفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تصحيح: علي أحمد العدوي الهواري، مطبعة التقدم العلمية، القاهرة، 2/ 66، والزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس؛ الجزء الثالث عشر، تحقيق: حسين نصار، مراجعة: عبد الحليم الطحاوي وعبد الستار أحمد فراج، وزارة الإعلام، الكويت، 1974م، ص292. والحق أن تزيُّدنا من ذكر المعاجم هنا لم يكن هدفُه مجرَّدَ التأكد من اتفاق المنطوق، وإنما كذلك الكشف عن أبعاد هذا النمط لدى ناقدنا، إذ إن جُلَّ المعاجم تصرِّح، على ما في المسألة من خلافٍ، بأن الفأرة لا يصير لها هذا المعنى إلا إذا جاءت مهموزة، وربما أكد ذلك أن الجاحظ يعرض لها بوصفها دوَيْبةً تنبعث منها رائحة المسك أو يُستخلَص منها، انظر: الجاحظ: الحيوان، 5/ 301، 304، في حين جاءت رواية ضيفٍ للبيت في الطبعتين مخالفةً لذلك، وباختصار: إن النموذج الحالي يمثل غمطا قوامه لا النقل فحسب بل يشف فيما يبدو عن أنه تم بصورة غير مُدَقَّقٍ فيها.

(3) ننقل هنا من كلام التهانوي قوله: "الدَّوْر عند الحكماء والمتكلمين والصوفية توقف كل من الشيئين على الآخر.. كقولك الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة.."، انظر: التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، 1/ 811؛ باختصار.

الفَارابِيِّ (ت: 350هـ): "الوارِشُ في الطعام مثل الواغِلِ في الشراب.. الواغِل في الشراب مثل الوارِش في الطعام.."![1].

يَشْرَحُ ذلك أَنَّنا طَلَبًا لإزالَةِ الإبْهام رُحْنا نَقْرأُ في مَادَّةِ "نَ فَ جَ"، فَصادَفْنا عَنَتًا حتى ظَفِرْنا بِبُغْيَتِنا، فبعضُ المَعاجِمِ تَبْدو مُكْتَفِيَةً في تَعْرِيفِ النَّافِجَةِ بِأنَّها فَأْرَةُ المِسْكِ! وبَعْضُها يَكْتَفِي بِذِكْرِ أَنَّها مُعَرَّبَةٌ عن "نافه"، وبَعْضُها يُؤكِّدُ أَنَّها عَرَبِيَّةٌ وأَنَّها سُمِّيَتْ بذلك لِنَفَاسَتِها، دون أيِّ تَوْضِيحٍ مَقْبُولٍ لِمَدْلُولِها، وبَعْدَ مُلاقاتِنا هذا الرُّكامَ كلَّه[2] لَقَدْ نَفْهَمُ أخيرًا أن النَّافِجَةَ هي: وِعاءُ المِسْكِ؛ إمَّا الَّذِي في الظَّبْيِ خِلْقَةً وفِطْرَةً وإمَّا الذي عند العَطَّارِ صِناعَةً ومُحاكاةً. لقد كان حَرِيًّا أنْ يَهْنَأَ القارِئُ بِهذه البيانات، دون أن يَضْطَرَّه الناقِدُ إلى مِثْلِ هذا السَّبيلِ غَيْرِ المُعَبَّد، الذي أَكَّدَ أَنَّه لم يَكُن في هذا النَّموذَجِ سِوى وَسِيطٍ؛ **دَوْرُه فَحَسْبُ نَسْخُ الذي في المُعْجَم**، دون أن يُحاوِلَ تَقْرِيبَ اللَّفْظَةِ لِلْمُتَلَقِّي المُعاصِرِ المُنْقَطِعِ عن لُغَةِ الأَدَبِ القَدِيمِ، حَتَّى مع تَسْلِيمِنا بِنِسْبِيَّةِ وَصْفِ الغَرابَةِ الذي يَلْحَقُ اللَّفْظَةَ وخُضوعِه لِمَعاييرَ بِيئِيَّة مُتَغَيِّرَةٍ؛ وإلا فَعَلَيْنا مُواجَهَةُ السُّؤالِ الآتِي: ما فائِدَةُ هامِشٍ يَزُفُّ إلى القارِئِ كَلِمَتَيْنِ غَرِيبَتَينِ بَدَلا من وَاحِدَةٍ كانَتْ في المَتْنِ؟!

---

(1) للمزيد حول التعريف الدوري؛ انظر: أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1982م، ص262، 263.

(2) راجع من المعاجم: الجوهري: الصحاح، ص345، وابن منظور: لسان العرب، ص4492، والفيومي: المصباح المنير، 2/ 133، 134، والزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس؛ الجزء السادس، تحقيق: حسين نصار، مراجعة: جميل سعيد وعبد الستار أحمد فراج، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1969م، ص246.

أمَّا النَّموذَجُ الثانِي : فيُمَثِّل نَمَطًا قِوامُه «التَّفاعُل» و«التَّعايُش»، بما يُوَفِّرُ الناقِدُ له من ذائِقَةٍ مُوجِّهَةٍ وحسٍّ مُرْهَفٍ، وكان مع بيتٍ من موشَّحَةٍ لشِهابِ الدِّين الموْصَلِيِّ يقول فيه :

بِــي مَــنْ حَــوَى الحُــسْنَ كُلَّــه   وَفَــــاقَ غيــــدَ الأَكِلَّـــــةْ

إذ يقول : "الأَكِلَّة هنا : جمع كِلَّة وهي الستر أو لعلها جمع إكليل وهي عصابة تزدان بالجواهر"[1]، إن تَأَمُّلَ هذا النَّمُوذَجِ يَكْشِفُ عن مِقْدارِ ما كان يُوَفِّرُ ضيفٌ لِشَرْحِ الألفاظِ من رِعايَةٍ. فيما نَظُنُّ لَقَدْ سَلَكَ ناقِدُنا الطَّريقَ المَعْهُودَ فجَرَّد الكَلِمَةَ مِن الزِّياداتِ؛ لِيُتَاحَ له الكَشْفُ عنها في المَعاجِمِ، غَيْرَ أن هذا وَحْدَه لم يَكُنْ كافِيًا لإتْمامِ العَمَلِيَّةِ بِنَجاحٍ؛ إذ إن رُكامًا من الألفاظِ التي تَنْتَمِي إلى الأَصْلِ (كَ لَ لَ) تَنُوءُ به صَفَحاتُها[2]، ولذا تَحَتَّمَ على الناقِدِ أن يَعْتَمِدَ على ما لَدَيْه من إمْكاناتٍ لِيَنْخُلَ هذه المادَّةَ ويُغَرْبِلَها، ولكن ماذا لَدَيْه؟ لديه «حَدْسٌ لُغَوِيٌّ» و«حِسٌّ نَقْدِيٌّ»، يَسْتَطِيعُ أن يَنْفُذَ بوساطَتِهما : إلى الغَرَضِ من المُوَشَّحِ، وإلى تَوْظِيفِ مَعْرِفَتِه بأنه يُعارِضُ مُوشَّحًا غَزَلِيًّا لِلْقاضِي الفاضِلِ، وإلى الدِّلالاتِ التي لا تَصْلُحُ أن تَشْغَلَ مَحِلَّ اللَّفْظَةِ فيه، وإلى دِلالاتِ الألْفاظِ

(1) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي، 5 / 334.

(2) انظر على سبيل التمثيل : ابن سيده : المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق : عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م، 6 / 657 - 660، وابن منظور : لسان العرب، ص3917- 3921، والزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس [الجزء الثلاثون]، تحقيق : مصطفى حجازي، مراجعة : أحمد مختار عمر وضاحي عبد الباقي وخالد عبد الكريم جمعة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998م، ص336- 352، وهي صفحات متكاثرة لم تَحْوِ الإشارة إلى هذه اللفظة إلا في موطنٍ واحد سنبينه بعد قليل.

الـمُجاورَةِ لها وما تَتَطَلَّع إليه، وإلى مَعْرِفَةِ أَنَّ هذه اللَّفْظَةَ جَمْعُ تَكْسِيرٍ فلابُدَّ أنها تَبْحَثُ عن مُفْرَدٍ.. أَغْلَبُ الظَّنِّ أنه طَرَقَ هذه الأبوابَ كُلَّها، وساعةَ تَمَّ له ذلك تَمَكَّن من العَوْدَةِ إلى الـمَعاجِمِ؛ **لَكِنْ لا لِيَنْقُلَ هذه الـمَرَّةَ وإنما لِيختبِرَ ويَنْتَقِي**؛ فإذا بِكَلِمَتَيْنِ تَصْلُحانِ، من وِجْهَةِ نَظَرِه، لِتَأْدِيَةِ الـمَعْنَى، فَيَسُوقُهُما في الشَّرْحِ يَتَقَدَّمُ إحداهُما لَفْظَةَ "لَعَلَّ"، محتَفِلا في شَرْحِ النُّصُوصِ بِوَفْرَةِ التَّأْوِيلاتِ، ومُسْتَهْدِفًا تَوْفِيرَ رَحابَةٍ لأُفُقِ الـمُتَلَقِّي، بِتَفْتِيقِه بُذُورَ الاحْتِمالِ الـمُتَكاثِرَةِ وتَصاوِيرَ الـمُدْرَكِ اللامُتَناهِيَةِ.

بَعِيدًا عن أن النَّتائِجَ التي تَمَخَّضَتْ عنها هذه الـمُمارَسَاتُ رُبَّما تَبْدُو غَيْرَ مُتَساوِقَةٍ مع ما تُمْلِيهِ بعضُ نصوصٍ تُراثِيَّةٍ؛ وأَقْصِدُ التي تُشِيرُ إلى أن الأَكِلَّةَ: جَمْعٌ غيرُ قِياسِيٍّ لإِكْلِيلٍ، ولعلَّ أَقْدَمَها نَصٌّ لابْنِ جِنِّيٍّ أثناء تَعْلِيقِه على بيتٍ شِعْرِيٍّ؛ إذ يقول: "ومن فك الصيغة قوله:

قَـدْ دَنَـا الفِـصْحُ فَالوَلائِـدُ يَنْظِمْـ
ـنَ سِـراعًا أَكِلَّـةَ الـمَرْجَانِ

هذا جمع إكليل، فلما حذفت الهمزة وبقيت الكاف ساكنة فتحت، فصار إلى كليل، ليكون كدليل ونحوه، فعليه جاء أكلة، كدليل وأدلة"[1]، وهُو الرَّأْيُ

(1) انظر: ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1957م، 3/ 120، والبيت الذي أنشده ابن جني هو بيت لحسان بن ثابت، رضي الله عنه، من قصيدة يمدح فيها جبلة بن الأيهم، انظر: حسان بن ثابت: ديوانه الشعري، تحقيق: وليد عرفات، دار صادر بيروت، 1971م، 1/ 255، أما مصطلح "فكّ الصِّيغَة" الذي ذكره فيشير، بحسب فهمنا، إلى ما نَهَجَتْ عليه العرب من تصوير كلامها إذا ما حذف حَرْفٌ من اللفظة، أو أيضا إذا زِيدَ، تصويرًا تقبله أمثلتهم ولا يَمُجُّه النَّسَقُ، وكأنهم كانوا يمهدون بذلك لوضع قوالِبَ مستساغة مستقِرَّة للصيغ، انظر: ابن جني: الخصائص، 3/ 111- 121.

الذي راقَ، فيما يَظْهَرُ، لأصْحاب المَعاجِمِ، فَذَهَبُوا يُرَدِّدون أن الأكِلَّةَ جَمْعُ تَكْسِيرٍ لإكْلِيلٍ على غَيْرِ القِياسِ[1]، أقولُ بَعِيدًا عن ذلك كُلِّه، فإنَّ مُمارَساتِ ناقِدِنا مُسْتَطِيعَةٌ أن تَكْشِفَ عن قُدْرَةٍ فائِقَةٍ للقِراءَةِ المُتَفاعِلَةِ مع النَّصِّ ومُفْرَداتِه، وبِمَقْدُورِها أن تُحَدِّدَ لنا إمْكاناتِ العَيْنِ النَّقَّادَةِ النَّافِذَةِ التي تُصافِحُ الخَبْءَ المَكْنونَ فيه، بِتَأْكِيدِها على أن الأَواصِرَ التي بينها وبينه كانت أَقْوَى وأَدَقَّ من أن تُحَجَّمَ بإطارِ مادَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ مُعْجَمِيَّةٍ، وأنها تَمازَجَتْ معه لِتَغْدُو في مَرْحَلَةِ الإفْضاءِ لِسانَه المُفْصِحَ الموَسِّعَ عَطاءاتِه. وفي غَيْرِ هذا المَوْطِنِ، أثناء الحَديثِ عن وَفْرَةِ التَّأْويلاتِ في الشِّعْرِ، يُخَلِّفُ لنا الناقِدُ ملاحَظاتٍ حَوْلَ طبيعَةِ أَلْفاظِ اللُّغَةِ وما تُوجِبُه من إجراءاتٍ إن نَحْنُ أَرَدْنا التَّعَرُّفَ إليها، ربَّما تَلْتَقي بِبَعْضِ ما نُحاوِلُ أن نُجلِّيَه- يَحْسُنُ نَقْلُها، يقول: "وحقا إننا نرجع إلى المعاجم في تفسير الشعر، ولكن لا لكي تعطينا المعنى الدقيق الذي أراد الشاعر، وإنما لتعطينا النواة التي يدور حولها المعنى. ونفس المعاجم تشهد لفكرتنا، فنحن نجد للفظة معاني كثيرة، تقترب وتبتعد من أصل المعنى، كأنه ليس للفظة معنى محدد تماما"[2]!.

على هذا النَّحْوِ الذي مَرَّ بنا؛ في النَّموذَجَيْنِ الفائِتَين كِلَيهما، تَخُطُّ كِتاباتُ الناقِدِ طَرِيقًا مُتَفَهِّمًا طَبِيعَةَ دَوْرِها إزاءَ الكَلِماتِ التي تَعُوقُ الاتِّصالَ المَأْمُولَ بالشِّعْرِ، وهو أَمْرٌ تُعَضِّدُه لا النَّماذِجُ التي ارْتَقَى فيها الحِسُّ أَثْناءَ التَّعامُلِ معها إلى مُسْتَوَياتٍ مُرْهَفَةٍ فَحَسْبُ، وإنما كذلك بِالقَدْرِ نَفْسِه تلك التي

(1) انظر: ابن سيده: المحكم، 6 / 659، وابن منظور: لسان العرب، ص3920، والزبيدي: تاج العروس [الجزء الثلاثون]، ص351.

(2) شوقي ضيف: في النقد الأدبي، ص129.

تَبْدُو فيها غَيْرَ مُحَقِّقَةٍ أَهْدافَ الشَّرْحِ ؛ ولذا لا نَبْتغي سَوْقَ نَماذِجَ جَدِيدَةٍ، إذ بِوُسْعِنا العَوْدَةُ إلى النَّمُوذَجِ الأوَّلِ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ ذلك، عن طَرِيقِ تَسْجيلِ مُلاحَظَةٍ شَكْلِيَّةٍ ذاتِ دَلالَةٍ كَبِيرَةٍ، مُؤَدَّاها أن النَّصَّ الذي يَشْرَحُ لَفْظَةَ "الفارة" لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا في الطَّبْعَةِ الأُولَى لِلْكِتابِ[1]، وبِعِبارَةٍ أُخْرَى مُفَصَّلَةٍ، إنَّ النَّاقِدَ أَحَسَّ بَعْدَ تَقْلِيبِ صَفَحاتِها أنَّ اللَّفْظَةَ كانتْ في حاجَةٍ إلى التَّقْرِيبِ؛ فانْتَهَزَ فُرْصَةَ طِباعَتِها مَرَّةً ثانِيَةً لِيُجْرِيَ تَعْدِيلاتِه، والتي كان شَرْحُه اللُّغَوِيُّ لها أو لِغَيْرِها واحِدًا مِنْ مَحاوِرِها، فالشَّأْنُ إذن ليس في «اسْتِنْساخِ» القَدِيمِ في حُلَّةٍ جَدِيدَةٍ، رُبما يَجِيءُ كُلُّ ما يُشَكِّلُ مَلامِحَ حَداثَتِها ماثِلا في جِدَّةِ الغُلافِ والوَرَقِ والمِدادِ! بل الشَّأْنُ في «التَّبَنِّي» التامِّ لِلأَفْكارِ وتَوْجِيهِ الهِمَّةِ نَحْوَ اسْتِدْراكِ النَّقْصِ واسْتِيفاءِ الأَطْرافِ.

(1) انظر: شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأمور، ط1، ص95.

- 4 /4 -

شَرْحٌ لُغَوِيٌّ أَمْ نَثْرٌ لِلْمَنْظُومِ؟

ما مَضَى إلى الآن كان خاصًّا بِالطَّرِيقَةِ الأُولَى الَّتِي اتَّبَعَها النَّاقِدُ في شَرْحِ الأبيات شَرْحًا لُغَوِيًّا، أما **الطَّرِيقَةُ الأُخْرَى**؛ الَّتي تَرْمِي إلى صِياغَةِ عِبارَةٍ أو أَكْثَرَ يُتَرْجَمُ بها المَعْنَى الكُلِّيُّ لِلْبَيْتِ، في مَتْنِ الكِتابِ، تَسْبِقُ الأَبْياتَ أو تَلْحَقُ بها، أو في الهامِشِ- فإنَّه لا يَهُمُّنا تَتَبُّعُ نَماذِجِها؛ إذ كَثْرَتُها تُغْنِي عَنْ مِثْلِ هذا الصَّنِيعِ، الذي يَبْدُو مُضَيِّعًا الجُهْدَ دون طائِلٍ، بِقَدْرِ ما يَهُمُّنا بَيانُ كَيْفَ كانَتْ هذه الطَّرِيقَةُ بِتَفَشِّيها في نِتاجِ النَّاقِدِ سَبَبًا، فِيما نَظُنُّ، لِما نَلْمَحُه من الْتِقاءِ الشَّرْحِ أَحْيانًا مع ما وَرِثْناهُ عن أَسْلافِنا في باب «**نَثْرِ المَنْظُومِ**» أو «**حَلِّهِ**»، لا فَحَسْبُ من جِهَةِ الغايَةِ والأَهْدافِ، وإنما كذلك من جِهَةِ الأَصْباغِ التي كانَتْ تَصْبغُ الكُتُبَ المَعْنِيَّةَ بِهذا الشَّأْنِ، ونَكْتَفِي هنا بِنَمُوذَجٍ واحِدٍ[1] هو صَنِيعُه مع أَبْياتِ المُتَنَبِّي التي يَقُولُ فِيها:

أَلَذُّ مِنَ المُدامِ الخَنْدَرِيسِ
وأَحْلَى مِنْ مُعَاطَاةِ الكُئُوسِ
مُعَاطَاةُ الصَّفائِحِ والعَوالِي
وإِقْحَامِي خَمِيسًا في خَمِيسِ

إذ يقول ضيف معلّقا: "فألذ إليه من شرب الخمر المعتقة سل السيوف وخوض الحتوف، وإقحام الجيش الكثيف في الجيش الكثيف.."[2].

(1) انظر أيضا: شوقي ضيف: الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، ص147.

(2) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص81.

إن نَظْرَةً فاحِصَةً إلى هذا النَّصِّ، في ضَوْءِ الـمَعْرِفَةِ الـمُتَوَلِّدَةِ عن مُدارَسَةِ ما خَلَّفَ الأَسْلافُ في مَيْدَانِ نَثْرِ الـمَنْظُومِ، سواءٌ أكان مُتَعَلِّقًا بِالنَّظَرِيَّةِ أم بِالتَّطْبِيقِ- لَتُؤَكِّدُ زَعْمَنا حَوْلَ تلاقي الشَّرْحِ به، ويُمْكِنُ تَوْضِيحُ ذلك من ثَلاثَةِ جَوانِبَ؛ **الأَوَّلُ**: إِمْكانِيَّةُ خُضُوعِهِ لِلتَّقْسِيماتِ التي وَضَعَها النُّقَّادُ العَرَبُ القدماء في تَقْرِيبِ هذه الصِّناعَةِ؛ إذ نَلْحَظُ هنا قُرْبَ صِلَتِه من هذا القِسْمِ الذي أَسْمَوْه: "حلَّ الشِّعْرِ بِبَعْضِ لَفْظِه"، وكذَلِكَ مِنَ القِسْمِ الذي أَسْمَوْه: "حلَّ الشِّعْرِ بغيرِ لَفْظِه"؛ وفي هذا السَّبِيلِ ستَلْقانا النُّصوصُ التي خَلَّفَها ابنُ الأَثِيرِ؛ مُبَيِّنًا فيها حُدُودَ هذا الفَنِّ وأُطُرَه العامَّةَ؛ يقول: "حل الشعر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول وهو أدناها مرتبة أن تحل الشعر بلفظه، وهذا لا فضيلة فيه، وقد يجيء منه ما عليه مسحة من جمال وذلك نذر يسير.. حل الشعر بلفظه لا يتمكن من التصرف فيه، وغاية المتصدي له أن يقدم اللفظ ويؤخره.. القسم الثاني في حل الشعر ببعض لفظه، وهذا هو الطريقة الوسطى، وهو عندي أصعب منالا من الطريقة العليا التي هي حل الشعر بغير لفظه.. القسم الثالث في حل الشعر بغير لفظه، وذلك هو الطبقة العليا، وهو أخفى لأمره، فإنه لا يعلم من أين أخذ الناثر، وإن علم كان في موضع الاستحسان لا في موضع الاستهجان.."(1).

(1) ابن الأثير (ضياء الدين): الوشي المرقوم في حل المنظوم، تحقيق: يحيى عبد العظيم، الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة الذخائر)، القاهرة، 2004م، ص184، 187، 232، 247، 311؛ باختصارٍ شديدٍ. والحق أن سبب التردد في إدراج النموذج الحالي تحت أيٍّ من القسمين؛ الثاني أو الثالث، يعود إلينا نحن؛ ذلك أننا نحسُّ تداخلا كبيرا بين الأمثلة المضروبة لهما في هذه المواطن التي أحلنا عليها من كتاب ابن الأثير، في حين قد تمكنا من تمييز القسم الأول منهم.

أما الجَانِبُ الثَّانِي الذي يُوَضِّحُ لنا التَّلاقِي بين صَنِيع ناقِدِنا والـمَوْرُوثِ العَرَبِيِّ فهو: أن النَّاقِدَ يَتَراءَى، في زَعْمِنا، مُسْتَحْضِرًا أَثْناءَ صياغَةِ هذا النَّصِّ بَيْتَين شِعْرِيَّيْن يَقولُ فيهما إسْحاقُ بن خالِدٍ:

لَسَلُّ السُّيوفِ وشَقُّ الصُّفوفِ
وخَوْضُ الحُتُوفِ وضَرْبُ القُلَلْ

أَلَذُّ إلَيهِ مِنَ المُسْمِعَات
وشُرْبِ المُدامَةِ في يَوْمِ طَلّ

يُقَوِّي من زَعمِنا أن شارِحَ دِيوانِ المُتَنَبِّي المَوْسُومِ بِالتِّبْيانِ في شَرْحِ الدِّيوانِ، قَدْ سَاقَهُما أَثْناءَ التَّعْلِيقِ على بَيْتَيِ المُتَنَبِّي الفَائِتَيْنِ(1)، ولأنَّه كِتابٌ تَتَكَرَّرُ

(1) انظر: [مجهول]: التبيان في شرح الديوان (منسوبا في هذه الطبعة إلى أبي البقاء العكبري)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، د.ت، 2/ 191، والبرقوقي (عبد الرحمن): شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986م، 2/ 301. جدير بالذكر أن كتاب التبيان طُبِعَ طبعاتٍ عديدة منسوبا فيها لأبي البقاء العكبري (ت: 616هـ)، بَيْدَ أن بعض الباحثين يشككون في هذه النسبة ويرفضونها، وربما كان أولَ من كَرَّس لهذا الشَّكِّ بصورةٍ علمية منهجية هو المحققُ المشهور مصطفى جواد (ت: 1969م)؛ إذ راحَ، بعد أن أشار المستشرق بلاشير *Blachere* إشارة عجلى إلى المسألة نفسها، يسوقُ الحُجَجَ المتعاضِدَةَ التي تؤكد نفي النسبة للعكبري، وربما كان من أطرفها أن الشارح نقل بخطّه أمالي ابن الشجري في حين كان العكبري كفيفا لا يرى منذ صغره! وبينما رجح في هذا المقال نسبة الشرح إلى أبي عبد الله الحسين بن إبراهيم الشافعي اللغوي الأديب الكُورَانِي الإربِلّي؛ فإنه مالَ في مقال تالٍ إلى أن صاحب الشرح هو أبو الحسن عفيف الدين علي بن عدلان بن حماد بن علي الرَّبْعِي الموْصِلِيّ الضرير، بناء على اكتشاف أدلة جديدة كانت قد ساندت أيضا رأيَه النافي أن يكون العكبري صاحبَه، وهنا يجيء دورُ شاكر الفحام ليستكمل سيناريو قصة الشك في تعيين المؤلف؛ إذ كتب مقالا ينفي فيه نسبة الكتاب إلى العكبري وابن عدلان كليهما، معتمدا على تسعة بنود أو مداخل تشف عن اتصالٍ داخِلِيٍّ بالنص نفسه، كما تستلهم حديث سابقيه، لكن النَّفْيَ هذه المرَّة لم يُشْفَعْ بتعْيين مؤلِّفٍ آخر، بل أُردف فحسب في نهاية المقال بالحثِّ على مزيدٍ =

الإحالَةُ عَلَيْه في مَوْرُوثِ ضيفٍ، فَقَدْ نَظُنُّ أنه قَرَأَ هذا النَّصَّ، لِيَغْدُوَ صَنِيعُه ليسَ شَيْئًا أَكْثَرَ من أَنَّه اسْتَعادَ، بِقَصْدٍ أو بِدُونِ قَصْدٍ، ما تَمَّ اخْتِزانُه، وحِينَئِذٍ لَنْ يَتَجَلَّى حَلُّ المَنْظُومِ من جِهَةٍ واحِدَةٍ بَلْ مِنْ جِهَتَيْن؛ جِهَةِ المادَّةِ التي يَتعامَلُ معها النَّاقِدُ، وجِهَةِ المادَّةِ المُخْتَزَنَةِ التي تَشَكَّلَتْ بِها الصِّياغَةُ. أما **الجانِبُ الثَّالِثُ** فهو: طَلَبُ الجَرْسِ المُوسيقِيِّ، والتَّفْتِيشُ عن السَّجْعَةِ بِوَصْفِها «وَحْدَةً» تُضاهِي وتُكافِئُ وَحْدَةَ قافية البَيْتِ، لِتَتَحَقَّقَ مَقالَتُهم: "الأسجاع في النثر كما في القوافي في الشعر"[1].

عَلى أَنَّ الشَّيءَ الذي يَسْتَوْقِفُنا حَقًّا إِنَّما هو تَبَنِّي النَّاقِدِ آراءً نَقْدِيَّةً حِيالَ هذه الطَّرِيقَةِ تُبْرِزُ **اسْتِهْجانَه**، أو لِنَقُلْ على وَجْهِ الدِّقَّةِ، بِالنَّظَرِ إِلى مَجْمُوعِ النُّصوص، **تَحْيِيدَه تَفَادِيها إلا إذا وُظِّفَتْ في أغْراضٍ تَعْلِيمِيَّةٍ**، يقولُ ضيفٌ: "..الكلام المنثور المبتدأ أوقع من المنثور الذي حول عن الشعر.."[2]، ويَقُولُ عَمَّنْ يُمارِسُ هذه الطَّرِيقَةَ: ".. وكأنما يؤدون ملخصات للقصائد التي ينقدونها.. وهو قد يؤدي حاجة في تعليم الناشئة ولأوساط المثقفين ولكنه لا يؤدي نقدا وتقويما"[3]، ويَقُول بَعْدَ أَنْ ضَمَّ حَلَّ الشِّعْرِ إِلى جِوارِ نَظْمِ النَّثْرِ والاقْتِباسِ والتَّضْمِين: "..وحل الأدباء الشعر ونظموا النثر، وهي اتجاهات لا

=من التنقيب طلبًا للكشف عن هوية الكاتب المجهول، انظر: شاكر محمد الفحام: عودة إلى كتاب التبيان في شرح الديوان (دراسة)، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، عدد نوفمبر 1999م، ص200-213. وتأسيسا على ذلك اكتفينا في الإحالة باسم الكتاب دون اسم المؤلف.

(1) انظر: السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرسالة (بمساعدة جامعة بغداد)، بغداد، 1981م، والنص مثبت هكذا، بحرف الجر "في" قبل لفظة "القوافي".

(2) شوقي ضيف: في الأدب والنقد، ص24.

(3) شوقي ضيف: في النقد الأدبي، ص57؛ باختصار.

تفصح عن مقدرات فنية، إنما تفصح عن تلفيق غريب.."[1]؛ مُنْتقِدًا بذلك الحياةَ الفَنِّيَّةَ بَعْدَ القَرْنِ الثَّالِثِ الهجري، كما مَرَّ بنا أَثْناءَ الحَديثِ عن مُصْطَلَح «التَّصنُّع»، وما يَرْمِي إِلَيْه من تَكَلُّفٍ شَدِيدٍ لا يُغْنِي الفَنَّ بل يَحْدو به نَحْوَ الجُمُودِ والإجْدابِ. وَحَقًّا إنَّ هذه الطَّرِيقَةَ في شَرْحِ ضيفٍ للشِّعْرِ، أو قُلْ في نَثْرِه له، لَمْ تَكُنْ دَيْدَنًا مُتَّبَعًا، وَحَقًّا إنه لا يَبْدُو شَغُوفًا بها، بِمَعْنى أنها تَقَعُ في شَرْحِه اتِّفاقًا، وحَقًّا إِنَّه سَيَكُونُ مِنَ التَّعَسُّفِ اعْتِقادُنا أَنَّ النَّمُوذَجَ الحالِيَّ يَنْهَضُ عَيِّنَةً مُمَثِّلَةً بِأَمانَةٍ خِطابَه النَّقْدِيَّ، لَكِنَّ دَورَها هُنا لِلبَحْثِ في نِهايَةِ المَطافِ لَمْ يَتَعَدَّ مُجَرَّدَ مَنْحِنا أمارَةً على المَدَى الواسِعِ الَّذي بَلَغَه شَرْحُه الأَبْياتَ عن طَرِيقِ صياغَتِها في عِباراتٍ نَثْرِيَّةٍ؛ لأَنَّ وُجُودَها في صياغَتِه؛ مُجرَّدَ وُجودٍ، بالرَّغم من مَوْقِفِه المُتَحَفِّظِ إزاءَها؛ لَيَنْهَضُ دَلِيلا قويًّا على أن إِشْعاعاتِها النَّشِطَةَ كانَتْ أَكْثَرَ نَفاذًا.

---

(1) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط4، ص300.

- 5 /4 -

ماذا قالَ الشَّاعِرُ؟

واضِحٌ إِذَنْ مِن العَرْضِ الـمُنْصَرِمِ أَنَّ هاتَيْن الطَّرِيقَتَين قد تَجْتَمِعان كَمَا في أَبْياتِ الشَّنْفَرَى، وَقَدْ تَنْفَصِلانِ؛ بِحَيْثُ تُؤَدِّي كُلٌّ واحِدَةٍ مِنْهُما على حِدَةٍ دَوْرَها، وَفْقًا لِرُؤْيَةِ النَّاقِدِ الخَاصَّةِ، كما رَأَيْنا في غَيْرِ ذلك مِن النَّماذِجِ، ويعِبارَةٍ مُجْمِلَةٍ: تَغْلِبُ الأُولَى في مَيْدَانِ شَرْحِ الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ القَدِيمِ، أو لِنَقُل على وَجْهِ الدِّقَّةِ الشِّعْرَ الذي تَتَميَّزُ حُقُولُ أَلْفاظِه بِبُعْدِها عن الـمَجالِ الـمَطْرُوقِ لِلْمُتَلَقِّي الـمُعاصِرِ، في حين تَغْلِبُ الأُخْرَى وتَشِيعُ في الـمَواطِنِ الـمُغايِرَةِ، لاسِيَّمَا إذا كان الهَدَفُ من التَّعَرُّضِ لهذه الأبيات هُو الحَدِيثَ عن غَرَضِها الشِّعْرِيِّ أَوْ أَفْكارِها الـمُضَمَّنَةِ أو جَوَانِبِ التَّجْدِيدِ والتَّقْلِيدِ، إلى غَيْرِ ذلك مِنْ قضايا تَجْعَلُ تَقْرِيبَ اللَّفْظَةِ، مِنْ حَيْثُ هو، هَدَفًا فَرْعِيًّا بما يَمْهَدُ لِلأَهْدافِ الغَائِيَّة التي يَبْتَغِيها النَّاقِدُ لِذَاتِها.

في مِثْلِ هذه الأَجْواءِ مِن الطَّبِيعِيِّ أن يَنْصَبَّ الاهْتِمامُ على قَوْلِ الشاعِرِ، وَأَنْ تَخْفُتَ الإشاراتُ إلى فَنِّيَّاتِ أَدائِه أو تَعْبِيرِه، وبِلَفْظٍ آخَرَ: يَطْمَحُ الشَّرْحُ حِينَئِذٍ إلى الإجابَةِ عن سُؤالِ: **«ماذا قالَ الشَّاعِرُ»؟** لا **«كَيْفَ قالَ»؟** يُجَسِّدُ هذا الجُمْلَةُ الـمِحْوَرِيَّةُ الَّتِي نَصُّها: "والشاعر يريد أن يقول" أو ما يَقُومُ مَقامَها، ونَحْنُ نَلْمَحُ هذا بِصِفَةٍ خاصَّةٍ في حالَتَيْن؛ الأُولَى: إذا كان في سِياقِ تأرِيخِه لِلأَدَبِ العَرَبِيِّ، وتَحْدِيدًا في الأَجْزاءِ الـمُتَأَخِّرَةِ، ونَكْتَفِي هنا لِتَأْكِيدِ ذلك وَتَوْضِيحِه بِالإشارَةِ إلى نَتِيجَةِ فَحْصِ عَيِّنَةٍ من شَرْحِه للنُّصوصِ الشِّعْرِيَّةِ، يَبْلُغُ عَدَدُها ثَمَانِيَةً وَسَبْعِينَ نَصًّا، هي مَجْمُوعُ ما يَحْوِيه الجُزْءُ الخَاصُّ بِتَارِيخِ الأَدَبِ في مُورِيتانْيا؛ إذ تَحَقَّقَ فيها جَمِيعِها دون اسْتِثْناءٍ بِنِسْبَةِ مِئَةٍ بِالـمِئَةِ (100٪)،

رَغْمَ إِشاراتِها النَّادِرَةِ إلى الجَماليَّاتِ والفَنِّيَّاتِ- مُحاوَلَةُ تَلْخِيصِ المَضامِينِ والأَفْكَارِ المَبْثُوثَةِ فِي الأَبْياتِ[1]، عن طَرِيقِ الأَفْعالِ الَّتِي تُؤَهِّلُ لإِعادَةِ الحِكايَةِ، تَبَوَّأَ «فِعْلُ القَوْلِ» من بينها مَرْكَزَ الصَّدارَةِ؛ إذ تَكَرَّر في تِسْعَةٍ وخَمْسينَ مَوْضِعًا، أيْ بِنِسْبَةِ خَمْسَةٍ وَسَبْعِينَ وستَّةِ أَجْزاءِ العَشَرَة (75.6٪) من إِجْمالِيِّ النَّماذِجِ المُنْتَخَبَةِ[2].

إن غَلَبَةَ هذا المَنْحَى في حالَةِ **تاريخِ الأَدَبِ** يَعُودُ إلى طَبِيعَةِ السِّلْسِلَةِ ذاتِها وَطَبِيعَةِ الأَهْدافِ الَّتِي كانَتْ تَنْتَوِي تَحْقِيقَها، ولذا لابُدَّ من التَّنَبُّهِ إلى أَنَّهُ سَيَكُونُ مِن الشَّطَطِ مُحاكَمَتُها بِوَصْفِها كِتابًا في النَّقْدِ التَّطْبِيقِيِّ مَثلا، بَلْ لا أَظُنُّه يَخْفَى أَنَّ نَعْتَ هذه العَيِّنَةِ الفائِتَةِ بِأَنَّها شَرْحٌ لِلنُّصوصِ الشِّعْرِيَّةِ لَمْ يَكُنْ سِوَى إِجْراءٍ تَعَسُّفِيٍّ يُسَوِّغُ له التَّجَوُّزُ الرَّامِي إلى تَحَسُّسِ شَغَفِ النَّاقِدِ بِالمَضْمُونِ، وإِنْ كان مِنْ شَيءٍ مُهِمٍّ يَعْنِينا هنا فَهُو تَسْجِيلُ أن **الصُّورَةَ الكُلِّيَّةَ**

(1) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 10/ 569- 611. وقد راعينا أثناء اختيارنا هذه العينة أن تكون منتسبة إلى مرحلة زمنية متأخرة في مسيرة الناقد؛ لما لذلك من أثرٍ على استيعابِ الناقد التجارِب الفائتة والمناهج الحديثة، وأن تكون نصوصها متجاوِرَةً ومتعاوِنَةً في نقل صورة الشعر في إقليم بعينه؛ لما لذلك من أثر على طريقة التناول، من حيث رُجْحَان الظن في توفر الحرص على الإشارة إلى العناصر التي يتألف منها الشعر الجيد كلها؛ من تصوير وعاطفة وفكرة وموسيقى، كما راعينا أن تَحْوِي نصوصًا شعريَّةً قد تدعو إلى العُدُول عن هذه الطريقة في الشرح، من مثل الشعر الصوفي وشعر المديح النبوي (ص598- 609)، اللذَين يُلجِآن الشارح إلى طرائق الاستِبْطان، بما يحتويان عليه من ألفاظ ذاتِ دلالتين؛ سَطْحِيةٍ وعَميقَةٍ.

(2) يمكن الإشارة هنا، حتى نتمم أبعاد الصورة، إلى ملاحظات سامي سليمان حول اهتمام الناقد الدائم بتقديم ملخصات للأعمال المسرحية التي يتعرض لها بالنقد، وتشكيل هذه الملخصات نسبة عالية من حجم كتابته النقدية الكلي، كما يظهر في نموذج مسرحيات أحمد شوقي الشعرية، انظر: سامي سليمان أحمد حفريات نقدية، ص288، 289، 310.

التي كان ضيفٌ مُؤرِّخُ الأَدَبِ يَبْتَغِي رَسْمَها لِلْعَصْرِ أَوْ لِلإِقْلِيمِ كانَتْ تَفْرِضُ هَيْمَنَتَها على جَمِيعِ جُزْئِيَّاتِها، بِحَيْثُ لا يَسْمَحُ لِبَحْثِه الشِّعْرَ وأَغْرَاضَه أو الشُّعَراءَ وشَخْصِيَّاتِهِم، أن يَنْفَصِلَ إلا في حُدُودِ ما يَقُومُ بِه من وَظِيفَةٍ، هي ذَاتُ حُضُورٍ «تَكْمِيلِيٍّ» لِمَثِيلاتِها، فَمُرْتَقَبٌ أن يَئُولَ الانْفِصالُ إلى اتِّحادٍ تارَةً أُخْرَى، ومُؤَكَّدٌ سَيَأْتِي اتِّصالُه غَيْرَ كاشِفٍ عن جَمِيعِ جَوانِبِها؛ فَيَقْنَعُ مِن ثَمَّ في عَرْضِه بِتَقْدِيمِ المُلَخَّصاتِ والشُّروحِ الَّتي تَحْكِي الأَقْوالَ، وإذا أَرَدْنا الدِّقَّةَ لِهذا الحَدِيثِ الفَضْفاضِ؛ فيُمْكِن اسْتِثْناءُ تِلْكَ الجُزْئِيَّاتِ الَّتي اتَّسَمَتْ بِالقُوَّةِ والتَّأْثِيرِ، على نَحْوٍ حَقَّقَ لها قَدْرًا من الحِفاظِ على كِيَانِها المُسْتَقِلِّ داخِلَ السِّلْسِلَةِ، ويَبْزُغُ هذا بِوضُوحٍ في الأَجْزاءِ الأَرْبَعَةِ الأُولَى؛ حَيْثُ الشُّعَراءُ الَّذين ظَلَّ لَهُم الحُضُورُ القَوِيُّ، لا أَقُولُ فَحَسْبُ فيها، بَلْ أَيْضًا في مَسِيرَةِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ[1]، ومِنْ ثَمَّ نَلْتَقِي باسْتِيعابٍ نِسْبِيٍّ لِلْجوانِبِ المُتَّصِلَةِ بِهِم وبِشِعْرِهم مِن ناحِيَةٍ، وعَدَمِ خُضُوعِهِم لإِطارِ الغَرَضِ الشِّعْرِيِّ مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرَى، ذلك القَيْدُ الَّذِي لَمْ يُفْلِتْ مِنْه أَحَدٌ من الشُّعراءِ، في غَيْرِ هذه الحَالاتِ مِنْ أَجْزاءِ السِّلْسِلَةِ، حَتَّى المُتَنَبِّي شاعِرِ العَرَبِيَّةِ المُدْرَجِ تَحْتَ غَرَضِ المَدِيحِ[2]، والمَعَرِّي الذِي أُدْرِجَ تَحْتَ الفَلْسَفَةِ والحِكْمَةِ[3]، ولَسْنا نَجِدُها تَعْدِلُ عَنْ هذا السَّبِيلِ إلا في حالَةٍ وَحِيدَةٍ هي حَالَةُ شُعَراءِ ليبيا[4]، عَلَى أَنَّ ذَلِك لا يُؤَثِّرُ في

---

(1) على سبيل التمثيل؛ انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 1 / 232- 365، 2 / 68- 105، 3 / 201- 289، 4 / 255- 368.

(2) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 5 / 341- 351.

(3) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 6 / 166- 178.

(4) انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 9 / 81- 103.

اطِّرادِ حَدِيثِنا؛ لأنَّه عُدُولٌ لَمْ يكن بسَبَبِ مكانَتِهم الشِّعْرِيَّةِ وإنما بَسَبَبِ نَتاجِهِم؛ الذي لم يُتِحْ لِضَآلَتِه ومَحْدُودِيَّتِه تَوْزِيعَهم على الأغْراضِ، ولَعَلَّ مِن المُلاحَظاتِ الشَّكْلِيَّةِ الدَّالَّةِ أنَّها كَانَتْ تَدْلِفُ إلى الشُّعَراءِ الأوَّلِينَ عن طَرِيقِ عُنْوان: "أَعْلامِ الشعراءِ"، ذلكَ العُنوَانُ الذي يَظْهَرُ هُنا لِيَخْتَفِيَ عن باقِي أَجْزائِها، مؤكِّدًا أَنَّ قُوَّةَ المادَّةِ الخاضِعَةِ لِلْبَحْثِ وتَأْثِيرَها وما كانَتْ تُحَقِّقُه لِنَفْسِها من اسْتِقْلالِيَّة كان سَبَبًا رَئِيسًا في أَنْ يَأْتِيَ الاتِّصالُ بها مُتَماسًّا مع جَمِيعِ جَوانِبِها أو يَكادُ يكون كذلك.

أما **الحالَةُ الأُخْرَى**؛ الَّتِي تَسْتَوْقِفُنا بِما تُوفِّرُ لِهذَا الشَّرْحِ مِن الحُضُورِ والوُضُوحِ: فَهِيَ حالَةُ **كَوْنِ الشاعِرِ صاحِبَ مَذْهَبٍ أو نِحْلَةٍ** يَدْعُو إلَيْها؛ ونُمَثِّلُ لِهذا بِصَنِيعِه مع هاشِمِيَّاتِ الكُمَيْتِ[1]؛ إذْ يُسَيْطِرُ على صَفَحات بَحْثِه مُحاوَلَةُ بيانِ قِيامِ الشاعِرِ بالإفْصاحِ عن مَبادِئِ المَذْهَبِ الشِّيعِيِّ الزَّيْدِيِّ[2]، وبَيْنما يَعْتَمِدُ النَّاقِدُ على الدِّيوانِ في الشِّقِّ الأوَّلِ مِن هذه المَهَمَّةِ فإنَّه يَسْتَشِيرُ

---

(1) انظر: شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط6، ص268- 291.

(2) الزيدية: فرقة من فرق الشيعة تنتسب، كما يظهر من اسمها، إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي، رضي الله عنه (ت: 121هـ)، وقوام ما يميزه هو تفضيله عليَّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، في الوقت الذي لا يرضى بسبِّ أحد الشيخين؛ أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، بل رُوِي أن الرافضة إنما سُمُّوا بهذا الاسم نظرًا لرفضهم الإذعان لنهيه إياهم عن الوقيعة فيهما، وهو إلى جانب هذا يرى أن الإمامَ لا يَصِيرُ إمامًا إلا بالخروج على إمام الجَوْرِ لِعَصْره، وقد لَقِيَ الشَّهَادَةَ؛ ضريبةً لهذا المبْدَإ، أيامَ خلافة هشام بن عبد الملك، بعد خروجه عليه وقتاله يوسفَ بن عمر أمير الكوفة آنذاك، انظر: الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1950م، 1/ 129، 130، وابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط2، 1996م، 5/ 20، 25، 29، 35.

كُتُبَ المَذاهِبِ والفِرَقِ في شِقِّها الآخَرِ، ويَضْطَرُّه هذا السَّبيلُ إلى مُناقَشَةِ بَعْضِ المَسائِلِ، من مِثْلِ ادِّعاءِ القُدَماءِ غُلُوَّ تَشَيُّعِه أو زَعْمِهِم شَغَفَه بالدُّنْيا وَزِينَتِها وعَدَمَ صِدْقِ انْتِمائِه، وَظاهِرٌ أَنَّ كُلَّ هذا لَمْ يَكُنْ لِيَسْمَحَ له بِأَنْ يُدْلِي بِنَظَراتِه المُتَّصِلَةِ بِالجانِبِ الفَنِّيِّ الجَمالِيِّ إلا فِي أَضْيَقِ الحُدُودِ، عَلَى نَحْوٍ يَجْعَلُه يَمُرُّ مُرورًا على بَيْتَي الكُمَيْتِ القائِلِينَ:

دَعَـــانِي ابـــنُ الرَّسُـــول فَلَـــمْ أُجِبْـــهُ

أَلَهْفِـــي لَهْـــفَ لِلْقَلْـــبِ الفَـــرُوقِ

حِـــذَارَ مَنِيَّـــةٍ لابُـــدَّ مِنْهَـــا

وَهَـــلْ دُونَ الـــمَنِيَّةِ مِـــنْ طَرِيـــقِ

وهُما بَيْتَانِ يَنْفُثُ فِيهِما الكُمَيْتُ زَفَراتِ الأَسَفِ المُمْتَزِجَةَ بالتَّوبِيخِ لِلنَّفْسِ، بِسَبَبِ خَوفِها وجَزَعِها، ومَا كانَ مِن تَخَلُّفِها ونُكُوصِها عنْ إمامِه: زَيْدِ بنِ عَلِيٍّ، حينَ خَرَجَ علَى الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ، واستُشهِدَ دَونَ أنْ يَتَحَصَّلَ له مَا يُرِيدُ، ولا يَنالانِ مِن نَاقِدِنا إلا قَولَه المتَوَجِّهَ صَوبَ المضامِينِ: "فهو محزون لفراقه في خروجه، وأنه لم يبذل نفسه في سبيله، فالموت لابد منه، وهو إن تأخر اليوم فسيموت غدا. ولعل هذا الجانب في الكميت هو الجانب الوحيد الذي خالف فيه إمامه.."(1).

الحقُّ أَنَّه سَيَكُونُ مِن الضَّرُورِي الآنَ، حتَّى يَتَحَصَّلَ لَدَينا **تَفْسِيرٌ** لِهَذا النَّهجِ المتَّبَعِ فِي النَّمُوذَجِ الفائِتِ، وحتَّى نَكُونَ إلى جِوارِ ذَلكَ **أَكثَرَ إِنْصافًا** لِصَنِيعِ النَّاقِدِ، أَنْ نُحاوِلَ الكَشْفَ عَن **رُؤْيَةِ النَّاقِدِ التَّأْسِيسِيَّةِ** المُتَرَسِّبَةِ إزاء

(1) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط6، ص275.

الشَّاعِرِ وديوانِه، وهِي رُؤْيَةٌ تَولَّتْ نُصُوصٌ مُتَعَدِّدَةٌ بَثَّهَا وتَكرِيسَهَا، لعلَّ من أَوضَحِهَا علَى الإطْلاقِ قَولَه: ".. لم يكن هم الكميت في هاشمياته منحصرا في فن التعبير، بل كاد أن يكون منحصرا في فن الاحتجاج"[1]، إنَّ الكُمَيتَ إذنْ، كَما يَبدُو مِن هذا النَّصِّ، شَاعِرٌ لا مِن الدَّرَجَةِ الأُولَى، إن صَحَّ هذا التَّعْبِيرُ، وإنَّمَا هو داعِيَةٌ صاحِبُ مَذْهبٍ ونِحْلَةٍ، وهاشِمِيَّاتُه دِيوانٌ هَمُّه الرَّئيسُ لا الاحْتِفاءُ بِفَنِّيَّاتِ التَّعْبِيرِ، وإنَّما العِنايَةُ بِفَنِّيَّاتِ الحِجاجِ عن الدَّعْوَةِ الشِّيعِيَّة الزَّيْدِيَّة؛ ولِذَا فَقَدْ يَكُونُ مِن الـمُتَوَقَّعِ، بل من الـمُبَرَّرِ كَذلكَ، أَنْ يُركِّزَ الشَّرْحُ على الأَفْكارِ والـمَضامِينِ ويَتَجاوَزَ، مُضْطَرًّا، الجوانِبَ الفَنِّيَّةَ الجَمَالِيَّةَ إلا في اليَسِيرِ الذِي يَأْتِي عَرَضًا[2]، كما سَيَكُونُ من الضَّرورِيِّ تَفَهُّمُنا أَنَّ دِراسَةَ الكُمَيْتِ لَمْ تُشَكِّلْ كِيانًا مُسْتَقِلا، وَإنَّما كانَتْ لَبِنَةً أَسْهَمَتْ في بِناءِ تَصَوُّرِه عَن التَّجْدِيدِ في الشِّعْرِ الأُمَوِيِّ، في جانِبَيْ الشَّكْلِ والـمَضْمُونِ، بِالـمَعْنَى الذي سيَلْفِتُ إلى لَبِناتٍ أُخْرَى كانَ مَنْطِقُها التَّرْكِيزَ على الجَانِبِ الفَنِّيِّ، وَحَقًّا قَد يُغْرِينا ذَلك بِالتَّعْرِيجِ عَلَيْها لإِعْطاءِ صُورَةٍ مُسْتَوِيَةٍ صادِقَةٍ عَن مُمارَساتِ النَّاقِدِ، لَوْلا أَنَّها تَتَّصِلُ أَكْثَرَ بِانْفِتاحِه على مُعْطَياتِ الـمَعارِفِ الوَافِدَةِ حَدِيثًا

(1) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط6، ص276.

(2) عاد ناقدُنا مرَّةً أخرى بعد مدة تزيد على عشرة سنوات إلى الكُمَيْت وهاشمياته في سلسلة تاريخ الأدب، دون أن يحدث أي تَغَيُّر في رؤيته لهما ولا في طريقة التعامل؛ إذ ظَلَّ الكميت، كما كان من قبل، الشيعيَّ الزيدي الثائر صاحِب الحِجاجِ العقليِّ عن مذهبه، وظَلَّت الهاشميات الـمقالة الشعرية التي عَبَّرَتْ عن أصول الـمذهب الزيدي قبل أن تنهض بذلك مقالةٌ نَثْرِيَّةٌ، على أنه هنا يتخذ إجراء ربما يزيد الـمسألة وضوحا، وأعني أنه يدلف إليه عبر عنوان: "شعراء الشيعة"، انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، 2/ 315، 323- 329، ولعله يتضح أننا قد عدلنا عن اعتماد ما جاء في السلسلة وحده؛ حتى لا تتداخل هذه الحالة مع الحالة الفائتة.

وَإِفْساحِه أَمامَ الإِفادَةِ مِن الـمَناهِجِ النَّقْدِيَّةِ الـمُتَنَوِّعَةِ في صِيغَةٍ تَكامُلِيَّةٍ، وَهِيَ الأُمُورُ الَّتِي سَنُعْنَى بِها لاحقًا.

لِنَعُدْ إِذَنْ إلى النَّاقِدِ في سِياقِ اسْتِرْفادِه التُّراثَ العَرَبِيَّ، ولْيَكُن الـمَدْخَلُ الخِتامِيُّ هو تَقْريرَ أَنَّ الصُّورَةَ النِّهائِيَّةَ الَّتي أَنْتَجَتْها دراسَتُه عن الكُمَيْتِ لابُدَّ سَتُثِيرُ **إِشْكالِيَّةً** إذا مَنَحْناهَا نَظَراتٍ مُتأَمِّلَةً، بِحَدَقَةٍ تَسْتَوْعِبُ أَبْعادَها كُلَّها، أَوْ لِنَقُلْ تَحْدِيدًا تَضَعُ رُؤْيَةَ النَّاقِدِ عَنْ شِعْرِ الكُمَيْتِ والطَّرِيقَةَ الَّتي تَمَّ التَّعامُلُ بها مَعَه في كِفَّةٍ، وتَضَعُ دِفَاعَه الـمُخْلِصَ طَوالَ البَحْثِ عن شَاعِرِيَّتِه في كِفَّةٍ أُخْرَى، خَاصَّةً حينَ كَلَّفَه دِفَاعُه مُجابَهَةَ آراءِ القُدَماءِ، تِلْكَ التي نَفْهَمُ مِنها أَنَّ الكُمَيْتَ في حِسِّهِمْ، أو بالأَحرَى في حِسِّ بَعضِهِم، لمْ يَكُنْ شَاعِرًا بِالـمَعْنَى التَّامِّ لِهذه الكَلِمَةِ، مِن حَيْثُ إِنَّ الشِّعرَ الذِي خَلَّفَه تَشيعُ فيه بُرُودَةٌ؛ وَلَّدَهَا اعْتِمادُه الأُسْلُوبَ التَّقرِيرِيَّ الجافَّ الذِي يَخْلُو مِن الخَيالِ، وربُّما أَيضًا العاطِفَةِ، أَثْناءَ الإِبانَةِ عَنْ أُصُولِ مَذْهبِه والـمُنافَحَةِ عَنْهُ ضِدَّ مُخالِفِيه، حتَّى لَيُرْوَى أَنَّ بَشَّار بن برد قالَ عَنْهُ: "إنه ليس بشاعر"[1]. لقدْ أَرَادَ النَّاقِدُ، فيما يظهر، أَنْ يُزَحْزِحَ تِلْكَ الصُّورةَ عن مَكَانَتِها، فاسْتَطَعْنا التَعَرُّفَ في بَحْثِه عَلى

(1) انظر: أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، 3 / 225، ويبدو، في رأينا، أن اشتغاله بالخطابة كان سببًا رئيسًا في إنتاج تلك النَّظْرَة، كما كان سببًا أيضا في حُكْم النقاد عليه؛ إذ نجدهم يستحضرونها في مثل قول الفرزدق: "الكميت خطيب لا شاعر"، انظر: الشريف المرتضي: أمالي المرتضي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1954م، 1 / 58، 59، وكأنهم كانوا يزدرون شعره تحت تأثير ارتياحِهم لخطابته، أو لنقل يقيمون موازنة بينهما فترجح كفة الخطابة، على أن مهنة الخطابة- لو تَقَصَّيْنا- لم تكن حِكْرًا عليه من دون الشعراء؛ فقد كان هو ".. والبعيث والطرماح شعراء خطباء"، انظر: الجاحظ: البيان و[التبين]، 4 / 84، من زاوية أخرى يمكن الإشارة إلى احتمال أن تكون المسألة عائدة إلى تأثير القِران أو الـمذهبية.

الكُمَيْتِ «الزَّيْدِيِّ الثَّائِرِ» لِمَبادِئِه الـمُنافِحِ عنْ مَذهَبِه، غَيرَ أَنّنا لمْ نَتعرَّفْ حَقَّ التَّعرُّفِ على الكُمَيتِ الشَّاعِرِ، وأَيضًا استَطَعْنا التَّعَرُّفَ عَنْ طَرِيقِ اتِّصالِه الحَميمِ بِنُصُوصِ هاشِمِيَّاتِه على «أَقْدَمِ نَصٍّ لِلْمَقالَةِ الزَّيْدِيَّةِ»، غَيْرَ أَنَّنا لمْ نَتَعَرَّفْ على الهاشِمِيَّاتِ بِوَصْفِها دِيوانًا تَتَجَلَّى فِيه مَقْدِرَةُ الشَّاعِرِ على تَحْوِيلِ العَقِيدَةِ إلى فَنٍّ، والذِي نُرِيدُ أَنْ نَخْلُصَ إليهِ مِن هذِه الـمُقابَلَةِ العَجْلَى هو أَنَّ النَّاقِدَ يَتَراءَى لنا مُتَّفِقًا مع القُدَماءِ في نَظْرَتِه حَتَّى حِينَ أَرادَ الـمُخالَفَةَ! لأَنَّ الطَّرِيقَةَ التي انْتَهَجَهَا كانَتْ تُفْضِي إلى نَتائِجَ لا تَتَعانَدُ مَع الأَحْكامِ الَّتِي أَلْصَقَها القُدَماءُ بِالشَّاعِرِ وشِعْرِه، بَلْ تَمْهَدُ لها مِن حَيْثُ ابْتِعادِها عن مَيْدانِ الفَنِّ ورِعايَتِها مَيدانَ الـمَذاهِبِ والعَقائِدِ.

الخاتمة

أَنْ تَتَقَلَّبَ العَيْنُ بين كُتُبٍ تُقارِبُ عُنْواناتُها في العَدِّ سِتِّينَ عُنْوانًا، وأَنْ تَغْرقَ في لُجَجِ صَفَحاتِها المُتلاحِقَةِ التي تَتَأَبّى على الحَصْرِ؛ فمن المُرْتَقَبِ حِينَئِذٍ أن يَتَسَمَّرَ صاحِبُها في مكانِه حَسيرًا، رَيْثَما يَسْتَعِيدُ اتِّزانَه ويَنْعَتِقُ من الحَيْرَة التي تَتَملَّكُه إزاءَ السُّؤالِ المُلِحِّ: كيف يَتَمَكَّنُ مِن مُقارَبة هذا النِّتاجِ الضَّخْم وفَحْصِه، والخَلاصِ من ذلك إلى صُورَةٍ مَرْجُوَّةٍ غيرِ مُخِلَّةٍ عن شوقي ضيف ناقِدِ الشِّعرِ في إطار سُلْطَةِ التُّراثِ؛ بِحَضانَتِه له واحْتِفائِه هُو به؟ وبَعْدَ لأْيٍ في اقْتِراحِ مَداخِلَ وزَوايا، وتَأَسُّفٍ على تَبْدِيلِها وتَغْيِيرِها، ارْتَأَينا أن نَحْتِكم بِهُدوءٍ إلى طَبِيعَةِ المَنْهَجِ؛ لِيَتِمَّ تَوْفِيرُ أَكْبَرِ طاقَةٍ مُمْكِنَةٍ وتَوْجِيهِها إلى مَوْرُوثِ النَّاقِدِ نَفْسِه، فَمِنْ شَأْنِ الاهْتِمامِ الزَّائِدِ بالمساحاتِ المُحِيطَةِ تَشْتِيتُ الجُهْدِ، وأَنْ نَتَحَسَّسَ المَواطِنَ التي تَتَشَوَّفُ بِشِدَّةٍ إلى المُعالَجَةِ، عن طَرِيقِ الاتِّصالِ بالدِّراساتِ السَّابِقَةِ، لِيَكُونَ شُغْلُنا فَحَسْبُ الغائِبَ مِنْها أو الذي لم يَنَلْ حَظَّه الأَوْفى، لأننا في نهاية المَطافِ ليس بِوُسْعِنا القِيامُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وأَنْ نَرْقُبَ بِانْتِظامِ الأَهْدافَ التي نَنْتَوي تَحْقِيقَها؛ لِنَخْتَصِرَ الطَّرِيقَ بِاخْتِيارِ نَماذِجَ مَوْصُولَةٍ بها، تَشْرَحُ الحالاتِ التي سِيقَتْ لِلْكَشْفِ عنها وتَنْهَضُ بالإحالَةِ إلى عَشَراتِ الحالات المُناظِرَةِ في آنٍ.

شَكَّلَتْ هذه القَراراتُ البِيئَةَ المُلائِمَةَ لِوِلادَةِ الخُطَّةِ البَحْثِيَّةِ التي احْتَذاها البَحْثُ الحَالِيُّ وِلادَةً طَبِيعِيَّةً ؛ فجاء في أَرْبَعَةِ فُصُولٍ، تَسْبِقُهُم صَفَحاتُ المَاقَبْلُ التي تَشْرَحُ خُطَّةَ البَحْثِ وتَشْعِيباتِه، وتُوضِّحُ حُدُودَه وتَكْشِفُ عن مَنْهَجِه، كما تُشِيرُ إلى أَسْبابِ اخْتِيارِه وأَهْدافِه التي يَعْتَزِمُ تَحْقِيقَها، مع التوقُّفِ عند الدِّراساتِ السابِقَةِ ورُؤْيَةِ البَحْثِ لها، أما **الفَصْلُ الأَوَّلُ: أَوَّلِيَّاتُ التَّشَكُّلِ والأَداءِ** فَيَتَّجِهُ صَوْبَ مَرْحَلَةِ النَّشْأَةِ، في جانِبِها الاجْتِماعِيِّ الذي يُمَثِّلُه البَيْتُ والأُسْرَةُ والقَرْيَةُ، وجانِبِها الثَّقافِيِّ الذي يَتَّخِذُ من المَراحِلِ التَّعْلِيمِيَّةِ نَوافِذَ للشُّخُوصِ، ويَطْمَحُ الفَصْلُ من ذلك إلى اسْتِخْلاصِ مُتَعَلَّقاتِ ما هو تُراثِيٌّ من سِيرَةِ الناقِدِ الذَّاتِيَّةِ وإِعادَةِ تَرْتِيبِها، لِنَتَمَكَّنَ من كِتابَةِ سِيرَةٍ فَرْعِيَّةٍ مُوازِيَةٍ، تَتَوَفَّرُ على الإِفْصاحِ عن هُوِيَّةِ التُّراثِ وتَجَلِّياتِه المُتَبايِنَةِ، كما يَتَّجِهُ الفَصْلُ أيضا صَوْبَ رسالتِه التي نالَ بها دَرَجَةَ الماجِسْتِيرِ، مُؤَكِّدِين أَنَّها الجِسْرُ النَّقْدِيُّ الأَوَّلُ الذي مَتَّنَ به أواصِرَ الرَّافِدِ التُّراثِيِّ، ومحاوِلِين أن نَرْصُدَ بَعْضَ آثارِها المُتَعَدِّدَةِ في نِتاجِه اللاحِقِ، فَنَقِفُ وَقْفَةً عِنْدَ مادَّتِها المَعْرِفِيَّةِ وأُخْرَى عند مُلاحَظاتِها النَّقْدِيَّةِ، للإِشارَةِ إلى انْسِرابِهِما في كِتاباتِه وانْشِغالاتِه العِلْمِيَّةِ، حتى في رِسالَةِ الدُّكْتُوراه، تِلْكَ التي يُكَرِّسُ تَعامُلُ بَعْضِ الباحِثِين مَعَها لِظَنٍّ مُؤَدَّاه أَنَّها المَحَطَّةُ النَّقْدِيَّةُ الأُولى.

وإذ تَرْتَهِنُ المَواقِفُ النَّقْدِيَّةُ المُهِمَّةُ من قضايا التُّراثِ بالتَّصَوُّرِ الكُلِّيِّ الذي يَتَبَنَّاه عن مُفْرَداتِه ؛ وهو التَّصَوُّرُ الذي رَوَّج له تحتَ عُنْوانِ: "وُحْدَةِ التُّراثِ" ؛ فقد رَأَينا تَخْصِيصَ **الفَصْلِ الثّانِي: وُحْدَةُ التُّراثِ ؛ التَّصَوُّرُ والأَصْداءُ** لاسْتِشْرافِه والتَّعْرِيفِ به وبَيانِ آثارِه ؛ خاصَّةً وقَدْ تَتَراءى هذه المَواقِفُ مُتَّصِلَةً بِدَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ بِمَواقِفِه إزاءَ قَضايا التَّجْدِيدِ والمُعاصَرَةِ

والثَّقافاتِ الوافِدَةِ، وفي سَبِيلِ إنْجازِ الفَصْلِ مُرادَه تَمَّ العُكُوفُ على دِراسَةٍ للنَّاقِدِ نَشَرَها تحت العُنْوانِ نَفْسِه: "وحدة التراث"، تَوَلَّت الإفْصاحَ عن مَفْهُومِه، مُسْتَعِينين بِستِّ عَدَساتٍ ذاتِ أداءٍ تَكامُلِيٍّ، فكانَتْ وَقْفَةٌ عند خُطُوطِه العَرِيضَةِ التي يَقُومُ عليها بِحَسْبِ الناقِدِ، وثانِيَةٌ عند مُعَوِّقاتِ قِيامِ هذه الوحدةِ؛ على المُسْتَوَيَيْنِ: التَّارِيخِيِّ والذِّهْنِيِّ من جِهَةٍ، وإجْراءاتِه التي اتَّخَذَها للمُعالَجَةِ من جِهَةٍ أُخْرى، وثالِثَةٌ عند الثَّغَراتِ في الصِّياغَة التي اسْتَعَنَّا لِلْكَشْفِ عنها بِوَضْعِها في مُقابَلَةِ خِطاباتِه النَّقْدِيَّةِ الأُخْرى، ورابِعَةٌ عند حُضُورِه القَبْلِيِّ الذي يُؤكِّدُ اطِّرادَ أداءِ المَنْظُورِ حَتَّى مع اخْتِلافِ المادَّةِ الخَامِ، وخامِسَةٌ عند الثَّابِتِ والمُتَغَيِّرِ، كان المَدْخَلُ إليها هو ملاحَظَةَ تَبايُنِ مَواقِفِه في اسْتِقْبالِ الشِّعْرِ الحُرِّ، وسادِسَةٌ عند أَصْدائِه التي اتَّفَقْنا أنَّه مِن الأَجْدى تَتَبُّعُها في كُتُبِه المُخَلَّفَةِ لَوْحاتٍ مُتَكامِلَةً لا في آرائِه، لِيَتَوَّجَ كلُّ ذلك بِخُلاصَةٍ مُرَكَّزَةٍ عن المَفْهُومِ، ويتراءى الفَصْلُ عَمَلِيَّاتٍ مُتَراتِبَةً من التَّحْلِيلِ والتَّرْكِيبِ ومُتَماشِجَةً في آن، بِجانِبِ الانْفِتاحِ على النِّتاجِ السَّابِق واللاحِقِ، لِيَتَجاوَزَ مَخاطِرَ التَّوْصِيفِ الاسْتاتِيكِيِّ، وبِجانِبِ السَّعْيِ لِعَرْضِ الآراء النَّقْدِيَّةِ بِصُورَةٍ لا تَتَفاصَلُ فيها عن التَّصَوُّرِ ذاتِه.

ونَلْحَظُ الشَّغَفَ المُتَواتِرَ لدى الناقد بِتَقْدِيمِ النُّقادِ العَرَبِ القُدماءِ للقارئِ المُعاصِرِ والتَّعْرِيفِ بهم وبِجُهُودِهم، بِصُورَةٍ تَكادُ تَجْعَلُ منه المَشْرُوعَ الرَّئِيسَ في اهْتِماماتِه المُخْتَصَّةِ بما خَلَّفَ الأَسْلافُ، فَنُقَرِّرُ مِنْ ثَمَّ التَّوَقُّفَ عنده واسْتِجْلاءَ مَلامِحِه البارِزَةِ في الفَصْلِ الثَّالِثِ: **أولئك أسْلافِي**، يُحَرِّضُنا على ذلك أنَّه يَتَمَدَّدُ زَمَنِيًّا لِيَتَجَلَّى شاهِدًا على المُتَغَيِّراتِ المُحِيطَةِ بالمَنْظُورِ النَّقْدِيِّ والأَطْوارِ التي تَقَلَّبَ فيها، ويَتَّسِعُ مَكانِيًّا لِيَمْتَزِجَ

بِمَشْرُوعاتٍ أُخرى تَطْبَعُه بِطابَعِها وتَدْفَعُ به نَحْوَ الاكْتِمالِ، ويَلِجُ الفَصْلُ إلى أَدْوارِه بالسُّؤالِ عن جُذورِه ولَبِناتِه الأُولى، ثُمَّ نَنْتَقِلُ إلى الحَديثِ عنه أَثْناءَ حَضانَةِ سِلْسِلَةِ تاريخِ الأَدَبِ له، ونُحاوِلُ بالاتِّكاءِ على تَحْليلِ المُحْتَوى رَصْدَ العلاماتِ التي تُميِّزُه في هذه المَرْحَلَةِ، والتي تَرْتَهِنُ على نَحْوٍ من الأَنْحاءِ بِنَهْجِها، لِنَمْهَدَ السَّبيلَ أمامَ المُوازَنَةِ التي سَنَعْقِدُها بين الصُّورَةِ المُنْجَزَةِ عن بَعْضِ النُّقّادِ في إطارِ التَّجارِبِ الأُولى والصُّورَةِ المُنْجَزَةِ عَنْهُم في إطارِها، وأمامَ تَعْليلاتِنا التي سَنَبُثُّها تَفْسيرًا لهذا التَّغايُرِ الكائِنِ بَيْنَهُما، قَبْلَ أَنْ نَتَوَقَّفَ أَخيرًا لدى المَشْرُوعِ أَثْناءَ امْتِزاجِه بِمَشْرُوعِ التَّعْريفِ بِبيئاتِ النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَديمِ، ويَكْتَسِبُ الفَصْلُ أَهَمِّيَّتَه، في سِياقِ الحَديثِ عن سُلْطَةِ التُّراثِ، مِنْ أَنَّه يَتَأَسَّسُ على فَرْضِيَّةٍ مُؤَدّاها أَنَّ المَشْرُوعَ يُجَسِّدُ سَعْيَ الذّاتِ العَرَبِيَّةِ المُعاصِرَةِ، وإِنْ بِصُورَةٍ وِجْدانِيَّةٍ، إلى تَدْشينِ مَلاذٍ تُراثِيٍّ آمِنٍ أَمامَ طُوفانِ المَناهِجِ الغَرْبِيَّةِ الفاتِنَةِ.

يَخْتَتِمُ **الفَصْلُ الرّابِعُ: المَنْهَجُ وتَجَلِّياتُه** الدَّوْرَ المُلْقَى على عاتِقِ هذا الجُزْءِ الأَوَّلِ؛ بِمُعالَجَتِه مَسْأَلَةَ المَنْهَجِ النَّقْدِيِّ التُّراثِيِّ ومَدَى حُضُورِه في مُمارَساتِه، ويَبْدَأُ مِن حيث الإشْكالِ الذي يُثيرُه عُنْوانُه، نافِذِين إلى ذلك عن طَريقِ سُؤالٍ مُؤَدّاهُ: هل كان المَنْهَجُ النَّقْدِيُّ حاضِرًا فيما خَلَّفَ أَسْلافُنا أو أَنَّه كان غائِبًا؟ ونَتَّفِقُ على أَنَّنا لَسْنا نَبْغِي شَيْئًا وراءَ اكْتِشافِ إجابَةِ الناقِدِ نَفْسِه، تُبَيِّنُ عن مَوْقِفِه من ناحِيَةٍ وتُرْشِدُنا إلى المَيْدانِ المُلائِمِ لِعَمَلِيّاتِ تَقَصِّي مَواطِنِ الاحْتِذاءِ من ناحِيَةٍ أُخْرى، الأَمْرُ الذي يُبَرِّرُ تَجاوُزَ التَّحْليلِ المُوازِنِ، كما يَنْطَوِي على بَثِّ إِدْراكِنا أَنَّها مَناهِجُ شتى ولَيْست مَنْهَجًا واحِدًا، ثم نَنْطَلِقُ إلى شَرْحِه النُّصُوصَ الشِّعْرِيَّةَ وتَفْسيرِه إِيّاها، لِنُوَضِّحَ كيف نَلْتَقِي في هذا

الـمَيْدانِ بِـصُوَرٍ تَتَـساوَقُ وصُـوَرَ الـشُّرُوحِ الـمَوْرُوثَةِ ؛ مِـن مَجازِيَّـةٍ وباطِنِيَّـةٍ ولُغَوِيَّـةٍ، علـى أَنَّنـا نَمْـنَحُ الأَخِيرَ منهـا وَقْفَـةً تَفْـصِيلِيَّةً تَحْلِيلِيَّـةً، مُـسْتَنِدِين إلى مُبَرِّراتٍ أهمُّها أنه الـمَيْدانُ الذي بِمَقْدُورِه إِثْبـاتُ قَـصْدِيَّةِ الـمُتابَعَةِ، مـن حيـث كَوْنِه يَبْدو في حِسِّ بَعْضِ النُّقادِ سِتارًا صَفِيقًا أمـامَ التَّـذَوُّقِ الجَمـالِيِّ، وأنَّـه ظَلَّ مُحْتَفِظًا على يَدَيه من دُونِهما إلى حَدٍّ كبيرٍ بِهَيْئَتِه الأُولى، خاصَّـةً وقـد كَـشَفَ تَتَبُّعُ الحالاتِ الّتِي يَتَوَفَّرُ فيها نَهْجُ حِكايَةِ الأَقْوالِ والاهْتِمامُ بِمضامِينِ الـشِّعْرِ لا فَنِّيّاتِه عن أَثَرِه في انْسِرابِ بَعْضِ شِياتِ نَثْرِ النَّظْمِ إليها.

بَعْدَ أداءِ هذه الفُصُولِ أَدْوارَها تَجِيءُ **الخَاتِمَةُ** لتَسْتَعْرِضَ الـصُّورَةَ الكُلِّيَّـةَ لِلبَحْثِ وفُصُولِه، كما يَجِيءُ **ثَبَتُ الـمَصادِرِ والـمَراجِعِ** الـذي يُثْبِـتُ في جُزْئِه الأَوَّلِ عُنْوانـاتِ كُتُـبِ ضيفٍ ودراسـاتِه ومَقالاتِـه الـتي اسـتَعَنَّا بهـا فِـي تَكْـوِينِ رُؤْيَتِنـا، ونَظَـرًا لأنَّ البَحْـثَ كـان يَعْمَـدُ أَحْيانًـا إلى الطَّبَعَـات الأُولى لِهَـذِه الكِتابـاتِ، حِرْصًـا مِنَّـا علـى تَحَـسُّسِ الثَّابِـتِ والـمُتَغَيِّرِ، وتَطَلُّعًـا في بَعْـضِ الـمَواطِنِ إلى رَسْمِ خَطِّ سَيْرِ أَفْكارِه وتَنامِيها، فَقَدْ كانَت الإِشـارَةُ إلى طَبْعَتَيْن، لكِتـابٍ واحِدٍ أو مَقـالٍ في مِجلَّةٍ رَغْـمَ أنه أُعِيدَ نَـشْرُه، مَلْمَحًـا رَئِيسًا في هـذا الجُزْءِ، ويُسَجِّلُ في جُزْئِه الثَّانِي الكِتاباتِ العَرَبِيَّةَ، تَأْلِيفًا وتَرْجَمَةً، الـتي اتَّـصَلْنا بها ؛ نَاقِلِين بَعْضَ النُّصُوصِ، أو مُحِيلِين على بَعْضِ الأَفْكارِ والـمَوْضُوعاتِ، أو مُقِيمِين بينهـا وبـين كِتابـاتِ ناقِدِنا مُوازَنَـةً، لِبَيـانِ التَّـأْثِيرِ والتَّـأَثُّرِ أو التَّوافُـقِ والتَّخَـالُفِ، ونَظَـرًا لِـمُرورِ البَحْـثِ بِمُنْعَطَفـاتٍ غَيْـرِ مُتَماثِلَـةٍ فقـد جـاءَتْ هـذه الـمَراجِعُ مُنْتَسِبَةً إلى حُقُولٍ مَعْرِفِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

المصادر والمراجع

أولا: مصادر الدراسة:

شوقي ضيف:

1- أحمد أمين في كتاب "حياتي" (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 24إبريل 1950م.

2- الأدب العربي المعاصر؛ في مصر (1850- 1950م)، دار المعارف (الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية)، القاهرة، 1957م.

3- الأدب العربي المعاصر؛ في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط10، 1992م.

4- الأصول الفنية للأدب؛ تأليف الأستاذ عبد الحميد حسن (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 4يوليو 1949م.

5- أوليات الأدب العربي (دراسة ضمن كتاب: طه حسين مائة عام من النهوض العربي؛ إشراف عبد المنعم تليمة)، فكر للدراسات والأبحاث، القاهرة، عدد مارس 1989م.

6- البارودي؛ رائد الشعر الحديث، دار المعارف، القاهرة، 1964م.

7- البحث الأدبي؛ طبيعته- مناهجه- أصوله- مصادره، دار المعارف، القاهرة، 1972م.

8- البلاغة؛ تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، 1965م.

9- تاريخ الأدب العربي؛ 2- العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، 1963م.

10- تاريخ الأدب العربي؛ 1- العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، 1960م.

11- تاريخ الأدب العربي؛ 8- عصر الدول والإمارات: الأندلس، دار المعارف، القاهرة، 1989م.

12- تاريخ الأدب العربي ؛ 10- عصر الدول والإمارات: الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السودان، دار المعارف، القاهرة، 1995م.
13- تاريخ الأدب العربي ؛ 5- عصر الدول والإمارات: الجزيرة العربية- العراق- إيران، دار المعارف، القاهرة، 1980م.
14- تاريخ الأدب العربي ؛ 6- عصر الدول والإمارات: الشام، دار المعارف، القاهرة، 1990م.
15- تاريخ الأدب العربي ؛ 9- عصر الدول والإمارات: ليبيا- تونس- صقلية، دار المعارف، القاهرة، 1992م.
16- تاريخ الأدب العربي ؛ 7- عصر الدول والإمارات: مصر، دار المعارف، القاهرة، 1990م.
17- تاريخ الأدب العربي ؛ 3- العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، 1966م.
18- تاريخ الأدب العربي ؛ 4- العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، 1973م.
19- تذكارية طه حسين (دراسة ضمن كتاب: في ذكرى طه حسين ؛ الكتاب التذكاري الأول ؛ بمناسبة المؤتمر العلمي في الذكرى الخامسة والعشرين لرحيله)، كلية الآداب، القاهرة، 28- 29أكتوبر 1998م.
20- التطور والتجديد في الشعر الأموي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1952م.
21- التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط6، 1977م.
22- تيسيرات لغوية، دار المعارف، القاهرة، 1990م.
23- ثم غربت الشمس ؛ للدكتورة سهير القلماوي (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 11إبريل 1949م.
24- الحب العذري عند العرب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999م.

25- [حوار] منشور تحت عنوان: حوار مع الدكتور شوقي ضيف؛ الحداثة ردة فكرية تلاشت وذهبت ريحها، مجلة الأدب الإسلامي، الرياض، المجلد السابع، العدد الثامن والعشرون، 1421هـ [2000م]؛ نقلا عن مجلة الدعوة السعودية، عدد 20إبريل 2000م.

26- [حوار] منشور تحت عنوان: الدكتور شوقي ضيف؛ معي قريتي وحاضري وتراثي القديم، أجراه معه وأعده: حسين حمودة، مجلة الكرمل، القاهرة، عدد 60، صيف 1999م.

27- [حوار] منشور تحت عنوان: شوقي ضيف؛ الجانب الآخر، أجراه معه وأعده: مصطفى عبد الفتاح، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد أكتوبر 1979م.

28- حول الوضوح والغموض (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 8يناير 1934م.

29- دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1979م.

30- دراسات في الشعر المصري؛ طلائع بن رزيك (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 3مارس 1952م.

31- دراسات في الشعر المصري؛ القاضي الجليس (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 19مايو 1952م.

32- دراسات في الشعر المصري؛ ابن هانئ الصغير[الجزء الأول] (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 28أبريل 1952م.

33- دراسات في الشعر المصري؛ ابن هانئ الصغير[الجزء الثاني] (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 5مايو 1952م.

34- دراسة أدبنا الحديث (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 1ديسمبر 1952م.

35- ديوان الأسمر؛ للأستاذ محمد الأسمر (مقال)، مجلة الكتاب، القاهرة، عدد أبريل 1951م.

36- ديوان الوأواء الدمشقي ؛ نشر وتحقيق الدكتور سامي الدهان (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 27نوفمبر 1950م.
37- الرثاء (سلسلة فنون الأدب العربي ؛ الفن الغنائي)، دار المعارف، القاهرة، 1955م.
38- رسالة الشعر (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 12مارس 1934م.
39- الرواية الأدبية في الأغاني (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 8فبراير 1944م.
40- ابن زيدون (سلسة نوابغ الفكر العربي)، دار المعارف، القاهرة، 1954م.
41- السرقات الشعرية (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 20يولية 1939م.
42- الشعر (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 15يناير 1934م.
43- الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية ؛ في المدينة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1949م.
44- شعر المناسبات (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 29ديسمبر 1952م.
45- الشعر وطوابعه الشعبية ؛ على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، 1977م.
46- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1992م.
47- الشعر والفن (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 29يناير 1934م.
48- شوقي شاعر العصر الحديث، دار المعارف، القاهرة، ط13، 1998م.
49- صلاح عبد الصبور رائد الشعر الحر الجديد (دراسة)، مجلة فصول، القاهرة، عدد أكتوبر 1981م.
50- عجائب وأساطير، دار الهلال، القاهرة، 2004م.
51- الفاروق عمر (2) ؛ للدكتور محمد حسين هيكل باشا (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 5يونية 1945م.
52- أبو الفرج الناقد (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 18يناير 1944م.
53- فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، القاهرة، 1971م.

54- الفكاهة في الأدب العربي [الجزء الأول] (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 19يونيه 1950، ص9- 11.
55- في الأدب والنقد، دار المعارف، القاهرة، 1999م.
56- في التراث والشعر واللغة، دار المعارف، القاهرة، 1987م.
57- في الشعر والفكاهة في مصر، دار المعارف، القاهرة، 1999م.
58- في موكب الشمس؛ للدكتور أحمد بدوي (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 23أبريل 1946م.
59- في موكب الشمس؛ الجزء الثاني في تاريخ مصر الفرعونية من آخر الضحى إلى أول الأصيل؛ بقلم الدكتور أحمد بدوي (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 15مارس 1951م.
60- في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، 1962م.
61- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، القاهرة، 1943م.
62- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1960م.
63- الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1960م.
64- القديم الجديد في الشعر (دراسة)، مجلة فصول، القاهرة، عدد يوليو 1981م.
65- ماهية الألوان الفنية (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 19مايو 1942م.
66- محاضرات مجمعية، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1998م.
67- المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، 1968م.
68- مدخل إلى كتاب الرد على النحاة [بكتاب: الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي؛ تحقيق: شوقي ضيف]، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1982م.
69- مذاهبنا الفنية (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 3مارس 1942م.

70- مع العقاد (سلسلة اقرأ)، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1988م.

71- معي [الجزء الأول] (سلسلة اقرأ)، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م.

72- معي ؛ 2- ذكريات ومشاهد (سلسلة اقرأ)، دار المعارف، القاهرة، 1988م.

73- من المشرق والمغرب ؛ بحوث في الأدب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1998م.

74- موسيقى الشعر ؛ تأليف الدكتور إبراهيم أنيس (مقال)، مجلة الثقافة، القاهرة، عدد 18يوليو 1949م.

75- النقد (سلسلة فنون الأدب العربي ؛ الفن التعليمي) ، دار المعارف، القاهرة، 1954م.

76- نواقص الإيقاع في الشعر الحر (دراسة)، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، عدد يناير 1969م.

77- وحدة التراث (دراسة)، مجلة فصول، القاهرة، عدد أكتوبر 1980م.

ثانيا: المراجع العربية: المؤلفة والمترجمة:

78- **إبراهيم عبد الرحمن**: مناهج نقد الشعر في الأدب العربي الحديث، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، 1997م.

79- **ابن الأثير(أبو الفتح نصر الله؛ ضياء الدين بن الأثير الجزري الشيباني)**: الوشي المرقوم في حل المنظوم، تحقيق: يحيى عبد العظيم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2004م.

80- **أحمد موسى الخطيب**: منهج شوقي ضيف في دراسة شاعر العصر الحديث، (ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية، إشراف وتقديم: طه وادي)، دار المعارف، القاهرة، 1992م.

81- **أحمد زكي أبو شادي**: الشفق الباكي [ديوان شعري]، المطبعة السلفية، القاهرة، 1926م.

82- ـــــــــــ: [تعليق]، منشور في مجلة أبولو، القاهرة، عدد نوفمبر 1932م.

83- **أحمد سمير المرسي**: شوقي ضيف ومشروع التعريف بنقاد العرب القدماء (ضمن كتاب المؤتمر العلمي العاشر: التفكير المنهجي في العلوم العربة والإسلامية)، كلية دار العلوم، الفيوم، أبريل 2008م.

84- **أحمد محمد عبيدان**: ابن الرومي بين يدي الأستاذ الدكتور شوقي ضيف (منشور ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية، إشراف وتقديم: طه وادي)، دار المعارف، القاهرة، 1992م.

85- **أحمد مختار عمر**: البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1982م.

86- **أحمد يوسف**: البحث عن الشخصية المصرية عند شوقي ضيف (ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية، إشراف وتقديم: طه وادي)، دار المعارف، القاهرة، 1992م.

87- **إدوارد سعيد Edward Said**: الاستشراق؛ المعرفة السلطة الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط7، 2005م.

88- **ابن الأزرق (أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي)**: بدائع السلك في طبائع الملك، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، القاهرة، 2007م.

89- **الأشعري (أبو الحسن علي بن إسماعيل)**: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1950م.

90- **الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين)**: الأغاني، إشراف وتحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الشعب، القاهرة، 1969م.

91- **أنور محمود زناتي**: مقدمة تحقيق [كتاب خريدة العجائب وفريدة الرغائب؛ لسراج الدين بن الوردي]، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2007م.

92- **البرقوقي (عبد الرحمن)**: شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986م.

93- **ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني)**: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997م.

94- **أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي)**: ديوانه الشعري، شرح: محي الدين الخياط، التزام [على نفقة]: محمد جمال، بترخيص: نظارة المعارف العمومية، القاهرة، 1900م.

95- ــــــــ: ديوانه الشعري، بعناية: محمد سعيد، المكتبة الوهيبية، القاهرة، د. ت.

96- **التهانوي (محمد بن علي بن القاضي)**: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق فريق عمل بإشراف: رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996م.

97- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري): نثر النظم وحل العقد، مطبعة معارف الولاية الجليلة، دمشق، 1883م.

98- ـــــــــ: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1956م.

99- جابر عصفور: أستاذي شوقي ضيف (مقال)، مجلة البيان، عدد 21يوليو 2002م.

100- ـــــــــ: شوقي ضيف وأستاذية الجامعة (مقال)، جريدة الأهرام، القاهرة، عدد 7يوليو 2003م.

101- ـــــــــ: شوقي ضيف المعنى والقيمة (مقال)، جريدة الأهرام، القاهرة، عدد 21مارس 2005م.

102- ـــــــــ: قراءة التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، القاهرة، 2006م.

103- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان و[التبين]، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت.

104- ـــــــــ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1965م.

105- جامعة القاهرة: الآثار العلمية لأعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة، القاهرة، 1989م.

106- جب (هاملتون) Hamilton Gibb: الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ترجمة: هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1966م.

107- الجرجاني (الشريف أبو الحسن علي بن محمد): التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، تحقيق: غوستاف فلوجل، 1985م.

108- **الجرجاني (علي بن عبد العزيز)**: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2006م.

109- **الجوهري (أبو العباس أحمد بن محمد)**: الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984م.

110- **ابن جني (أبو الفتح عثمان الموصلي)**: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1957م.

111- **الحاتمي (محمد بن الحسن بن المظفر)**: الموضحة، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، 1965م.

112- **حسان بن ثابت**: ديوانه الشعري، تحقيق: وليد عرفات، دار صادر بيروت، 1971م.

113- **ابن حزم الظاهري (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي)**: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط2، 1996م.

114- **حلمي بدير**: الرؤية الشمولية في تأريخ الأدب عند شوقي ضيف (ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية، إشراف وتقديم: طه وادي) دار المعارف، القاهرة، 1992م.

115- **ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون)**: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة (نسخة مصورة عن دار نهضة مصر)، القاهرة، 2006م.

116- **دريني خشبة**: الشعر الحر والشعر المرسل (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 24أكتوبر 1943م.

117- ـــــــــــ: الشعر المرسل وشعراؤنا الذين حاولوه (مقال)، مجلة الرسالة، القاهرة، عدد 8نوفمبر 1943م.

118- **رشيد بن غالب**: شرح ديوان ابن الفارض؛ من شرحي: الشيخ الحسن البوريني والعلامة الشيخ عبد الغني النابلسي، تصحيح: محمد الأسيوطي، المطبعة الخيرية، القاهرة، 1892م.

119- **رمضان عبد التواب**: مناهج تحقيق التراث، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1986م.

120- **زاهد علي**: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ؛ الأندلسي المغربي، دار المعارف، القاهرة، 1932م.

121- **الزبيدي (مرتضى؛ محمد بن محمد الحسيني)**: تاج العروس من جواهر القاموس؛ الجزء الثالث عشر، تحقيق: حسين نصار، مراجعة: عبد الحليم الطحاوي وعبد الستار أحمد فراج، وزارة الإعلام، الكويت، 1974م.

122- ـــــــــــ: تاج العروس من جواهر القاموس؛ الجزء السادس، تحقيق: حسين نصار، مراجعة: جميل سعيد وعبد الستار أحمد فراج، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1969م.

123- ـــــــــــ: تاج العروس من جواهر القاموس؛ الجزء الثلاثون، تحقيق: مصطفى حجازي، مراجعة: أحمد مختار عمر وضاحي عبد الباقي وخالد عبد الكريم جمعة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998م.

124- **سامي سليمان أحمد**: التوفيقية ومشروع دراسة تاريخ الأدب العربي عند شوقي ضيف (دراسة)، مجلة فصول، القاهرة، عدد 67، 2005م.

125- ـــــــــــ: حفريات نقدية؛ دراسات في نقد النقد العربي المعاصر، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2006م.

126- ـــــــــــ : خطاب النقد المسرحي التفسيري عند شوقي ضيف ؛ الصيغ والعمليات النقدية ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ، عدد يوليو 2000م.

127- ـــــــــــ : درس الأدب في الجامعة وبلورة المنظور التاريخي في قراءة الشعر (دراسة ضمن كتاب المؤتمر الأدبي الثامن : الثقافة والجامعة المصرية ؛ مائة عام من التنوير) ، جامعة القاهرة ، فبراير 2008م.

128- **سعد شلبي** : شوقي ضيف وعصر الدول والإمارات (دراسة ضمن كتاب : شوقي ضيف سيرة وتحية ، إشراف وتقديم : طه وادي) ، دار المعارف ، القاهرة ، 1992م.

129- **ابن سعيد الأندلسي (علي بن موسى)** : المقتطف من أزاهر الطرف ، تحقيق : سيد حنفي حسنين ، الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة الذخائر) ، القاهرة ، 2004م.

130- **ابن سلام الجمحي (أبو عبد الله محمد بن سلام البصري)** : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، د. ت.

131- **سوزان [طه حسين]** : معك ، ترجمة بدر الدين عرودكي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1979م.

132- **سيد حامد النساج** : رحلة التراث العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 ، 1994م.

133- **سيد حنفي حسنين** : الجديد في مقتطف ابن سعيد (دراسة) ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، المجلد : 23 ، 1986م.

134- **ابن سيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي)** : المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2000م.

135- ـــــــــــ : المخصص ، تحقيق : خليل إبراهيم جفال ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1996م.

136- **شاكر محمد الفحام**: عودة إلى كتاب التبيان في شرح الديوان (دراسة)، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، عدد نوفمبر 1999م.

137- **الشريف المرتضى (علي بن الطاهر)**: أمالي المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1954م.

138- **الشهرستاني**: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1961م.

139- **صفي الدين الحلي (أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا الطائي)**: العاطل الحالي والمرخص الغالي في الأزجال والموالي، تحقيق: حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1981م.

140- **الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى)**: أخبار أبي تمام، تحقيق: خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي، تقديم: أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937م.

141- **طه الحاجري**: تصدير [كتاب البخلاء] (منشور بين يدي تحقيقه للكتاب)، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1990م

142- **طه حسين**: الأيام (منشور ضمن كتاب: الأعمال الكاملة لطه حسين)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.

143- ــــــــــ: في الأدب الجاهلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1927م.

144- ــــــــــ: حديث الأربعاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1926م.

145- ــــــــــ: حديث الأربعاء، دار المعارف، القاهرة، ط14، 1993م.

146- **طه وادي**: شوقي ضيف سيرة عالم ومسيرة إنسان (دراسة ضمن كتاب: شوقي ضيف سيرة وتحية، إشراف وتقديم: طه وادي)، دار المعارف، القاهرة، 1992م.

147- ـــــــــ : ملاحق بالبحث [تعريف بسيرة ضيف العلمية وبمؤلفاته] (ضمن: شوقي ضيف سيرة وتحية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003م.

148- عبد الحكيم راضي: تكامل المعرفة النظرية والتطبيق في نتاج شوقي ضيف (دراسة)، مجلة تراثيات، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، عدد يوليه 2005م.

149- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد): العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة الذخائر: مصورة عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)، القاهرة، 2004م.

150- عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1987م.

151- السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر): مفتاح العلوم، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرسالة (بمساعدة جامعة بغداد)، بغداد، 1981م.

152- عبد السلام محمد هارون: قطوف أدبية؛ دراسات نقدية في التراث العربي؛ حول تحقيق التراث، مكتبة السنة، القاهرة، 1988م.

153- عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية- لونجمان، القاهرة، 1992م.

154- عبد العزيز الدسوقي: شوقي ضيف رائد النقد والدراسات الأدبية (ضمن سلسلة: اقرأ)، دار المعارف، القاهرة، 1988م.

155- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.

156- **عزة أحمد عبد العزيز وهبة**: شوقي ضيف ناقدا [رسالة ماجستير مخطوطة]، جامعة المنصورة، كلية الآداب، رقم الاستدعاء في المكتبة: 81، 2005م.

157- **عز الدين الأمين**: نظرية الفن المتجدد وتطبيقها على الشعر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1971م.

158- **عزمي عبد الوهاب**: وجه آخر لشوقي ضيف (مقال)، جريدة الأهرام، القاهرة، 26مارس 2005م.

159- **عفت الشرقاوي**: شوقي ضيف ورحلة التكامل المنهجي (دراسة)، مجلة تراثيات، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، عدد يوليو 2005م.

160- **العقاد (عباس محمود)**: اللغة الشاعرة، نهضة مصر، القاهرة، 1995م.

161- ــــــــــ: مطالعات في الكتب والحياة، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1987م.

162- **علي سامي النشار**: مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 1984م.

163- **الغذامي (عبد الله محمد)**: الصوت القديم الجديد؛ دراسات في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1987م.

164- **الغزالي (أبو حامد محمد الغزالي الطوسي)**: أساس القياس، تحقيق: فهد محمد السدحان، مكتبة العبيكان، الرياض، 1993م.

165- **فاروق شوشة**: في وداع شوقي ضيف (مقال)، مجلة الكتب وجهات نظر، القاهرة، عدد أبريل 2005م.

166- **فيليب لوجون Philippe Le. jeune**: السيرة الذاتية؛ الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1994م.

167- **الفيومي (أبو العباس أحمد بن محمد بن علي)**: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تصحيح: علي أحمد العدوي الهواري، مطبعة التقدم العلمية، القاهرة، 1904م.

168- **ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري)**: فضل العرب والتنبيه على علومها، تحقيق: وليد محمود خالص، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1998م.

169- **ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي)**: البداية والنهاية، اعتنى بها: عبد الرحمن اللادقي ومحمد غازي بيضون، دار المعرفة، بيروت، 1998م.

170- **مالك بن نبي**: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2002م.

171- **ماهر حسن فهمي**: معي والسيرة الذاتية (دراسة ضمن: شوقي ضيف سيرة وتحية، إشراف وتقديم: طه وادي)، دار المعارف، القاهرة، 1992م.

172- **[مجهول]**: التبيان في شرح الديوان (منسوبا للعكبري)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

173- **محمد العروسي وبشير البكوش**: مقدمة التحقيق [لكتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان، لابن رشيق]، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986م.

174- **محمد قطب**: المستشرقون والإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، 1999م.

175- **محمد أبو المجد علي**: ببلوجرافيا الرسائل العلمية في الجامعات المصرية منذ إنشائها حتى نهاية القرن العشرين؛ الأدب العربي والبلاغة والنقد الأدبي، مكتبة الآداب، القاهرة، 2001م.

176- **محمد محمد حسين**: الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، د. ت.

177- **محمود محمد شاكر (أبو فهر)**: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992م.

178- **محمـود محمـد الطنـاحي**: مـدخل إلى تـاريخ نـشر الـتراث العربـي، مكتبـة الخانجي، القاهرة، 1984م.

179- **الـمرزباني (محمد بن عمران بن موسى)**: الـموشح، بعناية: محب الـدين الخطيب، جمعية نشر الكتب العربية (الـمطبعة السلفية)، القاهرة، 1924م.

180- **مـصطفي عبـد الـرازق**: تمهيـد لتاريخ الفلـسفة الإسـلامية، مكتبـة الأسـرة (مصورة عن طبعة الثقافة الدينية)، 2007م.

181- **مصطفى النشار**، نظرية العلم الأرسطية؛ دراسة في منطق الـمعرفة العلمية عند أرسطو، دار الـمعارف، القاهرة، ط2، 1995م.

182- **ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم بـن منظـور الـمـصري الأفريقـي)**: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علـي الكـبير ومحمـد أحمـد حسب الله وهاشـم محمد الشاذلي، دار الـمعارف، القاهرة، د. ت.

183- **ميخائيل نعيمة**: الغربال، نوفل، بيروت، ط15، 1991م.

184- **نـازك الملائكـة**: قـضايا الـشعر المعاصـر، دار العلـم للملايـين، بـيروت، 1983م.

185- **أبو نواس (الحسن بن هانئ الدمشقي)**: ديوانه الشعري، بعناية: إسـكندر آصاف، بشرح: محمود واصف، الـمطبعة العمومية، القاهرة، 1898م.

186- **محمود شـاكر القطـان**: مقدمـة التحقيق [الكتـاب: اختيـار الـممتـع في علـم الشعر وعمله، للنهشلي]، الهيئة الـمصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م.

187- **النـويهي (محمـد النـويهي)**: قـضية الـشعر الجديـد، مكتبـة الـخانـجي، القاهرة، ط2، 1971م.

188- **والترج.أونج**: الشفاهية والكتابية، ترجمة: حسن البنا عز الدين، مراجعة محمد عصفور، سلسلة عالـم الـمعرفة، الكويت، عدد182، فبراير1994م.

189- **يوسـف حسن نوفـل**: نقـاد النص الـشعري، الـشركة الـمـصرية العالـمية للنشر- لونجمان، القاهرة، 1997م.

منجز شوقي ضيف النقدي

ناقد الشعر وسلطة التراث

هذا المشروع

يطمح المشروع الراهن إلى مناهضة الصورة المختزلة الملتقطة عن شوقي ضيف؛ تلك التي تقدمه مجرد مؤرخ للأدب العربي، أو بالأحرى إلى التكاتف بجوارها لتتجلى لنا أوجه نشاطاته الأخرى، التي تنزوي عن جمهور المتلقين، فيتخذ من الوجه النقدي موضوعا له، وينفتح في اتزان على نتاجه الضخم، ويتوسل بالمناهج البحثية المتنوعة: الوصفية والمعيارية والمقارنة؛ ليحلل الخطابات ويقيم الموازنات ويسائل الأحكام؛ أملا في الكشف عن قسمات هذا الوجه من جانب، وتقديم شخصيته مكتملة الأبعاد من جانب آخر.

هذا الكتاب

يعرف الكتاب الحالي بشوقي ضيف؛ ناقد الشعر، في سياق سلطة التراث على منجزه، كما يستشرف آفاق العلاقة الجدلية بينهما، فيتوقف عند نشأته التراثية ورسالته التي نال بها درجة الماجستير لبيان آثارهما، وإزاء تصوره الكلي عن التراث؛ ليستثير قضاياه ويستخلص مفهومه ويستجلي أصداءه، وعند مشروع التعريف بنقاد العرب القدماء؛ متابعا له في أطواره ومحددا ملامحه المتساوقة والمتخالفة، ولدى موقفه من المنهج النقدي الذي الأسلاف في شروحات الشعر، على مستويي التنظير والممارسة، صفحات الماقبل التي تبث رؤيتنا الخاصة عن الموضوع وتستعرض ال التي تشاركنا معالجته.

تباع كتبنا لدى المكتبات الكبرى :
دار المعارف - الأهرام - الأخبار - الجمهورية - الهيئة المصرية العامة للكتاب
روزاليوسف ... ودار الأم للكتاب ٢٨ شارع الدقي ت: ٣٣٣٥٩٧١٩٠